الطّفل بين النصّ والصّورة في مجتمع اليوم

صلاح الدين بن فضل

ينمو طفل اليوم في ظل مجتمع اتّصاليّ تتعدّد فيه الوسائل والوسائط المعرفية وتسوده الصّور بمختلف أنواعها (فضائيات، ألعاب إلكترونية، انترنات...). ومجتمع اليوم هو مجتمع صورة إذ أنّ الطفل يبدأ بمشاهدة التلفزيون قبل أن يتمكّن من المشي أو الكلام. وتؤثر هذه الصّور تأثيرا كبيرا في النمو النفسي والفكري للطفل وتحدّد سلوكاته وتنشئته الاجتماعية.

فبالرغم من دورها في التثقيف والتسلية، فإنّ الصّورة بوجه عام والصّورة التلفزية بوجه خاص، تمثل مصدر تساءلات بما أنها تأخذ مكان الكتاب أحيانا وتحرم بالتالي، الطفل من وقت للتفكير، للعزلة وللعلم. وهذا القوت له أهميته في النمو النفسي للطفل بصفة عامّة.

والتلفزة اليوم أخذت مكانا هاما في الحياة العائلية والاجتماعية وهو ما أنقص من التواصل داخل الأسرة المعاصرة ومن الوقت المخصص للقراءة وللمطالعة.

والدّراسات تبيّن أن الأطفال الذي لا يطالعون، عادة ما يقضون وقتا طويلا في مشاهدة التلفزة. وفي هذا الصدد يصف عالم النفس الأمريكي Bronfenbrenner، العائلة الأمريكية بأنها تتكوّن عادة من أمّ وأب أحيانا، وطفل.. وتلفاز. وهذه الصورة يمكن أن تنطبق على الأسرة المعاصرة إذ أنّ أطفال وشباب اليوم، هم مستهلكون للصّور بجميع أنواعها وليس للكتب وهو ما أنتج سلوكيات وأنماط تفكير جديدة.

ويمكن لهذه السلوكات أن تظهر في صعوبة التركيز التي نلاحظها لدى بعض التلاميذ أو في تقطيعهم للعمل والمرور بسرعة من جزء إلى آخر وهو ما يمكن أن نعبّر عنه بمصطلح Zapping.

فالخطية (la linéarité) التي تقتضيها القراءة والتي تجعل القارئ يبدأ من الصفحة الأولى لينتهي بالأخيرة لم تعد لازمة في هذا النمط السلوكي الجديد الذي يعتمد على الصورة. فالطفل يقسّم ويجزئ ويختار في علاقة شخصية ومتقطعة مع الواقع.

ومن ناحية أخرى، غالبا ما يكون الطفل أو الشباب أمام الصورة أعزل وغير مهيأ فكريا للقيام بالخيارات الجيّدة. فيصعب عليه الاختيار والنقد وفهم المحتويات والترهانات المتعلقة بالصّورة وبالرسالة التي تحملها.

وهذه الإشكالية تمسّ وعي المشاهد والمواطن عامّة بما يشاهده وهي تخص مجتمعنا من خلال غزو الفضائيات والقنوات التلفزية وشبكات الأنترنات.

فالطفل أو الشاب لا يمكنه أن يصمد أمام الصّورة كطرف قوي (interlocuteur puissant) إذ ليس له

القدرات الفكرية اللازمة ليتحكم في الصورة ويخضعها إلى التحليل المنطقيّ.

والصّورة مثلما يمكن أن تمثل وسيلة هامّة للتكوين والتعلّم فهي أيضا يمكن أن تتحوّل إلى مصدر قلق، فتعزل الطفل أو الشاب من عالم الواقع وتجعل منه شخصا غير فاعل ومدمنا (على التلفزة أو الألعاب الألكترونية).

ويجب منا التأكيد على دور الوليّ والمربي في مساعدة الطفل أولا على اختيار الكتاب بدلا للصّورة، كلّما أمكن ذلك وثانيا على جعل الطفل فاعلا أمام الصورة وليس مجرد مستهلك.

فالسؤال الذي يطرح اليوم هو : كيف يمكن استغلال الصورة لفائدة الطفل وجعلها وسيلة لتنمية قدراته الفكرية ؟

إنّ مرافقة الولي أو المربي وتأطيره للطفل تكتسي أهمية بالغة حيث أنها تمكن الطفل والشاب من فهم أنّ الصّورة هي تمثيل لواقع معيّن وهي خاضعة لاختيارات محدّدة حسب أهداف معينة.

وهو ما يمكّن من فهم الواقع عبر تفسير آليات تحويل هذا الواقع إلى صور. وفي هذا النشاط البيداغوجي فائدة فكرية تمكن من تنمية القدرات الميتامعرفية للطفل (les capacités métagrnitives). فمساعدة الطفل على قراءة الصّورة فيها إحياء لطاقاته وقدراته الفكرية في التحليل والنقد وحمله على «مشاهدة» نفسيه وهو يشاهد الصورة، وفي هذا تكوين لمشاهدة وقارئ واع. أمّا الاستكفاء بتقبّل الصورة بطريقة سلبية وغير فاعلة، دون أي نشاط لغوي وفكري فهو لا يمكّن من تكوين وتنمية القدرات الفكرية كالتي يمكن تنميتها عبر الممارسات القرائية والكتابية. وهنا تكمن إحدى الجوانب التي تبيّن علاقة الصورة بالنص وباللغة بصفة عامّة.

فالباحث وعالم النفس الروسي Vygotsky يؤكدّ في جلّ أعماله، على أهمية الممارسات اللغوية في تكوين القدرات الفكرية للفرد. واستعمال اللغة (قراءة، كتابة، مناقشة...) يمثل ضرورة نفسية وفكرية يجب التأكيد عليها نظرا لأهميتها في النمو الفكري للطفل. لذلك وجب ربط الصورة بالممارسات اللغوية اللازمة والتي تمكن من توظيفها وجعلها أداة لتنمية القدرات وليس فقط وسيلة للترفيه والإستهلاك.

فالصورة وحدها لا يمكن أن تكون مصدرا للتكوين الفكري إذا لم يقع ربطها ودعمها بممارسات لغوية وتحليلية. ومن هنا وجب التأكيد على أهمية تشجيع هذه الممارسات لدى الطفل المشاهد وحثه على تحويل ما يشاهده إلى تجارب لغوية والتفكير في الصورة وحولها.

والملاحظ أنّ طفل وشاب اليوم يقضي ساعات أمام التلفزة أو الحاسوب دون أي نشاط فكري فاعل ودون أي فهم واع.

ففي غياب هذا النشاط الفكري وهذه الإحاطة التربوية تتحوّل الصّورة إلى مصدرا للقلق وللتساؤل.

ولهذا فإن التأطيل التربوي لاستعمال الصورة هو ضرورة يجب التأكيد عليها وترسيخها في الممارسات الأسرية أولا والمدرسية ثانيا. فالصورة هي مصدر حيّ تبنى عليها مجموعة من الأنشطة الفكرية كالوصف والتحليل والنقد، وهو ما يمكن الطفل تدريجيا من أن يكون فاهما وفاعلا في علاقته مع الصورة. وهذه الأنشطة يمكن أن تندرج ضمن البرنامج المدرسي في شكل تربية حول الصورة (une éducation à l'image) إذ يمكن مثلا القيام بعمل حول الظروف الفنية والتقنية لصنع الصورة التلفزية وهو ما يمكّن الطفل والتلميذ من فهم موضوعي وتجريبي لآليات الصورة وكيفية صنعها.

وفي هذا العمل تحضير لوعي الطفل بما يشاهده وهو ما ينمي القدرة في فهم أنّ الصورة لا تمثل بالضرورة الواقع، وهي غالبا ما تكون خاضعة لاختيارات ذاتية إذ يمكن تغييرها وتبديلها حسب الظروف والأهداف.

وفي الخلاصة يمكن القول إن الصورة بوجه عام

والتلفزة بوجه خاص هي بدون شك تمثل مصدرا للتفتح على العالم وعلى الثقافة وهي أيضا وسيلة لتنمية الخيال والقدرات الذاتية ولكن هناك ظروف يجب تهيئتها وعدم تناسيها مثل :

- مراعاة أوقات الاستعمال.
- مرافقة الكبار والمناقشة والتحاور حول ما يشاهد.
- اختيار البرامج ونقدها وتقييمها.

وفي هذه الظروف تأكيد على أهمية دور الكبار، إذ تشير بعض الدراسات مثلا إلى أن البرامج العنيفة لها نتائج أكثر حدّة لدى الأطفال الذين يشاهدونها في العائلة دون مناقشة أو تحاور وذلك مقارنة بمشاهدتها ومناقشتها مع الولي.

فسكوت الولي يمثل بالنسبة للطفل موافقة ضمنية للعنف (une caution pour la violence) الذي يظهر وكأنه واقع وحقيقة، وهذا موضوع آخر يجب التفكير فيه.



أيّ كتـاب للطّفل في العصر الرّقميّ ؟

جلال الرّويسي

تهدف هذه المداخلة إلى طرح الأسئلة أكثر ممّا تسعى إلى تقديم الأجوبة. أسئلة تفرضها مجموعة من الوقائع الميدانيّة والتطوّرات الحضاريّة والابتكارات التّكنولوجيّة والأدبيّات الفكرية والاهتمامات الشخصيّة. وتنهض في مجملها على سؤال جوهري عام ينصبّ على علاقة كتاب الطّفل تأليفا وتصميما ونشرا وتداولا واستيعابا بالتّكنولوجيا الرّقمية. ولا أخالني في حاجة إلى تبرير هذا الاختيار على الطّفل دون سواه من المراحل العمرية الأخرى، فحساسية هذه السّن في إشكالية المطالعة وتأثيرها على بقية مراحل عمر الإنسان وعلى نموّ شخصيّته وميوله لم تعد في حاجة إلى بيان أو برهان. ولكن لابدّ من تأسيس الأسئلة التّي سنطرح على مفاهيم مفتاحيّة تتّصل بثلاثية الكتاب والمطالعة والطّفولة.

1ـ المفاهيم الأساسية :

1 ـ 1 ـ في مفهوم الكتاب :

عندمـا نقـول ألّف فـلان كتابـا فنحن نقصد فعل الكتابـة، حتّـى وإن لـم يؤدّ ذلـك إلى النّشـر. فالكتـاب من هـذه الزّاويـة يعنـي الأثـر l'oeuvre (أو المضمون le contenu). لذلك، ترانا نقول لفلان عديد الكتب غير المنشورة أو لفلان كتاب قيد الطّبع. ولكنّ لفظة كتاب تعني كذلك وعاء وثائقيا ذا مواصفات ماديّة معيّنة كما عرّفته منظّمة اليونسكو le codex. فترانا نتحدّث عن الكتاب لنفرّقه عن الجريدة أو المجلّة أو الكرّاس إلخ. وفي جنس الكتاب نفسه نتحدّث عن كتاب الجيب والكتاب الفاخر والكتاب المجلّد إلخ.

وفي اشتغالنا على كتاب الطّفل فإنّنا سنتناوله من كلا الجانبين: المحتوى والوعاء contenu & contenant.

2 ـ 1 ـ في مفهوم المطالعة :

إنّنا لا نقصد بها ذلك الفعل المزدوج المتمثّل في فكّ الحرف وتحويل الرموز المكتوبة إلى كلمات وجمل. فهذا المفهوم يحيل إلى القراءة لا إلى المطالعة. وإنّما نعني بالمطالعة استيعاب المعلومات بكافّة أشكالها النصّية والمرسومة والمصوّرة والمسموعة والوثائق السّمعيّة البصريّة والمحامل الإلكترونيّة وسائر البيانات الأخرى، استيعابا ينبني على فهم معانيها الظّاهرة والباطنة من مجازات واستعارات وإحالات وتضمينات ثمّ التفاعل الذّهني مع هذه البيانات في علاقة إقبال حرّة. إنّها فعل التدبّر والهضم والتملّك الذّهني في علاقة إقبال حرّ وممتع. فالمطالعة فعل يقبل عليه الفرد بكامل إرادته بقطع النّظر عن الغاية النّفعية التّي تحرّك ذلك الفعل. وهكذا، فإنّ قراءة الدّروس ومراجعتها تحت ضغط الامتحان لا تعدّ مطالعة. كما لا تعتبر مطالعة مراجعة

الملفّات والتّقارير الإداريّة تحت ضغط الحاجة المهنيّة (إعداد اجتماع أو تحرير تقرير الخ). في حين يعتبر مطالعة الإقبال على المقالات العلميّة والقانونية، ولو كانت تحرّكه الرّغبة في تحسين الكفاءات المهنيّة، لأنّه فعل يتوفّر على شرطي الحرّية والمتعة. إنّ المطالعة بهذا المعنى تغدو ترويحا récréation وإعـادة خلق re-création وولادة وتوليدًا procréation.

3 ـ 1 ـ في مفهوم الطّفولة :

لابدّ في البداية من الإشارة إلى أنّ مرحلة الطّفولة تنقسم إلى مراحل فرعيّة. فالطّفل الرّضيع يختلف عن طفل الثّلاث إلى خمس سنوات (أو ما يعرف بسنّ ما قبل الدّراسة) الذّي يختلف بدوره عن سنّ الدّراسة الابتدائية والذّي يمتدّ من ستة إلى اثني عشر عاما. وهو بدوره يختلف عن الطفل الذّي يواجه أسئلة الجسد المربكة للذّهن. فلكلّ مرحلة عمريّة خصائصها النّفسيّة والفيزيولوجيّة والذّهنيّة التّي تتأثّر بالشّرط الاجتماعي المؤطر لها (مستوى العيش، التّنشئة الأسريّة، الحياة الدّراسيّة، الاندماج الاجتماعي، الخ).

على أنّ ما يهمّنا التّأكيد عليه هو أنّ العلاقة بالكتاب تبدأ في مرحلة مبكّرة جدّا من حياة الفرد. ودون مبالغة فهي تنطلق منذ سنّ الرّضاعة حيث ترافق انبثاق قدرات الطّفل الاتّصالية مع الآخر ومع عالمه الخارجي.

وهنا يؤكّد علم النّفس التّحليلي أنّ الاتّصال بين الفرد والفرد يتأسّس على مبدإ التعرّف الرّمزي l'identification symbolique ذلك وفق ديناميكيّتين اثنتين :

• ديناميكيّة سيكولوجية تتلخّص في تشكّل الذّات بواسطة الصّورة المرتدّة (المعكوسة) للطّفل من خلال احتكاكه بالآخرين، حيث يرى فيهم ذاته ويتعرّف فيهم على نفسه (le stade du miroir).

• ديناميكيّة اتّصاليّة يتحوّل بمقتضاها الطّفل إلى منتج للخطاب ما إن يتمكّن من أساسيّات التّخاطب اللّغوي (1).

2 ـ الطّفل والمطالعة (2) :

يبدأ الطّفل في التطلّع إلى الكتاب (وهو شكل من أشكال المطالعة) منذ فترة الرّضاعة. إذ تجلب انتباهه الصّور والكتب المصوّرة التّي يرى فيها نوعا من اللّعب. ومن هنا أهمّية أن ينشأ الطّفل في فضاء بصري مؤثّث بالكتب وفي محيط مطالع (يمسك الكتب ويتصفّحها ويتأمّلها لفترات طويلة بتركيز وصمت ويتفاعل معها بين الحين والآخر بالتّعليق أو الابتسام أو تحريك الرّأس أو بسائر قسمات الوجه، الخ). إنّ وجود الكتاب في محيط الطّفل يجعل منه شيئا مألوفا لديه فيتعوّد على الإمساك به وتأمّل رموزه وطلاسمه وصوره حتّى وإن كان غير قادر على فهمها واستيعابها. ثمّ إنّ الطّفل يحبّ تقليد الكبار المحيطين به فنراه يمسك الكتاب ويفتحه معلنا أنّه يقرأ. وهو في ذلك ليس مدّعيا تماما حيث أنّ هناك نسبة من الصّواب في ما يزعمه. فالتعرّف على الصّور وتسمية ما تمثّله هو جهد ذهني كبير بالنّظر إلى ملكات الطّفل في ذلك العمر. ثمّ ينتقل الطّفل إلى تقمّص شخصيّات الكتاب فيتأثّر بما يراه من انفعالات لدى شخصيّات الكتاب حتّى يكاد يبكي أو يرقص أو يضحك مقلّدا في ذلك تلك الشّخصيّات.

إنّ هذه المرحلة حاسمة في علاقة الطّفل بالمطالعة حيث يجب استغلالها لتنمية الميول القرائية لدى الطّفل ودعمها بالقصص الخيالية وبلذّة اكتشاف الأحداث وتتبّع تطوّرها ومن هنا أهمّية المصاحبة l'accompagnement.

لكن على هذه المصاحبة ألاّ تتحوّل إلى فعل تلقين وإسقاط وتوجيه لخيال الطّفل ولفهمه ولميوله. حيث على الكهل المصاحب للطّفل في عمليّة المطالعة أن يترك لهذا الأخير حرّية اختيار الشّخصيّات التّي يرى فيها ذاته، كأن لا يطلق الكهل مثلا اسم الطّفل على بطل القصّة بحجّة مساعدة الطّفل على تمثّل تلك الشّخصيّة بما تحمله من قيم إيجابيّة. ومن ناحية أخرى، فالمصاحبة لا تعني الحياد واللاّمبالاة بتعلّة الخوف من التّوجيه والتّلقين. وإنّما تعني مساعدة الطّفل على التّركيز والقراءة كفكّ

الكلمات الصّعبة وتفسيرها أو التّناوب على قراءة النّص وذلك في تواطؤ تام يسمح بتقاسم صادق للانفعالات ومتابعة الأحداث وتطوّراتها.

وعندما يتقدّم الطّفل إلى سنّ المدرسة لابدّ من مضاعفة الحذر في علاقته بالمطالعة والكتب. حيث سيدخل معطى جديد على غاية من الأهمّية وهو المدرسة بما تمثّله من تحوّل في محيط الطّفل وعالمه وبما تمثّله أيضا من طرق بيداغوجيّة في التّعليم قد لا تتلاءم دائما مع مقتضيات المطالعة الحرّة. والتّوفيق بين القطبين صعب ولكن غير مستحيل، أو لنقل ممكنا ولكن غير يسير. فأطفال ما بين سنتي السّادسة والثّامنة يتميّزون بشغف معرفي واسع وفضول فكري لا حدّ له وتلهّف لفهم كل شيء. لذلك، تراهم يحاصرون الكبار القريبين منهم (وخاصّة الأولياء) بالأسئلة ويمطرونهم بما لا يتوقّعونه منهم من الأسئلة المربكة. وتمتد هذه الفترة من ثلاث إلى أربع سنوات يضيق فيها أحيانا صبر الكبار بفضول الصّغار. فالطّفل، وإن كان يحافظ على حبّ القصص الخياليّة والحكايات السّحرية المثيرة للدّهشة، إلاّ أنّه لا يقبل أن يعامل كغير عاقل أو كساذج يمكن استبلاهه بأجوبة لامعقولة. وكلّما تقدّم في الدّراسة الابتدائيّة كلّما ضعف تصديقه لحكاية المصباح السّحري أو بساط الرّيح أو صخرة سمسم التي تسدّ مغارة علي بابا... ولن يستعيد هذا الميل إلى الخيال إلاّ بعد سنوات عندما يكتشف الأدب من جديد وقدرته على التّجريد والمجاز والاستعارة. وقبل ذلك نرى الطّفل، وقد تطوّرت قدراته القرائية المدرسيّة، يوظّف كفاءاته في المطالعة التّوثيقيّة أي القراءة العقلانيّة التّي تساعده على فهم العالم وإدراكه إدراكا عقليا ومنطقيا. لذلك، نراه صارما وحريصا على الدقّة في المعلومات المتعلّقة بالواقع. فأن نعترف بجهلنا للجواب العلمي أفضل بكثير من أن نحاول الالتفاف على أسئلة الطّفل بأجوبة فضفاضة وتقريبية. بل إنّها فرصة مواتية جدّا حتّى نصاحب الطّفل الملحّ في السّؤال في عمليّة البحث عن المعلومات وتقصّي الجواب.

لقد تتبّعنا إلى حدّ الآن تطوّر علاقة الطّفل بالمطالعة من مرحلة الرّضاعة إلى نهاية الدّراسة الابتدائيّة أين يصل إلى اكتساب استقلاليّة في علاقته بالقراءة والكتاب والمطالعة.

لكن، أن تصير قارئا مطالعا فهذا يعني أكثر من الاستقلاليّة في الاستيعاب. إنّه يعني كذلك أن تصير قادرا على إعادة إنتاج ما استوعبته بأدواتك الخاصّة وببصمتك الشّخصيّة بما يقيم الدّليل على أنّك هضمت فعلا ما استوعبته، وعلى كون ذلك ساهم في تكوينك الذّهني وبناء شخصيّتك.

وفي جانب آخر، يحذّر أخصّائيو علم نفس الطّفل من انقلاب المطالعة من آليّة اندماج اجتماعي إلى آلية انزواء وتقوقع وانغلاق على الذّات. فالخطر أن يخفي الإدمان على المطالعة هروبا من العالم الواقعي إلى واقع غير معلوم مؤثّث بالمجرّدات والأوهام والاستيهامات.

3 ـ كتاب الطّفل :

سنخصّص هذه الفقرة لاستعراض خصائص كتاب الطّفل. وسنتناول هذه الخصائص من ناحية الشّكل في مستوى أوّل ومن ناحية المضمون في مستوى ثان، مع التّأكيد على أنّه مجرّد تقسيم منهجي وإجرائي لا ينفي التّرابط القائم بين الشّكل والمضمون في كتاب الطّفل. فاللّعب على الألوان واعتماد الرّسوم والمرفقات الصّوتية، الخ كلّها اختيارات شكليّة تستدعيها مضامين معيّنة. كما يجب التّذكير بأنّ لكلّ مرحلة عمرية من الطّفولة خصائصها النّفسيّة والذّهنية. لذلك، فإنّ الخصائص تتغيّر حسب الشريحة العمرية المستهدفة داخل فئة الأطفال. وبالتّالي، فإنّ حديثنا عن الخصائص الشّكلية والمضونية لكتاب الطّفل لا يقبل التّعميم ولا يستقيم له معنى إلاّ متى تمّ ربطه بالفئة الفرعية المستهدفة من الطفولة.

3 ـ 1 ـ من ناحية الشّكل :

• حجم الحروف في العناوين وفي الفقرات: إنّ اعتماد تكبير الحروف والكلمات يعطيها كينونة واضحة ويسبغ عليها «شخصية» مميّزة تجعل الطّفل يتعرّف عليها دون عناء فتزداد ثقته بقدرته على فكّ أسرار الكلمات والتّعاطي مع المكتوب دون رهبة من غموضه أو تشعّب أشكاله وطرق رسمه.

• كثافة الصّفحة: إنّ الفضاء بين السطور والفقرات والمساحات الفارغة المتروكة على فضاء الصّفحة عناصر تساعد على تهوئة النّص والتّخفيف من وطأته على الطّفل فيتخلّص من رهبة الصّفحة المرهقة (3).

• سمك الكتاب (عدد صفحاته): إنّ كتب الخيال الممتعة والمشوّقة أو الكتب العلميّة المثرية للمعارف والمثيرة للفضول تجعل الطّفل يتمسّك بقراءتها دفعة واحدة. وهذا أمر مستحسن شرط أن نراعي قدرة الطّفل على التّركيز والاستيعاب والتذكّر، ممّا يعني تجنّب الكتب السّميكة المنفّرة من المطالعة والمثيرة للملل لتعدّد صفحاتها.

• استعمال الألوان: ويجب أن يتمّ بإحكام ودون إسراف مخلّ بالاعتبارات الجمالية. فالبعد الوظيفي هو المحدّد في كيفيّة استعمال الألوان إن في تركيب النّص أو في مرفقاته من الرّسوم والصّور والجداول وسائر أنواع البيانات. وهنا لابدّ من الاستعانة بأصحاب الاختصاص في مجالي الفنون البصرية وعلاقة الألوان بالاستجابات النّفسية والاستثارات الذّهنية والحسّية.

• قياسات الكتاب (طول الكتاب وعرضه): وهي مسألة حسّاسة في تقريب الكتاب من وجدان الطّفل وخلق الحميميّة معه كإمكانيّة حمله في حافظة الأدباش والتّباهي به أمام الأطفال الآخرين أو احتضانه وضمّه إلى الصّدر أو فتحه على الرّكبتين وتصفّحه أو الانبطاح على الأرض أو الفراش وتصفّحه دون عناء حتّى النوم.

• شكل الكتاب: يمكن أن يتّخذ الكتاب عدّة أشكال كالمستطيل والمربّع والمستدير وعدّة أشكال أخرى مبتكرة وغير هندسية (تفّاحة، نجمة، آلة الأكورديون، (4) سيّارة، شجرة، سمكة، الخ.) وغالبا ما يكون اختيار الشّكل مدخلا أوّليا يحيل على موضوع الكتاب كما هو الحال في كتب التّبسيط العلمي مثلا.

• الموادّ المستعملة في صنع الكتاب: تتنوّع هذه المواد حسب السّن المستهدف (رضّع، سنّ ما قبل الدّراسة، متمدرسون، يافعون، الخ) فالكتاب اللّعبة يقتضي أن يتحمّل الرّمي والتجاذب والعضّ والبلل، لذلك غالبا ما يكون من البلاستيك أو على الأقل مغلّفا بالبلاستيك. لكن مقتضيات سلامة الأطفال وحمايتهم من «أذى الكتب» تتطلّب أن تكون المادة مرنة ومطواعة (كتب القماش). كما نجد الكتب المصنوعة من الورق العادي أم المقوّى وفي الأخير صرنا نجد كتبا على محامل إلكترونية (أقراص ليزر تتطلّب قراءتها توفّر جهاز كومبيوتر) أو قارئات إلكترونية مجهّزة بشاشات ضوئية في حجم صفحة كتاب متوسّط الحجم ومجهّزة ببطاريات تشغيل.

• طريقة الصّنع: تتعدّد طرق الصّنع حسب المواد المكوّنة للكتاب والأعمار المستهدفة فهناك كتب مصفّفة ومخاطة بآلات متطوّرة وهي الأمتن وهناك كتب ملصقة بالكاوي (5) وهناك كتب تراوح بين الصّناعة اليدوية والصّناعة المعمليّة وخصوصا تلك التي تنطوي في داخلها على مجسّمات وتضاريس ثلاثية الأبعاد.

3 ـ 2 ـ من ناحية المضمون :

• المواضيع المطروقة: إذا كان أطفال سنّ ما قبل الدّراسة شغوفين بالحكايات الخياليّة المدهشة (الكائنات العجيبة والوقائع الغريبة، الفنطازيا التي تجعل النّباتات تتكلّم والخيول تطير، الخ) فإنّ أطفال المرحلة الابتدائيّة، وإن كانوا يحافظون على ميلهم للقصص الخيالية، إلاّ أنّهم ينزعون إلى الخيال المنطقي أكثر من العجائبي ممّا يفسّر إقبالهم على الألغاز البوليسيّة وعلى القصص التّاريخيّة وعلى قصص الخيال العلمي،

وهي كلّها تخاطب فيهم الخيال والعقل معا ممّا ينمّي لديهم الإحساس بالقدرة على الفهم المنطقي والعلمي والرّغبة في توسيع معارفهم وتنظيمها. ونراهم يضيفون إلى ذلك ميلا إلى المعرفة العلميّة والتّقريرية التّي تفسّر الواقع. ويتجلّى ذلك من خلال رغبتهم في فهم الآليات المتحكّمة في الطّبيعة والعالم الذّي يعيشون فيه والمحيط الذّي يتحرّكون في إطاره. وهذا ما يفسّر إقبالهم على الكتب التّي تتناول مواضيع الحيوانات والنّباتات والجسم البشري والكواكب والبراكين والمحيطات. وفي مرحلة متقدّمة، لمّا يقفون على مشارف المراهقة، يستيقظ لديهم الحسّ الرّومنسي فيكتشفون عذوبة العبارة ورحابة الاستعارة وانفتاح المعنى. فيلتفتون إلى الشّعر وإلى النّصوص التأمّلية الباطنيّة التّي تحاور الذّات وتسبر أغوارها الوجدانيّة والفلسفيّة.

• الأجناس: تتساوق الأجناس مع المواضيع. وهكذا فإذا كانت المواضيع الخيالية تتلاءم مع الأجناس الأدبيّة السّردية (الحكاية، القصّة، الخ) فإنّ المواضيع العلميّة تنسجم أكثر مع الكتابة الوثائقية المدعّمة بالرّسومات البيانيّة والمعطيات المرقّمة. وإن كان هناك من الكتّاب من يسعى إلى المزج بين الأجناس فيكتب الرّواية العلميّة أو الرّواية التّاريخية أو الملحمة التّاريخية أو المسرحيّة الشّعريّة أو قصص السّيرة الذّاتية وهي كلّها مضامين علمية وتاريخية في صيغ خياليّة وإبداعيّة. وهذا يؤكّد على الأهمّية القصوى التي يكتسيها الجنس الأدبي بالنّسبة لكتب الأطفال وترغيبهم في المطالعة ويفسّر سيطرة الجنس الأدبي وأولويّته على الأجناس العلمية والتّقريرية الجافّة التّي تأتي في مرحلة النّضج الفكري بعد تأصّل فعل المطالعة لدى الفرد.

• نوعية البيانات (المادّة الإعلامية): تتوزّع هذه المادّة بين النّص المكتوب والرّسوم والخرائط والصّور والسّلاسل المصوّرة والمرفقات السّمعيّة والبصريّة (أصوات حيوانات وبراكين، أضواء، الخ) والمجسّمات ثلاثية الأبعاد، الخ.

وفي كتاب الطّفل، يمكن أن نقتصر على نوعيّة واحدة من البيانات أو أن نمزج بين الأنواع. فكتب الرضّع مثلا، تقتصر على الصّور دون سواها. صور معزولة عن بعضها البعض وموزّعة في مساحة بصريّة كبيرة تستدرج الرّضيع إلى فعل المطالعة بواسطة جولة بصريّة للتعرّف على محتويات الصّور. أمّا بالنّسبة لسنّ ما قبل الدّراسة، فتقترح الكتب رسوما يجمعها خيط رابط. فالشّخصيات نفسها تتكرّر من رسم إلى آخر ومن صفحة إلى أخرى، ولكن في أوضاع وديكورات مختلفة. وهكذا، يتعرّف الطفل على الشّخصية ويفهم أنّ الأحداث تتغيّر فيسعى إلى فهم الحكاية. وهنا، يأتي دور المرافقة من طرف الكبار ويتدخّل النصّ المكتوب بجرعات بسيطة ومدروسة جيّدا لرفع الغموض وربط الأحداث ببعضها. ومع تقدّم الطّفل الدّراسي ونموّه الذّهني، تكبر جرعة النصّ المكتوب أكثر فأكثر. ولكن، دون أن تغيب الأشكال الأخرى من البيانات. ولعلّ السّلاسل المصوّرة تبقى خير مثال يجسّد هذا المزج النّاجع بين النصّ والصّورة. وهو الذّي مهّد الطّريق أمام اعتماد أشكال حديثة في المزج بين النص والصّورة والصّوت والمجسّمات ثلاثية الأبعاد.

• التّعاليق والشّروحات والبيانات التّكميليّة: ونجمع تحت هذا الباب كلّ ما يتّصل بتوزيع المادّة الإعلامية والتّكامل الحاصل بين مكوّناتها. فالرّسوم قد تحتاج عناوين وشروحا، بل إنّها مؤكّدة في حالات البيانات العلمية كالخرائط أو الجسم البشري الخ. كما أنّ بعض النّصوص قد تستدعي تعليقات في الهوامش. ومن البيانات التّكميلية الأخرى المقدّمات والفهارس والكشّافات والتنبيهات والتّصحيحات وطرق الاستعمال واللّعب المرفقة والتّمارين التّطبيقية الخ. وليست جميعها مقتصرة على النّصوص العلمية فقد تعترضنا في الكتب الأدبية، خاصّة ونحن نشهد تداخلا بين الأجناس في الكتابة للأطفال.

• الأسلوب: ويتنوّع بتنوّع الأغراض والأجناس كما تبيّن ذلك الأمثلة التّالية.

- سردي، خطّي، مسترسل،

- وصفي، ساكن، يحاكي حركة الكاميرا في المشاهد العامّة والصّامتة،

- حواري، مسرحي،

- حركي، سريع النّسق، ومشوّق كما في قصص المغامرات،

- خرافي، ساحر وعجائبي لا يعبأ بخطّية الزّمان ولا بقوانين الفيزياء والمكان،

- خيال علمي، يتوسّل الإدهاش دون خرافيّة. يتناول الظّواهر المدهشة بأسلوب الاستدلال العلمي. لكنّه يتجاوز الضّوابط العلمية الصّارمة بفسح المجال للخيال في تصوّر وقائع خارقة مع الحرص على استلهامها ثمّ تفسيرها بأسلوب الاستدلال العلمي.

- ملحمي، يؤكّد على البطولة الجماعية والقيم والأمجاد المشتركة كما في الرّوايات التّاريخية، الخ

• اللّغة: لا يكفي القول بأنّ السنّ تفرض اللغة التي تناسبها. لأنّ الأهمّ من الإقرار بهذه البديهة هو الوعي بوظيفة كتاب المطالعة كأداة للتّدريب اللّغوي خارج الإطار المدرسي والمناهج التّعليميّة الرّسميّة. فمؤلّف كتب الأطفال لا يكتب فقط لسرد حكاية ساحرة وممتعة أو لغرس قيمة أخلاقية سامية بل وكذلك لتربية الحسّ اللغوي قراءة ونطقا وتركيبا وتعبيرا واستعارة وتجريدا وبلاغة الخ. وبالتّالي، فإذا كانت كتب البدايات لا ترمي إلى أكثر من خلق الألفة ونزع الرّهبة من اللّغة، ممّا يؤكّد أهمّية المرافقة والقراءة للأطفال بصوت مسموع، فإنّ كتب المراحل اللاّحقة ستكون مركّزة على إثراء الزّاد اللّغوي وعلى تنمية القدرات التّعبيرية لدى الأطفال. ولا تتدخّل الاعتبارات البلاغيّة كالمجاز والتّجريد والاستعارة الخ. إلاّ في المراحل الأخيرة للطّفولة.

3 ـ 3 ـ كتب الأطفال في عيون الأطفال :

توصّلت بعض الدّراسات المتعلّقة بهذا الموضوع إلى حصر مواطن إعجاب الطّفل بالكتاب المخصّص له والجوانب التي تنفّر الطّفل من الإقبال على هذا الكتاب في النقاط التّالية (6).

3 ـ 3 ـ 1 ـ ما لا يعجب الطّفل في كتاب الطّفل

• في مستوى بداية القصّة

- الموضوع لا يشدّ اهتمام الطّفل إذ لا يحسّ نفسه معنيّا به

- انطلاقة الحكاية بطيئة، ولا يكاد يحدث شيء مثير طيلة الصّفحات الأولى. وهذا يؤكّد على أهمّية أن تحصل أحداث مثيرة منذ البداية.

- صعوبة فهم الوضعيّة والإلمام بها منذ البداية.

- صعوبة تمثّل الإطار العام وتخيّل الدّيكور.

- صعوبة تمثّل العلاقات الرّابطة بين الشّخصيات ممّا يؤدّي إلى الخلط بينها.

• في مستوى الأسلوب :

- صعوبة تبيّن من المتحدّث عند المحاورات

- عدم فهم فقرات بكاملها نظرا لصعوبة المفردات

- أسلوب السّرد معقّد، وبعيد عن اللّغة المعتادة لدى الطّفل وهي الوحيدة التي يفهمها

- تدخّل الكاتب باستطرادات تكسر انسيابيّة السّرد وتقطع على الطّفل حبل أفكاره وتمنعه من الاسترسال في متابعة القصّة وأحداثها

- إثقال النّص بإحالات ثقافيّة تتجاوز قدرة الطّفل على الفهم (حكم، أمثال، ألغاز، أحداث، شخصيات تاريخية، مواقع ومدن، الخ)

• في مستوى حبكة الأحداث والعقدة :

- تنطلق القصّة واعدة ومحمّلة بالتّشويق. لكنّها تخذل انتظارات الطّفل وتراوغه باقتراح عقدة مخالفة لما هو متوقّع.

ـ يحتاج القارئ المبتدئ بنية حكائيّة بسيطة تسمح له بتوقّع الأحداث في تسلسلها ممّا يبعث فيه متعة القراءة ويعزّز لديه الثقة بقدرته على الاستيعاب والتنبّؤ بالأحداث.

ـ الحكاية تفتقر إلى إيقاع. إنّها لا تتضمّن إشارات دالّة على موقع الأحداث في المسار السّردي العام. القصة المحبوكة تعني التحكّم في تصعيد النّسق وإبطاءه حسب الانفعالات المرغوب في بعثها لدى القارئ.

• **في مستوى التّعاطي البصري مع الوثيقة :**

ـ غالبا ما يرهب الطّفل من مطالعة نص مطوّل وخال من الصّور أو المصاحيب الأخرى.

ـ ينفر الأطفال (من 7 إلى 9 سنوات) من القصص التي لا تدرج رسومها في المواقع المطابقة لها داخل النص المكتوب.

ـ ينتج عن اعتماد الأحرف الصّغيرة والأسطر المتقاربة صفحات كثيفة ومزدحمة بالكتابة. وهو ما يرهق بصر الطّفل الصّغير وذهنه وينفّره من الإقبال على الكتاب والمطالعة.

ـ وكذلك يفضي اعتماد الصفحات الكبيرة إلى نصوص ذات أسطر طويلة وعريضة تؤدّي إلى نفس الشيء. ومن هنا ضرورة إدراج رسوم أو فراغات لإراحة العين والمحافظة على التّركيز.

3 ـ 3 ـ 2 ـ ما يحبّه الطّفل في كتاب الطّفل :

ـ يبحث الطّفل داخل كلّ قصّة عن بطل يرى فيه ذاته ويتعلّق به.

ـ يبحث الطّفل داخل كلّ قصّة عن انفعالات عاطفية قويّة تهزّ وجدانه وتحرّك سواكنه كالخوف والفرح والدّهشة والاستنكار والحزن والعطف والتردّد والحب والغضب الخ.

ـ يفضّل الطّفل الرسوم التي تسمح بالتعرّف على الشّخصيّات مهما كان موقع الرّسم من تطوّر الأحداث وحالة الشّخصية وهيئتها داخل الرّسم. فمهما تغيّرت حالة الشّخصية (نائمة، واقفة، مقرفصة، وراء القضبان، ضاحكة، غاضبة، الخ) يجب أن تحافظ على نفس الملامح رغم تغيّر القسمات والحالة حتّى يستطيع الطّفل التعرّف عليها. بل إنّ بعض الشّخصيات لا تتغيّر رغم عامل الزّمن الذّي يفترض أن يصاحبه نمو تلك الشّخصية. فشخصية «تانتان» مثلا ترسم بنفس الملامح منذ عدّة عقود وهذا من أسرار نجاحها رغم طابع المفارقة في ذلك.

ـ يفضّل الطّفل الرّسوم التي تضيف للنص بعض التّفاصيل فتثريه بها ولا تكتفي بتلخيص النص وتجسيد ما جاء به في رسم لا دور له سوى تكرار النص.

3 ـ 4 ـ خلاصة حول ميول الأطفال :

كثيرا ما يسعى الأولياء إلى ترغيب أطفالهم في المطالعة من خلال قصص حفظتها ذاكرتهم وأثّرت فيهم عندما كانوا أطفالا. فتراهم يعرضون عليهم قصص «أمّي سيسي» و«علي بابا» و«علاء الدّين والمصباح السّحري» و«الأميرة النّائمة» الخ. ويثورون على أطفالهم عندما لا يقبلون على هذه القصص «الخالدة» التي قرأها آباؤهم وأجدادهم وأثّرت فيهم وصقلت خيالهم ويخلصون بسرعة إلى كون أطفال اليوم لا يقرؤون.

والحقيقة التي ينساها هؤلاء الأولياء أنّ لكل عصر اهتماماته ولكل جيل همومه وميوله القرائية في علاقة بقضايا كل مرحلة وبالتطوّرات الحاصلة والأسئلة المترتّبة عنها: الاكتشافات العلميّة والتكنولوجية، الاتّجاهات الفنّية، القيم الأخلاقية، الحروب والأمراض، الخ.

إنّ أطفال اليوم يولدون في محيط يعجّ بالتّكنولوجيا وبوسائل الاتّصال عن بعد ويتعاطون بيسر مع إشكاليات علميّة كانت تحيّر الأجيال التي سبقتهم. فالأجهزة الإلكترونية بالنّسبة إليهم ألعاب مسلّية يستعملونها بسهولة ويتدرّجون في التّعاطي معها

حتّى يصلوا إلى التّطبيقات الدّراسية والعمليّة اليومية. وفي جانب آخر، يتميّز إدراك أطفال اليوم للكون ومنظوماته الفلكية بعقلانية ومنطق علماني يقطعان مع التّفسيرات الغيبيّة والخرافيّة وكذلك الأمر لمبادئ علوم الحياة والطّبيعة (الخلايا، الجسم البشري، النّباتات والحيوانات، الخ.)

إنّ نجاح كتاب الطّفل اليوم مرتبط بتناوله لأسئلة طفل اليوم بأدوات ومقاربات تساعده في التّعاطي مع عصره وبيئته. لكن، يجب ألاّ يفهم من هذا القول دعوة إلى اقتصار الكتابة للأطفال على الكتب الوثائقية والعلمية دون غيرها. فالخيال وسحره يظلاّن من أوكد الشّروط لبناء العقل المرن والذّهن واسع الأفق والخلاّق.

4 ـ كتاب الطّفل في عصر تكنولوجيا المعلومات والاتّصال:

أدخلت الثّورة الرّقميّة تحوّلات جوهريّة على بنية النّص ومكوّناته وآليّات التّعاطي معه تأليفا وصناعة وقراءة وتداولا... حتّى وإن ظلّ كثير من النّاس بعيدين عن التّعامل مع النّصوص الرّقميّة إمّا لردّة فعل محافظة ورافضة للتّطوّر أو لعدم توفّر الأجهزة والتّكنولوجيا اللاّزمة لذلك أو لغياب المهارات الضّرورية للتّعاطي مع النّصوص الرّقميّة.

إنّ للنّص الرّقمي خصائص عديدة لعلّ من أبرزها:

البنية المتشعّبة والمتشابكة	l'hypertextualité
التّفاعلية	l'interactivité
مرونة التّداول والحركية	la mobilité
عدم الاستقرار والثبات	l'instabilité
الآنية والفورية	l'immédiateté
تعدّد الوسائط	le multimédia
سعة الخزن	la capacité de stockage
حرّية القارئ في اختيار ما يناسبه وتشكيل النص حسب احتياجاته	la modularité
التشابه مع اللعب	la dimension ludique
الحاجة إلى جهاز قراءة وبرمجيات	

ولهذه الخصائص انعكاسات جمّة على عدّة أوجه من تعاملنا مع النص الرّقمي لخّصناها في النّقاط الثّلاث التالية: (7)

1 النّسبة والملكية الفكريّة

2 آليات القراءة والاستيعاب

3 اقتصاد النص الرّقمي من حيث كلفة التّداول والاستنساخ

أوجه المقارنة	النّص الورقي المطبوع	النّص الرّقمي
النّسبة والملكية الفكرية	ـ يتمّ تدوين الملاحظات على هامش الصّفحة أو بين السّطور دون حصول تداخل بين النص الأصلي والملاحظات ـ إنّ ترتيب أجزاء النص من مشمولات المؤلّف لوحده	ـ يمكن إدماج الملاحظات في «جسد» النص ذاته وبذلك يتداخل النص الأصلي مع الملاحظات ـ يمكن للقارئ أن يتدخّل لإعادة ترتيب النص كما يشاء ـ يطرح النص الإلكتروني إشكالات تتعلّق بمصداقيته ـ يتميّز النّص الرّقمي بعدم استقرار في بنيته قد تصل به إلى حدّ التبخر، ولو أنّ هناك برمجيات وحلولا تكنولوجية تسعى إلى ضمان استقرار بنيته وحمايته من التّشويه مثل برمجية Acrobat (PDF) التي من بين ما تقترحه عرض النّص في شكل صورة ثابته.

آليات القراءة والاستيعاب	- نص خطي تكون قراءته بشكل مسترسل - النص الورقي أكثر ثباتا واستقرارا وبالتّالي أكثر مصداقية - وسيلة التنقّل داخل النص الورقي هي التصفّح - يستعين القارئ لاستيعاب النص الورقي وفهمه بوثائق أخرى (قواميس وغيرها من المراجع التي قد لا تتوفّر بشكل فوري) - تحتاج قراءة هذا النص إلى مصدر خارجي للضوء قد لا يتوفّر أحيانا وقد يزعج المحيطين بالقارئ أحيانا أخرى	- نص يعتمد إضافة إلى المكتوب على الصور الحيّة والثابتة وكذلك التّسجيلات الصّوتيّة - النص الفائق متشابك يحيل على نصوص إلكترونية أخرى بواسطة الرّوابط ويقرأ بشكل انتقائي وغير مسترسل. لكنّه يفقد هذه القيمة ويتحوّل إلى نصّ جامد بل منقوص (مبتور) حلما تقع طباعته على الورق - .وسيلة التّنقّل داخل النص هي الكشّافات وقائمة المحتويات والرّوابط التي تسمح بأكثر حرّية في التّنقّل داخل النص. على أنّ هذه الميزة غالبا ما تنقلب إلى سلبيّة عندما تتسبّب في إضاعة القارئ للوجهة والمسار (وهو ما يعبّر عنه بالتّيه) - تسمح تكنولوجيا الإحالة بواسطة الرّوابط المتشابكة بتفسير النص وفهمه بالتدقيق من خلال الاستدعاء الفوري لنصوص أخرى. - قراءة النّص الإلكتروني تتوفّر على عدّة تسهيلات كتكبير الحروف وتلوين الفقرات الخ. - النّص الالكتروني هو نص ضوئيّ بطبيعته. وبالتالي لا تحتاج قراءته لإضاءة خارجية. إضافة إلى ما تتطلّبه قراءة النّص الفائق من برمجيات وتجهيزات لقراءة الصّوت والصّورة لكنّ التعرّض المطوّل لإشعاعاته يضرّ بالبصر.
الاقتصاد: كلفة التّداول والاستنساخ	- عندما يكبر حجم النص يصبح تداوله ونقله عملية مثقلة (مجموعة مجلّدات مثلا) - يستغرق تداول النص الورقي بين الأشخاص البعيدين حيّزا زمنيّا - نص يقرأ بشكل مباشر دون الحاجة إلى جهاز قراءة - استنساخ النص الورقي مكلّف	- تتيح الأوعية الالكترونيّة إمكانيات خزن وتحميل ضخمة تسمح للقارئ بالتنقّل مصحوبا بمكتبة كاملة محمّلة على قرص مضغوط - يمكن تداول النص الإلكتروني عبر الشبكات الإلكترونية بسرعة قياسيّة - تتطلّب قراءة هذا النّوع من النصوص أجهزة خاصة للقراءة - يمكن استنساخ النص الإلكتروني بلا حدود وبكلفة إضافية تقارب الصّفر

4 ـ 1 ـ مجالات تطوّر الوثائق الإلكترونية الموجّهة للأطفال :

لعلّ أهمّ المجالات الواعدة في استعمال النّشر الإلكتروني الموجّه للأطفال هو التّعليم نظرا لما توفّره التّكنولوجيا متعدّدة الوسائط من إمكانيات لنقل المعلومة واستيعابها واعتبارا لقدرة هذه التكنولوجيا على شدّ انتباه الأطفال وإخراجهم من السّلبية التي تميّز المقاربات التّلقينية التّقليدية بشكل يكرّس النّقلة من التّعليم إلى التّعلّم.

على أنّنا لا نزال إلى اليوم غير ملمّين بما فيه الكفاية بانعكاسات هذه التّكنولوجيا الرّقميّة على البنية الذّهنية للطّفل: خياله، ملكاته الإدراكية، الآليات السيكولوجية مثل التعرّف والتمثّل الرّمزي، التّجريد والتّمييز بين المادّي والمجرّد، الخ. والحقيقة أنّ البحوث الميدانية قد جمعت ما يكفي من الملاحظات العينية التي حان الوقت لاستغلالها من أجل الخروج باستنتاجات وخلاصات تتعلّق بتأثيرات التّكنولوجيا الرّقمية على الطّفل في مختلف مراحل طفولته.

إنّ خارطة المتدخّلين في تأليف كتاب الطّفل وصناعته تشهد اليوم تحوّلات بظهور أطراف جديدة جاءت لتنضاف إلى سلسلة الإنتاج أو لتحل محلّ بعض المتدخّلين التّقليديين الذّين اختفوا تماما من هذه الخارطة. ففي وقت ليس بالبعيد، كانت سلسلة المتدخّلين تتكوّن من المؤلّف والرّسام والنّاشر والمطبعي والموزّع والمكتبي فالقارئ. أمّا اليوم، فقد ظهر الأنفوغرافي الذّي أزاح تقريبا الرّسام اليدوي ومهندس الملتميديا ومهندس الإعلامية. كما ظهرت طرق جديدة في التّأليف كالكتابة الجماعية بالتّناوب عن بعد أو الكتابة المشتركة مع الطّفل القارئ، الخ.

والحقيقة، أنّه ما كان لهذه التحوّلات أن تنتشر بهذا الحجم لولا تكنولوجيا المعلومات والاتّصال الرّقمية. ولا يمكن التنبّؤ بالآفاق التي يمكن أن تفضي إليها هذه التطوّرات المتتالية. على أنّ بعض الدّراسات الميدانية قامت برصد أهمّ المجالات والمحاور التي يتركّز فيها النّشر الإلكتروني للأطفال من ذلك مثلا ما يتعلّق بفرنسا حيث يمكن تلخيص أهم الخلاصات في الجدول الموالي (8).

خصائص النّشر الإلكتروني الموجّه للأطفال في تسعينات القرن الماضي بفرنسا

المجال	الجمهور المستهدف	الخاصيّـــــات
الخيـالي	أطفـال ما قبـل الدّراسـة	ـ أقراص ليزر CD تعرض حكايات حيّة تتضمّن مفاجآت يتمّ اكتشافها مع تطوّر الأحداث ـ بعض الأقراص تعرض حكايات مصحوبة بألعاب ملاحظة داخل الحكاية أو خارجها ـ بعض الأقراص الأخرى تمزج بين الخيالي والوثائقي. مثلا: سلسلة مصوّرة مصحوبة بتمارين للبحث عن معلومات متّصلة بموضوع السّلسلة

الألعـــاب التّـربويـة	3-5 سنوات	ـ ألعاب ابتكار فنّي Création artistique : تدريب الصّغار جدّا على الرّسم وعلى الإنصات والابتكار الموسيقي. وكذلك تدريب الأطفال على تخيّل الشّخصيّات وابتكارها وبثّ الحياة فيها
	3-5-8 سنوات	ـ ألعاب إيقاظ Eveil : صور متحرّكة، رسومات غير معقّدة تعتمد اللّعب على الألوان
	5-8 سنوات سنة	ـ ألعاب مغامرات Aventures : تهدف إلى تمكين الطّفل من اكتشاف عالم ما، محيط ما، من خلال إنجاز مهمّة صعبة تتطلّب تجميع معلومات. وهذا ينمّي مهارات التّموقع في الفضاء أو قراءة خارطة أو اتّخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب
	8-13 سنة	ـ ألعاب تخطيط وبرمجة Jeux de stratégie et de réflexion : تتطلّب مهارات متقاطعة وأكثر تعقيدا من لعب المغامرات: مهارات التّحليل والاستقراء والاستنباط والاستنتاج والتذكّر والتخيّل والتّنظيم والتّخطيط والتّجريد الخ
الوثـائقـي	اليـــافعـــون Adolescents	ـ أقراص ليزر CD تتجاور فيها الوسائط دون تكامل بينها أو تفاعليّة مع القارئ (نص + صوت + صور ثابتة + صور حيّة. . .) ـ أقراص ليزر CD تعطي الأولويّة يقرأ صورا ويفسّرها ويعلّق عليها لإراحة العين من جهد القراءة الضّوئيّة وما يترتّب عنها من إعياء. ـ يهتمّ المراهقون بالأقراص التّي تقترح عليهم لعبا تفاعليّة. مثلا: تحقيق حول اختفاء تحفة أثريّة من متحف، أو حول وظائف الأعضاء وأماكنها من الجسد
المدرسي وشبه المدرسي	تقسيـــم حســـب المستـوى الدّراسـي	ـ الأخذ بيد التّلاميذ الذّين يعانون صعوبات ـ اقتراح عديد التّمارين المدرسيّة المتنوّعة ـ تمكين المتفوّقين والأذكياء من استباق البرنامج الرّسمي وربح أشواط عليه ـ الرّهان هنا هو خلق الرّغبة لدى التّلميذ للتّجريب والإعادة عند الفشل والتّعاطي مع المعرفة من زاوية المتعة. ومن هنا أهمّية الوسائط المتعدّدة والتّنشيط والتّفاعليّة في تصحيح الأخطاء والتّقييم الذّاتي.

الهوامش والإحالات

1) Voir pour la communication intersubjective et la communication médiatée le manuel pour les études d'information et de communication (D. Benoit, Bernard Lamizet et al.), Paris, les Éditions d'Organisation

2) Cf. DURAND, Marion. – «Des livres avant de savoir lire», in : Aimer lire, Paris, éd. Bayard, 1982, pp.5-13

Voir aussi : HEBRARD, Jean. – «Lire c'est grandir», in : Aimer lire, Paris, éditions Bayard, 1982, pp. 31-37

3) Par analogie au syndrome de la page vide lors de l'écriture, on pourrait parler du syndrome de la page chargée lors de la lecture

4) آلة موسيقية هوائية ومفتاحية Accordéon

5) Thermocollage

6) Cf. KERGUENO, Jacqueline.- «Aider les enfants à devenir lecteurs» , in : Aimer lire, Paris, éditions Bayard, 1982, pp. 39-44

7) انظر أيضا: البصير، بسمة والامام، لطيفة. - التوجهات الجديدة للقراءة في زمن المكتوب الرقمي. - في : المجلة العربية للعلوم و المعلومات. - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. - العدد 7، جوان 2006، ص. ص. 16-26

8) Cf. LEGUEM، Georgia. –«L'édition électronique pour enfants»، in": Bulletin des Bibliothèques de France، Tome 44، n°3، 1999

محامل الثّقافة الرّقميّة ودورها في بناء معنى المطالعة وتجديده لدى اليافعين

الهاشمي العرضاوي

مقدّمـة :

يتغيّا هذا العمل المساهمة بالتفكير في موضوع الندوة: «**المكتبات الرقمية والمطالعة في مجتمع المعرفة**» بتقديم وجهة نظر حول ما لمحامل الثّقافة الرّقميّة، في سياق اجتماعي وثقافي وتقني محدّد، من تأثير إيجابي في تطوير ممارسات اليافعين القرائيّة. ومدار وجهة النظر المذكورة على أطروحة تقول: إنّ في مستطاع محامل الثقافة الرقمية المتنوّعة، متى توفّرت لها ظروف استخدامها الصحيح، أن تساعد اليافعين في بناء معنى لفعل المطالعة يستجيب لشروط الوجاهة وفي تجديد هذا المعنى وتحيينه في وضعيات لممارسة القراءة/الثقافة في مسار يطوي اليافعون فيه مراحل من النماء طيّا حتى يكونوا.

وقد أردنا اقتراح وجهة النظر هذه لاعتقادنا أنّ حظّها في السداد وفير يسمح لنا بنشرها بين من يهمّهم موضوع التفكير في تطوير كفايات القراءة وممارستها في مجتمع المعرفة حتى تأخذ فيها الأفهام على قدر قرائح أصحابها ونصيبهم من المعارف والعلوم فتجعل ما بها من سداد أجلى وتسدّ ما خفي عن النفس فيها من نقصان لاتّفاقنا مع الأوّل في أنّ «اقتراح الشيء على الكامل سهل، ولكنّ وجدانه على ذلك صعب، لأنّ التمنّي صفو النفس الحسيّة، ونيل المتمنّى في الفرصة المحشوّة بالحيلولة». (الإمتاع والمؤانسة: 162).

ولا معنى لوجهة نظر إن لم يذهب صاحبها في استدلاله عليها والاحتجاج لها مذاهب العقل في ملاحظة الأمور وتقليبها على وجوهها حتّى ينماز اليقين من الشبهة ويسلم من الوهم.

ومن الأسئلة التي نريد اقتراحها في هذا المداخلة:

ـ ما السياق الثقافي والاجتماعي والتقني الذي يجيز لنا الحديث عن دور إيجابيّ لمحامل الثقافة الرقميّة في بناء معنى المطالعة وتجديده لدى فئة اليافعين؟

ـ ولم اليافعون وليس أيّ شريحة عمريّة أخرى؟

ـ ما واقع الممارسة القرائية الثقافية لدى اليافعين؟ وما طبيعة العلاقة بين قراءة/ مطالعة اليافعين المدرسية وممارستهم الاجتماعية للقراءة؟

ـ وكيف تساعد محامل الثقافة الرقمية اليافعين على بناء معنى المطالعة وتجديده؟

1 ـ في السياق : تحوّلات وثورات :

أ ـ العــــامّ

من أهمّ مميّزات هذا السياق مشهد إعلامي واتّصالي من سماته :

*** ثورة رقمية منذ 11 سنة (1996)**

للتذكير :

ـ 1996 ظهرت المكتبة الرقميّة

ـ 1997 ظهرت النسخة الرقمية لموسوعة Universails

ـ 2001 ظهرت الموسوعة الجماعية الكبرى wikepedia

ـ بعد 2001 تم التركيز على تطوير أشكال المحتويات ونشرها ورقمنتها.

ـ في 2006 انطلق Google Book ووضع الدليل العالمي World Cat على شبكة الإنترنت.

ـ ...

*** الكتاب الرقمي : ماذا تغيّر؟**

ـ الكتاب الرقمي لم يعوّض الكتاب...

ـ الكتاب الورقي لم يمت فمبيعات الكتاب في البلدان الغربية في صعود...

• سياق إعلامي برمّته في تغيّر أصبحت فيه الإنترنت فضاء للنشر بامتياز.

*** سياق إعلامي في تحوّل**

ـ الصحافة :

في تحوّل دائم: ظهور أشكال جديدة للصحافة أكثر تشاركيّة وفعاليّة وجدواها الاقتصاديّة أفضل.

ـ الناشرون :

ـ انطلاق رقمنة الرصيد والجديد من الكتب...

ـ اقتحام أسواق المحتويات الرقميّة...

ـ تجريب المحامل الجديدة: الكتاب المسموع...

ـ المكتبات :

ـ رقمنة الرصيد (حوسبة الكتب وحفظها...)

ـ تطوير خدمات البحث على الإنترنت

ـ الإنترنت :

ـ وسيلة إعلام طاغية في نشر النصوص والمحتويات

ـ فضاء خلق وإبداع

ـ فضاء للنفاذ إلى المعرفة (مكتبات، موسوعات جمعيّة)

ـ فضاء للبيع والتنافس عالميّ

ـ فضاء للتبادل (مدوّنات وشبكات اجتماعيّة)

ب ـ الخاصّ

ـ القمّة العالمية لمجتمع المعلومات تونس 2005.

ـ الحاسوب العائلي

ـ تطوّر خدمات الإنترنت الربط ADSL

ـ ربط المؤسّسات التربوية والثقافية بشبكة الإنترنت

ـ ...

2 ـ في فهم فعل القراءة :

لاريب أنّ القراءة مهارة عالية تطوّر وتصقل في مجرى الزمان غير أنّه لا يمكن أن نفهم معنى القراءة بمعزل عن المنجزات والأبعاد الاجتماعية والتقنيّة والاقتصادية والماديّة في سياق معيّن، لأنّ القراءة في ذاتها ليست فعلا فرديا محضا، فهي على النقيض من ذلك فعل موصول دائما بجملة من الممارسات الاجتماعية التي تتطلّب الواحدة منها الأخرى وتؤثّر في طريقة التفكير وصيغ القراءة وأشكالها.

إنّ القراءة هي فعل اجتماعي منظّم وهي فعل تبادل وتواصل يستند إلى عقد يعرف بعقد القراءة وهو عبارة عن مجموعة من القواعد غير مصرّح بها، وإطار مرجعي مشترك بين الكتّاب والناشرين والقرّاء. وترتكز هذه القواعد في نفس الوقت على استراتيجيات نصيّة معتمدة من قبل الكاتب، وعلى تجارب منصرفة مولّدة لانتظار لدى القرّاء في أفق تلقّ جماليّ.

واستنادا إلى معنى القراءة في سياق ثقافي واجتماعي حديث عدّ الكتاب، ولوقت طويل، القوّة الأولى الموجهة

للثقافة، ومنح اجتماعيا مكانة مركزيّة في الممارسات الثقافيّة. فهل ما تزال للكتاب تلك المنزلة في زمن الوسائط التكنولوجية المتعدّدة للمعلومة والاتّصال؟

3 ـ الممارسات القرائيّة التقليديّة :

ـ في الحياة :

لقد اعتبرت القراءة لزمن طويل ميزة النخبة واعتبر الكتاب والقراءة الوسيلة الوحيدة للنفاذ إلى الثقافة «الشرعيّة»، والقراءة في هذا السياق هيّ أوّل موضع تجارب جماعيّة: هويات وثقافات مبتكرة وعابرة. فقراءة كتاب تعني الانخراط في ممارسة ثقافيّة مبثوثة وأن تقرأ يعني في الوقت نفسه أن تبني ذاتك وأن تنفذ إلى عالم قد بناه الآخرون مستندا إلى تصوّراتك ومعتقداتك تبغي التواصل معهم. وبهذا المعنى اعتبرت هذه القراءة الجادّة هي القراءة المطلوبة اجتماعيا ووضعت في المحلّ الأول، وعُدّ سواها من أشكال القراءة الأخرى في المحلّ الثاني.

ـ في المدرسة :

منذ زمن طويل اجتهدت المدرسة لجعل القراءة اليومية ممكنة وذلك بإدراج المتعلّم في منظومة قيم تحملها النصوص الجميلة المقترحة في منهاج دراسي والتي تقرأ على أنّها ممارسة أساسيّة للتذوّق والمحاكاة. وتتمحور هذه القراءة الأدبية أو العامة حول «معنى النصّ» بناء له وتفاوضا حوله وتشكيلا له وتقويما. لكنّ النتائج الدراسيّة تكشف أنّ تمكّن التلاميذ من هذه القراءة العالمة محدودة. وقد هجر هؤلاء هذه الصيغة من القراءة في أنشطتهم خارج المدرسة معتبرين أنّ هذه الطريقة في القراءة لا معنى لها. وأنّ الكتاب في المدرسة وسيلة في الغالب مرتبطة بالنجاح المرتبط بدوره ببذل الجهد أكثر ممّا هو مرتبط بالإكتشاف والمتعة واللذّة.

ومن الجدير أن نعرف أنّ أيّ ممارسة قرائية هي بالأساس تابعة للسياق الاجتماعي والثقافي والتقني الذي تجري فيه. وليس من المسلّمات اليوم أن نعتبر أنّ القراءة المدرسية تفضي آليا إلى قراءة منتظمة للكتب، إذ يلاحظ أنّ القراءة اليوميّة خارج المدرسة لا ترتبط اليومية بالكتب لدى عدد كبير من الناس.

4 ـ الممارسات القرائية الرقمية :

ـ في الحياة :

أصبحت مكانة الكتاب وشكله ودوره باعتباره وسيلة ترفيه وتسلية ومعرفة وسلطة في تحوّل بسبب تعميم التكنولوجيات الرقميّة. ويتعلّق هذا التحوّل في الآن نفسه بالمؤسّسات الثقافية المتكفّلة بالمحافظة على الكتاب وترويجه (من المكتبة إلى المدياتيك) والشركات والمؤسسات التي تصنّع الكتاب وتنشره، مع ازدهار المكتبات الالكترونية ومواقع النشر الذاتي. وبالتوازي مع ذلك تطوّرت ممارسات قرائيّة جديدة ناشئة عن إدراج تكنولوجيات رقمية.

ـ فكيف تغيّرت الممارسات القرائيّة مع تطوّر التكنولوجيا الرقميّة؟

ـ وكيف يقرأ الناس اليوم؟ وما نوع الأسناد والمحامل التي بها يقرؤون؟

يبدو اليوم أنّ الصعود القويّ الذي حصل في مجال وسائل الإعلام منذ ثلاثين سنة في ميدان مجرّد مرحلة في ضوء التغييرات التي تحدث في مجتمع المعلومة.

فمنذ عشر سنوات ونيّف (1996) اضطلعت الإنترنت بدور العامل الأوّل المؤثّر في هذه التغييرات. لقد أحدثت الإنترنت ثورة حقيقة وخاصّة لدى الناشئة واليافعين والمراهقين إلى حدّ أنّ الناس في المجتمعات الغربية أصبحوا يتحدّثون عن **«ثورة رقمية مراهقة»**.

فقد أصبح شباب اليوم يستعمل، في سياق التبادل والاتّصال الراهن وأدوات التواصل القائمة، مسلكا جديدا للنفاذ إلى المعرفة بعيدا عن الموروث التقليدي وخطاطات التفكير والمناويل المستهلكة في التبليغ.

ـ في المدرسة :

تبدو الثقافة الرقمية اليوم لدى اليافعين والمراهقين في المجتمعات الغربية في مواجهة مع واقع مدرسي أصبح شيئا فشيئا غريبا عنها ولا ينسجم معها ولم يعد له معنى.

ـ فكيف ندرّس التلاميذ والحال أنّ المدرسة لم تعد المرجع الوحيد، ولم يعد يسلّم بأنّها ميدان التبادل وتقاسم المعارف ومشاريع استثمار لديهم؟

ـ هل أحدثت وسائل الإعلام الجديدة ثورة في الممارسات البيداغوجية؟ وما أثر هذا الجديد على المدرسة؟

للتذكيـــــر :

ـ الشريحة العمرية 11 - 15 تمثّل 35 % من المدوّنين في فرنسا.

ـ تطوّر استخدام الويكي le wikis ويعدّ زوار الموسوعة الجماعية Wikipedia بالملايين اليوم.

ـ تغيّـرت مرجعيـات المراهقيـن الثقافيـة (les références culturelles) كتمثلات جديدة تشمل منزلة العلاقات نفسها.

ـ أحدثت الثورة الرقمية تغييرا في مفاهيم الهويّة والثقافة واللغة والمدينة والعلاقة بالجسد وبالزمان وبالمكان.

ـ تعبّر هذه الثقافة لكونها ثقافة أدوات فعل، عن الاستخدام التقني الذي أصبح طبيعة ثانية : التعبير (chat et blogs)، التحميل (P2P)، الاهتياج (MSN)، التوثيق (Google) اللعب (on line) ...

ـ سمة هذه الثقافة الرقمية الجديدة هو أنها تتطوّر وتتوسّع بسرعة وتجعل قديما ما كان منذ حين جديدا.

ـ نجاح تكنولوجيات المعلومة والاتّصال لدى الشباب يعود إلى سمة الجدّة فيها وإلى توهّم أنّنا مجتمعين دائما لمجرّد أنّنا «نتكلم دون أن نقول شيئا».

ـ من سمات ثقافة المراهقين الرقميّة أنّها : شخصية (حاسوب شخصي) وبرقية سريعة (ألغت وظائف المكان والزمان) وديناميكيّة (على عكس الكتاب الورقي قابلة للتغيير والتوسّع) وترفيهية (لهو ولعب) وشبكة (تعمل في شكل شبكة).

ـ أصبحت الممارسات الرقمية محمل القراءة وسندها يدمج في الوقت نفسه الهدف الثقافيّ والحداثة التكنولوجيّة؟

ويلاحظ أنّ هذه الوسيلة الجديدة تفتح الباب لممارسة ثقافة رقمية وتقود بصيغ اشتغالها التي توفّرها إلى إعادة تعريف القراءة.

ـ لقد أصبحت القراءة شأنا جاريا إذ يقرأ الواحد من الناس للاستمتاع والترفيه أو للاستعلام دون خلفية مسبقة أو للبحث عن إحساس أو لتعلّم دروس وتجارب.

ـ تتطوّر القراءة بتنوّع المحامل ولكن أيضا بتطوّر التعليم. ويكون معنى القراءة من علاقته بالوظائف التطبيقيّة التي ينهض بها في وضعيّة محدّدة.

5 ـ محامل الثقافة الرقميّة وبناء معنى فعل المطالعة وتجديده :

تجد التربية على القراءة والمطالعة وعلى الكتابة معناها في رغبة في التشارك والعدالة. لقد ساهمت القراءة في تجانس المجتمع وفي نشر ثقافة عدّت شرعيّة وصالحة لقسم معيّن من المجتمع.

وكان من أهداف التربية على القراءة والكتابة تطوير التحكّم الثقافي في المكتوب والمقروء ومقاومة الجهل بالكتابة وبالقراءة وتعميم التمكّن من تقنيات ثقافية أساسيّة : القراءة والكتابة والحساب. ويعتبر التمكّن من القراءة والكتابة كفاية اجتماعية وعرفانيّة في نفس الوقت، وهي قدرة على المشاركة ضمن مجموعة من القرّاء لهم نفس مبادئ القراءة من اختيار للنصوص واتّفاق حول تأويلات ممكنة ووجيهة لها. وقد اقترنت الممارسة القرائية بتحصيل كفايات ثقافية مكّنت الفرد اجتماعيا.

إنّ التمكّن المطلوب من القراءة والكتابة الخاصّ بالنصوص أضيف إليه تمكّن رقمي يتمثّل في القدرة على

فهم المعلومة واستخدامها في أشكال متعدّدة متأتّية من تنوّع كبير في المصادر يعرضه الحاسوب.

وقد غيّر الرقمي من المنطق المعتمد في النصوص والكتب على مستوى الإنتاج وعلى مستوى التلقّي. لقد كانت النصوص مع الكتاب المطبوع ثابتة فأصبحت الشاشة، مع النصّ الرقمي، هي الفضاء الوحيد للتفاعل مع الآخر وعلى القارى أن يعيد بناء موجّهات ليتبيّن العمل الأدبي منها تسجيل مقاطع مهمّة منه.

لقد أصبح القارئ هو من يكوّن النصّ، نصّه الخاصّ به بما يجريه من عمليات انتخاب وتركيب وانتقال سريع ومرن من موقع إلى آخر في فضاء الرقمي.

يمكن لمحامل الثقافة الرقمية بأنواعها من موسوعات جماعية ومكتبات ألكترونية ومواقع كتب ألكترونية وكتب مسموعة وأقراص مضغوطة وفضاءات تدوين أن تساعد اليافعين على الإقبال على المطالعة المفيدة وعلى الرغبة فيها لما لهذه المحامل من مزايا من قبل:

- تجعل الإنترنت المحامل قابلة للتغيّر والتمدّد.
- تعدّد المنافذ إلى المعارف وتنوّعها
- مرونة استخدالم هذه المحامل
- قدرة هذه المحامل على تخطّي إكراهات الزمان والفضاء...
- تهجين المنتج بين ورق وصوت وصورة وواب
- مرور من منتج ثقافيّ إلى «خدمة ثقافية مغناة» مع تفعيل العلاقة بالكاتب
- تفصيل المنتج وتجزئته (الصحف، المقال، الفصل)
- تقديم منتج ثقافيّ يتغيّر
- أعمال أدبيّة على الشبكة
- أشياء محمولة متحرّكة
- أشياء متبادلة
- طبع حسب الطلب
- كتاب حسب الطلب

• **تحوير ممارسات القراءة والبحث في المعلومات واستهلاك النصّ:**

- انتفاء البعد الماديّ وتعدّد المنافذ إلى المعرفة والآثار
- تحوير في صيغ النفاذ إلى النصوص والعودة إليها
- تحوير في القراءة: قراءة أكثر غنى.
- يمكن لتكنولوجيات المعلومة والاتّصال أن تساهم في حلّ مشكل الدافعيّة والرغبة في المدرسة. فمزايا إدماج هذه التكنولوجيات في التربية بالنسبة إلى العديد من الباحثين كثيرة لأنّها مرنة ويمكن النفاذ إليها ولأنّها توفّر إمكانيات تواصل وتفاعل وصيغ تعليم وتعلّم متنوّعة.
- مسألة تأثير وسائل الإعلام الجديدة في الشباب متأكّدة، والقيمة التربوية لوسائل الإعلام موضوع كتابات أكدت أنّ الجوانب الإيجابية أكثر من الجوانب السلبية على شرط أن يراقب الآباء أبناءهم ويعملوا بنصائح المختصّين.

خـــاتمــة:

- «الكتاب الرقمي» حقيقة في مجتمع المعرفة
- النفاذ إلى المعرفة وإلى الثقافة تعدّد ولكن يمكن أن يكون ضحلا لذا وجب التأكيد على الحاجة إلى الوساطة.

• محامل الثقافة الرقميّة تدعم القراءة وتكثّفها.

المصادر والمراجع

اعتمدنا في هذه المقاربة أساسا المرجعين الآتيين:

- Marie LEBERT, les mutations du livre à l'heure d'internet.
- Francis PISANI et Dominique PIOTET, Comment le WEB change le monde, l'alchimie des multitudes.

المطالعة بين الأحكام المعياريّة والمعاينة الموضوعيّة

أحمد خواجة

تبيّن الاستطلاعات الميدانيّة أو على الأقلّ ما توفّر منها أنّ اليافعين والشبّان العرب على اختلاف أعمارهم وانتماءاتهم الجغرافية ومستويات التحصيل لديهم والفئات العمريّة التي ينتمون إليها لايطالعون بانتظام (ونعني بذلك المطالعة الحرّة، غير المدرسيّة، الأدبيّة والعلميّة التي تساعد الفرد القارئ على التثقف وتحثّه ولِمَ لا على الكتابة). وبالتّالي لا يمكن ضمّ اليافعين العرب إلى فئة المطالعين الجيّدين والمثابرين، فالغالبية لا تطالع الكتاب إلا من وجهة نظر المنفعة والمصلحة المدرسية المباشرة والضيّقة ومن منطلق الواجب المدرسي.

بيد أنّ حقل سوسيولوجيا المطالعة في العالم يرشدنا إلى معطى يتمثل في أنّ، عموما وبالرغم من وجود اختلافات جوهرية بين البلدان وبين الفئات المهنية الاجتماعية داخل البلد الواحد وبين الأجيال العمريّة، الحاجة والرغبة في المطالعة هي ممارسة هشّة وتلقت ضربات موجعة fragile et fragilisé بفعل الانتشار الهائل والكثيف لوسائل الاتّصال الجديدة وحلول عهد المجتمع الاتصالي الجديد (مجتمع شبكات الانترنت والفضائيات التلفزيونية والهاتف النقّال والأقراص المضغوطة والتكنولوجيا الرقمية...) بحكم اتصال المطالعة بحتميات العمر والجنس والانتماء المهني الاجتماعي، فالبحوث الميدانية التي أنجزت خصوصا في الغرب (وهنا نسجل بكل مرارة أن معلوماتنا حول واقع المطالعة في الوطن العربي مازالت يتيمة ومازالت تدور في فلك الريبة والشكّ والأحكام المسقطة بحكم ندرتها أو عدم تمثيليتها لكل الفئات الاجتماعية أو لكلّ المناطق الجغرافيّة أو الفئات العمريّة...) أنّ الرغبة في المطالعة تتغير حسب متغيّرات العمر والجنس والانتماء الفئوي والمهني للمطالعة أو لأبيه في حالة أن المطالع مازال يافعا، فعلى سبيل الذكر نعلم أن البنات يطالعن أكثر من الفتيات لارتباط المطالعة بعالم البنت الحميمي والداخلي والصامت. ولاننسى أن المطالعة هي ممارسة صامتة حرّة وفرديّة، وأن الحاجة إلى المطالعة تظهر في العقد الأول من عمر الإنسان أي بعد تجاوزه سنّ العاشرة، ولتحدث مع وصول الطفل سنّ الثانية عشرة فوارق واختلافات بين الأطفال ناتجة عن تأثيرات المحيط الأسري وخاصة مستوى الأمّ الدراسي لما له من تأثير على تنشئة الأطفال على المطالعة، ثم نتيجة لضغوطات الحياة المهنية والعائلية تتراجع المطالعة لدى الشبّان والكهول وتعود للظهور من جديد مع وصول الفرد لمرحلة التقاعد عن العمل والعقد السادس من العمر بحكم توفر الوقت وغياب الالتزامات والمسؤوليات المهنيّة والأسريّة. وتكاد تجمع البحوث

الميدانيّة الكميّة منها والكيفيّة على اعتبار أنّ المطالعة تكتسب أساسا في الوسط الأسري والمدرسي، وهي بالأساس ممارسة يحكمها التنوّع والتغيّر الشديديْن الناتجيْن عن تدخل متغيّرات الأصل الاجتماعي ومسألة التمايز الاجتماعي distinction sociale واختلاف المعقوليات أو بالأحرى العقلانيات rationalités التي توجه سلوك الترفيه والتثقيف الشخصي، فأبناء الكوادر العليا والمهن الحرة وأبناء الأساتذة والمعلمين والمهن الأخرى الوسيطة يطالعون أكثر من أبناء الحرفين والعمال والمستخدمين والمشغلين بالساعد. وأيضا لا ننسى متغيّر الجيل génération فالمنتمين إلى جيل الستينات أو حتى السبعينات كانت تمثّل لهم المطالعة لذّة لا تضاهيها أي لذّة ومعيار انتماء **وسيلة للحلم الجماعي**. فالكتابات كانت تناقش في المنتديات الخاصة والعامة وكان الناس يتاهفتون على بعض الإصدارات وعلى نوعية معينة من الكتب، كما كانت المطالعة تساعد على الحراك الاجتماعي والمهني بحكم وجود فرص عديدة سهلة ومتاحة للجميع للرقي المهني والمدرسي.

إن من أسباب عزوف شرائح واسعة من المجتمع التونسي على المطالعة في المكتبات العمومية هي أنّ هذه الأخيرة ورثت عن الثقافة الفرنسية الوافدة فكرة الثنائية الفجّة بين ثقافة النخبة الثقافة العالمة Culture savante وثقافة العامة التي يشار إليها بالثقافة الشعبية، فعند فحصنا لرصيد هذه المكتبات العمومية التي من المفروض أنها تكون متاحة للجميع ولا تتجه إلى فئة دون أخرى (مثل فئة المتعلمين والشغوفين بأمهات الكتب والكتب الأدبية لكبار الأدباء والشعراء في العالم) نجد أنها تضم كتبا «راقية» جدا لا تفتح ولا يقع إزالة الغبار عنها، وتتكلف على الدولة بميزانية باهضة وبين «روجي شارتي R Chartier(1)». إنّ أعلام الثورة الفرنسية اعتبروا أن المكتبات كخزانة للمعارف والعلوم والآداب والفنون يجب «افتكاكها» من سلطة الأرستقراطية التي كانت تحتكر المعرفة وتقصي «الشعب» منها وترمي ثقافته بأشنع النعوت، في حين يبيّن الواقع التاريخي أن الثقافة العالمة في فرنسا وبالأخص اللغة الفرنسية كانت تتغذّى من الثقافة الشعبية. وشعور الاستنقاص الذي كانت تحمله نخبة الثورة الفرنسية أجبرها على الوقوع خطأ في فخّ الفصل والتمييز بين الثقافة العالمة والثقافة الشعبية والذي تسرب بأساليب خفية إلى سياسية تأثيث المكتبات العمومية في تونس في فترة ما بعد الاستقلال وتوضيبها وتكوين الساهرين عليها وإهمال عنصر الحاجة إلى المطالعة ونسق المعقولية الذي انتبه إليه «بيار بورديو في كتابة la distinction (2) في حديثة عن الممارسات الثقافية للفرنسيين التي يحكمها التعدد والتنوع والاختلاف حسب موقع الفرد في سلم التراتب الاجتماعي.

غير أن هذه المعطيات لن تنسينا أن قياس ممارسة المطالعة (من هو المطالع الجيد؟ ومن هو المطالع المتوسط؟ والمطالع الرديء أو لنقل كسول؟) مسألة معقّدة إلى أبعد الحدود ذلك أنه لا يكفي مثلا مؤشر التردّد على المكتبة العمومية للقول إن هذا يطالع ونعني به «فأر المكتبات» كما يقال بحكم أنّ هناك الكثير من المطالعين الجيّدين يطالعون بانتظام في منازلهم ويمتلكون مكتبات عائلية ثريّة، أو أن نضع مقياس من يطالع الموسوعات وأمهات الكتب والقواميس وكتب التراجم وكتب عالم الطبيعة والحيوان للقول بأن هذا مطالع جيد ونهم، ورمي من يطالع مثلا الصحف والجرائد والدوريات والقصص المصورة ويزور مواقع الأنترنت بنعت المطالع السيئ وهي ربما تكون اعتبارات ذوقيّة وشخصيّة.

وفي هذا الباب ألّف عالم الاجتماع الفرنسي بودلو C.Beaudelot سنة 1999 (3) كتابا مهمّا حول العادات القرائية للشبان الفرنسيين ناقش به الكثير من الأحكام المسقطة والمتسرعة التي يطلقها البعض حول الشباب والمطالعة، فعنوان الكتاب «ومع هذا فهم يقرأون!» Et pourtant ils lisent ومن خلاله أبرز المؤلف أن ما تغير بين جيل أمس وجيل اليوم يتمثل في الطريقة التي يطالع بها الشخص، فقديما كانت الكتب الورقية أما اليوم فإنّ الشاب الفرنسي المتوسط لا تستهويه كتب فولتير

وبروست وبلزاك وإنما يطالع الكتب العلمية المبسّطة ويتجول في شبكات الأنترنت ويؤلف في عمليّة تملّكه للمطالعة بين عوالم الصورة والصوت والكلمة أو الحرف ويستعمل القرص الضاغط ويقبل على الألعاب التربوية ويتفاعل معها رغم مخاطر الإدمان وتشوّش الذاكرة وتعطل آليات التركيز والإدراك النقدي بفعل هذه التخمة المعلوماتية التي لم تكن موجودة لدى شباب الأجيال السابقة.

وفي اتجاه آخر نبّه الباحثون المتخصّصون في حقل سوسيولوجيا المطالعة إلى قضية المسلكين الخاطئين في تفسير التراجع لدى الناشئة للميولات القرائيّة فعادة ما يقدم الناس متّهمين أو عدوين رئيسيّين لتفسير تدنّي المطالعة وهما طبعا الإدمان التلفزيوني وكثافة البرامج والمناهج التعليمية التي تعيق الطلاب على التثقف الشخصي وتغلّب لديهم المطالعة المصلحيّة والمفروضة والتي تتصل مباشرة بالامتحان والنتائج المدرسيّة. وهنا تبيّن الاستطلاعات الميدانية الجادة أن المطالعين الكسالى يشاهدون بنهم وإدمان التلفزيون ولديهم نتائج مدرسية متواضعة.

والمطالعة تتأثر بعوامل ثلاثة هي:

- المحددات البيولوجية ونعني بها الخصائص الوراثية والعمر والمزاج الشخصي والجنس.

- المكتسبات العائلية والاجتماعية وهذه تخصّ الرأسمال المادي والرمزي للعائلة التي ينشأ ضمن معاييرها وأعرافها وقيمها المطالع الجيّد والمتواضع أو السيئ.

- التاريخ الشخصي والذي ينطوي على كل التقلبات المدرسيّة والمهنيّة والعائليّة التي يتعرض لها الفرد طوال حياته، فتجعل منه أحيانا بفعل الجيل الذي ينتمي إليه أو حلقة الصداقات التي يطوّرها مطالعا نهما وأحيانا أخرى مطالعا بدون شهية sans appétit.

ممّا لاشكّ فيه أنّ ممارسات المطالعة تختلف باختلاف المؤهلات التعليمية والإمكانات المادية المتاحة المكتسبة أو الموروثة وأخيرا الوقت المخصّص لها. وهي بهذا الشكل تمثل عوامل ضرورية غير أنها لا تفسر وحدها واقع المطالعة خصوصا وأن البحوث الميدانية الكيفية أظهرت أن علاقة الفرد بالكتاب في مختلف أطوار حياته تتميز بتنوع شديد ناتج عن تباين المسارات Trajectoires الحياتية وما تنطوي عليه من مراحل وتبدلات ذوقية وثقافية وذهنية تجعل الفرد يغير أحيانا من مشاربه الفكرية واهتماماته أو يعود إلى مراجع قديمة قرأها في مرحلة الشباب واليفوع بمجرد ظهور علامة، تتمظهر في شكل مكان أو فضاء أو مكان تلاقي كالمقاهي الثقافية مثلا، يشعر نحوها الفرد بحنين لأنها تذكره بأحلام جيل كامل، وأحيانا قد لا يفيد أن نعرف من هو القارئ بقدر مع من يقرأ.

ولكن المشكلة الرئيسية التي تؤرقنا اليوم تتمثل في انتشار هذا المجتمع الاتصالي الكوني الذين نحن بحكم المعاصرة والتفوق التقني للغرب مجبرون على الانخراط فيه وعلى قبول تحدياته وتبعاته السلبية، فالعالم اليوم بشقيه المصنّع والنامي واقع تحت سيطرة الامبراطوريات الاتصالية الكبرى التي لا تهتم إلا بجني الأرباح واختراق الأفكار والحدود وضرب روابط الانتماء والهوية من خلال إنتاج برامج تبشّر بالربح السهل والنجومية وإشاعة صورة العنف والعنف المضاد من خلال إنتاج برامج تلفزيونية عالميّة وتستهلك في جميع البلدان ومن ضمنها بلدان وطننا العربي من طائفة برامج «تلفزيون الواقع» وتعويد المشاهد العربي، على مشاهد العنف والقتل والتشريد والدمار إلى حد أنّها تصبح مشاهد مألوفة وتعيق التفكير النقدي وتساعد على نسف رابطة الانتماء والهوية وتربك الذاكرة الجماعية والذاكرة الفردية. هذه كلّها عوامل تؤثر سلبا على الشباب العربي لأنها تنسف تدريجيا آليات التملك النقدي للمعرفة، وهنا تظهر المطالعة الحرّة والنقديّة كحاجة ملحّة في الطلب وكوسيلة من وسائل التصدي للغزو الاتصالي الكوني الذي يحاصرنا أينما كنّا ويؤثر سلبا على الطفل العربي الذي مازال يشكو من نقص الإمكانيات والموارد ويتخبط في الأميّة والجهالة L'illettrisme (ونعني الصعوبات التي يجدها

المتعلم في إتقان القراءة والكتابة وخطر الأمية الراجع الذّي يتهدده...).

إنّ الطفل العربي عموما، ولا نقول كل الأطفال لأن هناك اختلافات كبيرة تشق مجتمع الأطفال من حيث الانتماء الأسري والجغرافي والعمري، مازال بحاجة إلى عديد الوسائط التي تؤهله لبناء علاقة إيجابية وبنّاءة مع المعرفة ومع المعلومات التي يستهلكها. وتشير آخر الإحصائيات أن تونس في مجال المكتبات العمومية تتصدر الدول العربية من حيث عدد المكتبات الخاصة بالأطفال والتي بلغت سنة 2003 نحو 250 مكتبة تليها المغرب بـ 120 مكتبة ثم سلطنة عمان بـ 79 مكتبة وسوريا بـ 72 مكتبة والأردن 54 مكتبة سنة 1999 (4).

كما أن عدد مجلات الأطفال الأسبوعية والشهرية مازال بعيدا عن مستوى ما بلغته البلدان الغربية، وتتصدر الأردن البلدان العربية من حيث عدد المجلات الشهرية سنة 1994 وتأتي بعدها مصر بثلاث مجلات أسبوعية سنة 1998 و 4 مجلات شهرية ثم تونس بمجلة واحدة أسبوعية وأربع مجلات شهرية (5).

وتعتبر نسبة **الأميّة بين الكهول** في البلدان العربية من بين **أرفع النسب في العالم** حيث بلغت في الجزائر سنة 1999، 38 ٪ ومصر 49 ٪ والمغرب 56 ٪ وتعتبر تونس في هذا المجال من بين البلدان العربية التي نجحت نسبيا في مكافحة شبح الأمية للسكان البالغين أكثر من 10 سنوات حيث بلغت حسب آخر تعداد للسكان لسنة 2004، 22 ٪ بعد أن كانت سنة 1956 في مستوى 84,7 ٪ وفي اتجاه آخر، تشير آخر إحصائيات اليونسكو حول مدى تغلغل تكنولوجيا الاتصال والإعلام TIC في المجتمعات العربية، أن عدد الحواسيب العائلية سنة 1995 بالنسبة إلى 1000 ساكن في العديد من البلدان العربية مازال دون المأمول وبعدا عن المستوى العالمي (6).

إن هذه الأرقام والبيانات التي تنقل جزءا من الواقع تدفعنا إلى القول بأن المواطن العربي قد لا يمتلك الملكة النقدية والحصانة الفكرية اللازمة التي تحثّه على التعامل مع الصورة التلفزيونية أيّا كان مصدرها وأيّا كانت دوافع مصمّميها ومنتجيها. وهنا يطرح الباحث «المنصف وناس» في مقال له حول «تقنيات الاتصال والهيمنة» مسألة سطوة شركات الترويج والدعاية والتسويق على منافذ الإنتاج التلفزيوني حيث يعيش العالم بشقيّه النامي والمصنّع تحت طائلة «الإمبراطوريات الإعلامية الكبرى» (7) وظاهرة عولمة السوق وهيمنة قوى تجارية على الثقافة والفن والاتّصال.

وبقصد تحسين الميولات القرائية لدى الشباب العربي نقترح تعميم ممارسة المطالعة حتى تصبح سلوكا يوميا، وفرضها في مرحلة أولى في الامتحانات المدرسيّة والمهنيّة، فالمطالعة يمكن أن تكون موجودة في كل مكان وفي كل مجال، فهي تفيد في كل شيء وتساهم في خلق الشعور بالرضى عن الذات إذ تلعب دورا هاما في تفتح شخصيّة الفرد وتحقيق اندماجه مع مجتمعه الأصلي وبقية المجتمعات الأخرى.

وللأسرة دور كبير في غرس عادة المطالعة وبالخصوص الأم التي يجب أن تجد متّسعا من الوقت للجلوس مع أبنائها والقراءة معهم أو القراءة لهم أو رواية حكاية لهم أو خرافة لما للكتاب والخرافة التي في مرحلة عمرية محددة من قيمة لا تقل قيمة عن الكتاب (سنّ ما قبل الدراسة)، في تكريس التواصل العاطفي والوجداني وتنمية الزاد اللغوي للطفل وتحسين نطقه وإثراء مخيلته.

إن المطالعة مسار متواصل ومسيرة طويلة تبدأ من الأسرة وتمر عبر حلقات عديدة يعتبر الجميع مسؤولا عنها بدءا من كتابة الكتب وتأليفها إذ تتطلب حرفية معينة لا تتوفر في الوقت الحاضر لكثير، على سبيل الذكر، لا الحصر، من مؤلفي كتب الأطفال في الوطن العربي فضلا عن غياب كتّاب متخصصين في الكتابة لليافعين وللشباب، مرورا بمشاكل النشر والتوزيع وتسويق الكتاب ووصولا إلى عرضه في المعارض والمكتبات العامّة والخاصة والترويج له في التلفزيون وعلى مواقع الإنترنت.

المصادر والمراجع

1) Chartier (R), L'ordre des livres: lecteures: lecteurs, auteurs, bibliothèques en Europe entre XIVe et XVIII siècles, Aix en Province,Aliena.

CF aussi Melot (M), Grandeur et lacunes de l'activité des bibliothèques publiques françaises, in «lire et faire lire», Paris: le Monde éd, 1995.

2) راجع مداخلتنا: خواجة (أحمد)، مستويات العيش في تونس وتأثيرها على الممارسة الثقافية في «المكتبات: التحولات والرهانات»، تونس، وزارة الثقافة، 1998، ص 109 - 132.

Bourdieu (P), La distinction: critique sociale du jugement, Tunis: CERES productions, 1995:

3) Baudelot (Christian); Cartier (Marie), Detrez (Christine), Et pourtant ils lisent..., Paris, seuil, 1999.

4) حسب إحصائيات المجلس العربي للطفولة والتنمية انظر في:

- واقع الطفل العربي: التقرير الاحصائي السنوي سنة 2001، المجلس العربي للطفولة والتنمية، ص 217 -219.

5) نفس المصدر، ص 219.

6) Rapport sur le développement des TIC dans le monde, UNESCO, chapitre 14, les pays arabes, 2001, page 224.

وناس (المنصف): تقنيات التصال والهيمنة: عناصر أساسية لبناء علم اجتماع الاتصال في «الإذاعات العربية»، عدد 4، 2004، ص 4 - 23.

7) Le clerc (G), société de la communication, une approche sociologique et critique, Paris: P.U.F, 1999

بعض الإحالات البيبلوغرافية في سوسيولوجيا المطالعة:

Bahloul (J), (1981), lecteurs précaires, Paris, BPI.

Baudelot (C); Cartier (M), Detrez (Ch), (1999), **Et pourtant ils lisent...**, Paris, Seuil.

Bencheikh (A), (1986), Communication et société, pouvoir lire, éducation et développement culturel, Tunis, Institut Supérieur de Documentation.

Baudelot (C); (1979), Les trois états du capital culturel, in Actes de la Recherche en Sciences Sociales, n° 3, pp 3-6.

- Bourdieu (P), Chartier (R), (1985), La lecture: une pratique culturelle, in R.Chartier (dir), Pratiques de la lecture, Marseille, Rivages, pp 218 - 239.

- Burgos (M), Evans (C), Buch (E), (1996), Sociabilités du livre et communauté de lecteurs, Paris, BPI.

- Camilleri (Carmel), (1973), Jeunesse, famille et développement, essai sur le changement socio-culturel dans un pays de tiers monde.- Paris : CNRS, 506 p.

- De Singly (F), (1989), **Lire à 12 ans : une enquête sur les lectures des adolescents,** Paris, Nathan.

- De Singly (F), Dumontier (F), Thélot (C), (1990), La lecture moins attractive qu' il ya vingt ans, in «Economie et Statistique», n° 233, juin 1990, pp 63 -80.

- De Singly (F), (1991), Le Mystére de la baisse de la lecture de livres in **«les entretiens Nathan: La lecture,** Paris, Nathan, pp 221- 229.

- Fenniche Daouas (R), Attitudes et représentations des usagers des bibliothèques publiques de Tunisie, (1999), Tunis, Publications de l'institut supérieur de documentation.

Fijalkow (J), (1993), Mauvais lecteurs? Pourquoi, 3 éme éd. Mise à jour, Paris, PUF.

- Fournis (M), (coordonné par), (2005), Enquetes sur la lecture. Au-delà des idées reçues, in «sciences Humaines», n° 161, pp 28 -55.

- Galland (Olivier), Les jeunes, (2002), 6 éme 2 éd, Paris, la découverte, (Repéres; 27)

- Galland (Olivier), (2000), Sociologie de la lecture en France: état des lieux, (essai de synthèse à partir des travaux de recherche menés en France); Paris : Direction du livre et de la lecture.

- Kerrou (M), (1993), Enauête sur les pratiques culturelles des jeunes dans le Grand Tunis, in «Les pratiques culturelles des jeunes au Maghreb, Etudes culturelles, Tunis, CEDODEC.

- Levi (Giovanni), Schmitt (Jean - Claude), (dir.), (1996) Histoire des jeunes en Occident; Seuil, 1996.

- Mahfoudh-Draoui (D), Melliti (Imed); (2006), De la difficulté de grandir: pour une sociologie de l'adolescence en Tunisie, Tunis, Centre de Publication Universitaire

- Poissenot (C), Ranjard (S), (2005), Usages des bibliothèques : Approche sociologique et méthodologie d'enquête, Pref. Martine Poulain, Paris, Presses de l'Enssib, col. De l'Enssib (Ecole Nationale Supérieure des Sciences de l'Information et des Bibliothèques)

- Poissenot (C), (1997), l'adolescence et la bibliothéque, Paris, PBI, Centre Georges Pompidou, Col «Etudes et recherches»

- Poissenot (C), (1993), les raisons de l'absence, in «bulletin des bibliothéques de france», T38, n°6, pp 15-27.

- Seibl (B), (1995), Lire et faire lire, Paris, le Monde-Editions

- Zghal, (Abdelkader), (1984), Note pour un débat sur la jeunesse arabe, In «Les cahiers du C.E.R.E.S», n°10, p.16. (série sociologie Jeunesse et changemment social).

تطوّر مفهوم المطالعة / القراءة بين المحامل الورقيّة والمحامل الرقميّة

عز الدين الناجح

مقدّمة عامة :

المطالعة أو القراءة بديلان معجميان لهما تقريبا نفس المعنى وإن كانا في الجانب الاصطلاحي مختلفين وقد مرّا بمراحل وتطورات كان سببها العامل الحضاري وانتقال المجتمع الإنساني من حقبة إلى حقبة وفي هذه الورقة سأحاول رصد هذا الفعل الإنساني، الذي نال به تميزه عن سائر الكائنات من خلال تطوره بين مرحلتين كبيرتين : مرحلة الرقمنة ومرحلة ما قبل الرقمنة. ولكن قبل التعرض إلى رصد تلك التطورات نود أن نصوغ مقدمات تمهيدية نراها ضرورية لوضع البحث في إطاره وهي في الأغلب الأعم مقدمات ذات طابع تعريفي لأن التعريف حسب رأيي هو عقد «contrat» بين الباث والمتقبل ولأن التعريف هو أول عمل علمي لمحاصرة أي ظاهرة مهما كان نوعها وطبيعتها، فما المقصود بالمطالعة والقراءة وما معنى المحامل الرقمية والمحامل الورقية ولماذا كان الشباب موضوع اختبارنا ؟

1 – القسم التعريفي :

نود التنبيه في هذا القسم التعريفي إلى أننا ننطلق من دراستين مهمتين الأولى لأستاذنا المبروك المناعي تحت عنوان : «تطور مفهوم القراءة وممارستها في المنظومة التربوية التونسية فيما بين (1952 و1958) «وصدر له هذا البحث ضمن مصنف «الشباب والكتاب» سنة 2004. وأما الدراسة الثانية فهي لصديقنا الباحث الأستاذ أحمد الكسيبي وعنوان دراسته «المطالعة عند الشباب التونسي في عصر المعلومات» وصدرت له هذه الدراسة ضمن مصنف «الأسرة والمطالعة» سنة 2002.

1–1 مفهوم القراءة :

القراءة مصدر واسم حدث من الفعل قرأ ومن معانيه العامة «جمع» و «لمّ» و «حفظ» فالقراءة بهذا المعنى الأولي هي الجمع واللمّ ومنه جاءت تسمية القرآن الكتاب الجامع لجميع الكتب التي سبقته والجامع للأحكام والمعاني، واصطلاحا «قرأ الوثيقة تتبع كلماتها نظرا ونطقا» (الكسيبي أحمد 67، 2002). ففعل القراءة بهذا المعنى هو فك لشفرة المكتوب وتحسس معانيه، وقد ظل هذا المفهوم للقراءة ثابتا على عموميته هذه إلى أن تطورت الدراسات النفسية التي غيرت مفهوم القراءة من المفهوم الخطي الأحادي العام إلى اعتبار

القراءة» عملية فكرية عقلية متشعبة تنطوي على أربع مراحل : الإدراك / الاستيعاب/ الاستجابة/ التمثل (الكسيبي أحمد 2002-67) وهذه المراحل الأربعة المذكورة سيستفيد منها علماء التعلّمية Les didactiens باعتبارها غاية الغايات من كل فعل قرائي كما يرى ذلك مبروك المناعي من خلال نظرية التعلم théorie de l'apprentissage وبيداغوجيا الأهداف Pédagogie par objectifs (المناعي المبروك 2004-46). ومهما يكن من أمر فإننا نشارك أحمد الكسيبي الرأي عندما يعتبر أن المفهوم الجديد للقراءة قد أدى إلى أوجه عديدة «من التراكمات المعرفية التي يتفاعل القارئ معها فهما ونقدا وحلا للمشكلات التي تعترضه» (الكسيبي أحمد -67 2002) لأن توظيف القراءة هو الهدف الأسمى منها فلا غاية لها في ذاتها وإنما فيما يمكن أن تستثمر في انجازه. وهذا ما يقودنا إلى الحديث عن المطالعة لأن العلاقة بينهما علاقة تكامل، ولأن مفهوم القراءة الفعالة هو المنتج لسلوك المطالعة. ولكن قبل الانتقال إلى الحديث عن المطالعة نود الإشارة إلى أنه ثمة مفهوم آخر للقراءة وهو مفهوم تعليمي didactique وقوامه مفهوم المقاربة والمعالجة. فالتعليميون يستعملون مصطلح القراءة بما هو رؤية وطرح ومقاربة لنص ما أو ظاهرة ما. فسؤال كيف قرأ الفيلسوف الظاهرة هو عندهم رديف لسؤال كيف تناول أو كيف قارب الفيلسوف تلك الظاهرة ؟ أي كيف تمثلها وكيف عالجها ؟

2 - 1 مفهوم المطالعة :

قبل الشروع في تقديم حد للمطالعة نود الإشارة إلى أن بعض المختصين من زملائنا المشارقة وحتى المغاربة يستعملون مصطلح القراءة بما هو مرادف للمطالعة وهذا أمر قد يحتاج لكثير من المناقشة. والحقيقة أن المطالعة في حد ذاتها قد عرفت ضمن مداخل في الدرس متعددة فكل أهل علم لهم تعريفهم الخاص. فعلماء الاجتماع لهم تعريفاتهم وعلماء النفس لهم تعريفاتهم وأهل الثقافة لهم تعريفاتهم ولكن كلهم ينطلقون فيما رأينا من التعريف اللغوي والعودة إلى المعاجم اللغوية. فالمطالعة مصدر ميمي من : «طالع يطالع مطالعة» ومنها الاستشراف والكشف. واستطلع : «نظر ما فيه» وطالعت الشيء : أي «اطلعت عليه» ومنها «حب الاطلاع والتنبؤ بالطالع» (الكسيبي أحمد 2002-67). وعليه فإن المطالعة اعتمادا على هذه التعريفات اللغوية هي النظر في وثيقة - كتاب أو مجلة أو غيرها- لمعرفة ما فيها ويمكن سحب هذا المعنى على النظر في بعض وسائل الاتصال الحديثة مثل الأنترنت والمينيتال وغيرهما. فيصبح التعاطي مع ما فيها من معلومات نوعا من أنواع المطالعة المكتوبة والمرئية في آن» (عمار محمد الصالح 2004، 48-49) وعلى كل حال فإن المطالعة هي نشاط إنساني واع يقوم به الفرد بمعية الكتاب أو ما يعوضه من المحامل الورقية الأخرى كالمجلات والجرائد أو الأقراص المدمجة أو المواقع على الشبكة العنكبوتية، وهو نشاط محكوم بدوافع متعددة وهذه الدوافع هي التي كانت بمثابة المعيار الذي على أساسه قسّمت المطالعة وهي في الأغلب الأعم كما يرى حشمت قاسم تنقسم إلى أربعة أنواع : (قاسم حشمت 1999 - 33)

- المطالعة لأغراض البحث
- المطالعة من أجل التحصيل والاستيعاب (الدراسة)
- المطالعة الترويحية الترفيهية
- المطالعة النقدية الأكاديمية

وقبل أن ننتقل إلى تعريف ما معنى المحامل الورقية والرقمية نود طرح سؤال هو بمثابة بؤرة البحث ورهانه وهو : هل كان للتطور، الذي تعيشه الإنسانية لحظويا أثر على تبدل مفهوم القراءة والمطالعة وإن كنا ننطلق من مصادرة وهي أن المطالعة في بحثنا هذا فيها الكثير من معنى القراءة. ونعيد السؤال بصيغة أخرى : هل تأثر نشاط المطالعة بما شهدته البشرية من تطور صناعي وعلمي وتقني.

3-1 المحامل الورقية والرقمية :

3-3-1 المحامل الورقية :

هو استعمال مجازي لمفردة الكتاب والكتاب هو الوعاء الورقي الحامل للإنشاء العلمي لغويا. هذا في أبسط تعريفاته وقد مر في تاريخ الحضارة الإسلامية بثلاث لحظات كبرى (1).

لحظة النشأة :

وهي لحظة طغى عليها الاصطلاح الديني (ذلك الكتاب، كتاب مسطور...) فكلمة كتاب كانت متمحضة للاستعمال الديني.

لحظة الحدث الجاحظي والريادة :

لهذه اللحظة ما يفسرها حضاريا حيث سمح تلاقح الحضارات والمثاقفة للحضارة العربية الإسلامية بالانتقال من المشافهة إلى التدوين ومنذ تلك اللحظة أخذ مفهوم الكتاب مسارا جديدا بل إنه أضحى محط أنظار الامراء والعلماء (بيت الحكمة، والترجمة خير مثال على ذلك، مع ترجمة المصنفات الهندية والاغريقية). وكل هذا أثمر زخما من الإنتاج الفكري تصاحبه دعوة صريحة وضمنية إلى الإعلاء من شأن الكتاب، من ذلك ما نجده عند الجاحظ نفسه «فقد تبوأت الإشادة بالكتاب والتنويه بفضله على المشافهة مرتبة جليلة في مصنفه «الحيوان» إضافة الى شوارد مبثوثة واشارات سرية في تصانيفه الأخرى (الحبيب المبروك 2002-20) وقد قادت هذه اللحظة إلى لحظة ثالثة هي :

لحظة التوحيدي والتأصيل :

هذه اللحظة كانت بمثابة الثمرة لمرحلة الريادة مع الجاحظ وامتدادا لها، وقد حفل كتابه «الامتاع والمؤانسة» بلطائف وطرائف تنزه الكتابة والكتاب وتتشيع لهما، وقد كان لازدهار الحضارة العربية وامتداد أمصارها كبير الأثر على ذلك وقد لخص الباحث الحبيب المبروك هذه اللحظة قائلا «إن الكتاب ظاهرة ثقافية (بالمعنى الإنساني) دالّ على عمق التحولات الطارئة التي دخلت المجتمع العربي الإسلامي وعلى القوانين المسيرة لبنيته ونسيج قيمه والآليات البانية لنظامه المعرفي» (الحبيب المبروك 2002-23).

هذا إذن الكتاب ومسيرته وسيرته في الحضارة العربية الإسلامية. أما مع الحضارة الغربية فقد كان الأمر كما هو معلوم مع «جيتنبارغ» وتحديدا سنة 1475 ومع نهاية القرن وقع طباعة ما يقارب 20 مليون نسخة في أوروبا (المصدر السابق) وقد ساهمت في تطوره النهضة الصناعية وانتشار التعليم المدرسي والجامعات، وكان من نتائج شيوعه رقيّ الحضارة الغربية وإيصال فلسفة التنوير وقيم الحداثة بواسطته.

2-3-1 المحامل الرقمية :

هذا المصطلح أيضا بشّر به على سبيل الحدس العلمي عالم الاجتماع الكندي «مارشان ماكلوان» الذي صدر له سنة 1962 مصنف بعنوان «كوكبة جيتنبارغ» وملخص طرحه أن عهد القرطاس والدواة قد أوشك أن يرحل ليحل محله عصر التواصل والاتصالات الأخرى. وقد كان حدس «ماكلوان» في محله حيث ظهر أو ما ظهر الكتاب الالكتروني والأقراص المدمجة. «فأما الكتاب الألكتروني فكان من إنتاج شركة «سوني» وهو عبارة عن كمبيوتر في حجم راحة اليد يمكن أن ندخل فيه اسطوانة مدمجة قطرها 3 بوصات فيظهر النص الكامل للكتاب (الحبيب المبروك 2002-28). وأما الأقراص المدمجة أو الممغنطة فهي عبارة على محامل يقرؤها الحاسوب. تخزن فيها النصوص والصور والمرئيات وهي ذات طاقة استيعاب عظيمة تصل إلى آلاف الصفحات. وقد أفضى هذان المحملان الرقميان إلى ظهور مصطلحات جديدة لا نرى بدا من ذكرها : وهذه المصطلحات هي تسميات لأنواع المكتبات وهي :

- المكتبة الافتراضية bibliothèque virtuel
- المكتبة الرقمية Bibliothèque numérique
- المكتبة الألكترونية Bibliothèque électronique

فأما المكتبة الافتراضية : فهي هيكل توثيقي يمكن من الظفر بالمعلومة في زمن قياسي وبأقل المجهودات ويعلق عليها الباحث محمد الهرابي قائلا : «تدخل المكتبة الافتراضية ضمن سياسة الثقافة الرقمية وتعد الوسيلة الأكثر سرعة للوصول إلى المعلومة عبر شبكة الأنترنت، فدورها يقتصر على التعريف بالعنوان (الصفحة الخارجية للكتاب والفهرس وأخيرا المقدمة أو الخلاصة). على أنه يمكن التعرف حتى على المحتوى الكامل للكتاب إن كان ذلك مسموحا به من طرف المؤلف أو الناشر أو الموزع. كما تعد المكتبة الافتراضية منتوجا جديدا وحديثا لازال غير موجود في الكثير من البلدان الأوروبية ذاتها» (الهرابي محمد 2002-50).

وأما المكتبة الرقمية فهي عبارة على إعادة صياغة لمحتوى المكتبة الورقية عبر معالجتها رقميا سواء عبر المسبار Scanner أو الخزن الرقمي ويعرفها الباحث محمد الهرابي «والمكتبة الرقمية ترتكز على جمع الرصيد المكتبي من الأول في أشكال تقليدية (Formats) مصورة ضوئيا (Numérisée et Scannée) بفضل تقنيات جديدة Nouvelles techniques de reproduction وترتيبه وحفظه ووضعه على ذمة المهتمين» (الهرابي محمد 2002-51). وأما المكتبة الألكترونية فهي عبارة على الحاسوب ومكوناته الأساسية والمحيطة ومجموعة المحامل Supports من أقراص ومفاتيح ممغنطة Flash disque / Clés U.S.B.

ومحصّل القول من كل هذا أن المحامل الرقمية Les supports numériques بفضل التطور التقني والعلمي تشهد تطورا سيؤثر حتما على فعل القراءة والمطالعة، وهذا محط رحالنا في هذا البحث لذلك نتساءل كيف سيتشكل فعل القراءة والمطالعة بحسب التمظهرات التي تكون عليها المحامل الرقمية؟ وكيف سيشتغل الفكر البشري مع الوثيقة الرقمية بعد أن عاشر القرطاس لقرون من الزمن؟ وهل سيؤثر محل المعلومة (الورقة / القرص) على سلوكيات المطالعة والقراءة وعملية التقبل والتعامل مع المعلومة وطرق معالجتها عند شريحة الشباب خاصة والشباب الطالبي بأكثر خصوصية ؟ وقبل عرض الجانب الإجرائي من المداخلة نود التنبيه إلى أننا اتخذنا من طلبة المعهد العالي للتوثيق بتونس مخبرا أجرينا عليه بحثنا هذا مستعينين في الأثناء بأعوان مكتبة المعهد وبالفنيين القائمين على المكتبة المتعددة الوسائط علما وأن هذه المكتبة في حد ذاتها هي هيكل مستحدث ضمن مؤسسة المعهد العالي لعلوم التوثيق وهو عبارة عن قاعة بها ثمانية حواسيب مجهزة بمحيطاتها Périphériques ومجموعة هائلة من الأقراص المدمجة الموثقة والمفهرسة تشرف عليها موظفة من خريجي المعهد نفسه.

كيف تحوّل فعل القراءة ماهية وغائية بتحول المحامل؟

لقد اقتضى تحول محمل المعرف Le support du savoir نمطين من أنماط فعل القراءة وهذان الضربان من طبيعة متغايرة فالأول نمط ظاهري خارجي يتعلق بالتعامل الفيزيائي مع المحمل La manipulation du support وهذا الضرب الأول وإن كان في ظاهر الأمر غير مهم وعرضيا إلا أنه في اعتبارنا هو الذي سيكيف التحول الثاني في نشاط القراءة. وقد يتساءل بعضهم هل من تأثير للمحمل ونوعه على فعل القراءة ؟ وما هو الفرق بين حدث القراءة متى كانت من محملين مختلفين في معالجة المعرفة ؟ ونود قبل تفصيل القول في النمط الثاني وهو أكثر أهمية أن نقدم له بالحديث عن النمط الأول الذي طرأ على فعل القراءة من جراء تطور المعلومة من القرطاسية إلى الحاسوبية وإذا شئت قلت من الورقية إلى الرقمية.

كان فعل القراءة في المرحلة القرطاسية فعلا استجماعيا قوامه استجماع الفرد طاقته وحواسه على الكتاب في وضع يسمح له بتتبع سطوره ومرسومه، كما يقول القدامي، وعادة ما يكون هذا النمط الأول مصحوبا فيه الفرد بقلم يقيد به ما يسترعي انتباهه أو موضوع بحثه. وملخص القول في هذا النمط الأول من فعل القراءة أنه نمط بدائي تقليدي يغلب عليه الطابع الواقعي بصرامته في عشرة الكتاب ونقصد بالواقعية والصرامة، الحيثيات التي يفرضها الكتاب على المتعامل معه ويمكن أن نلخصها في المسائل التالية :

1 – الكتاب باعتباره محملا للمعرفة : ونظرا لطبيعته يمكن حمله والانتقال به من مكان لآخر (هذا لا يجوز مع الحاسوب ولو كان محمولا لأنه غير ناجع نظرا لحاجيته للطاقة في حين الكتاب يمكن مطالعته في أي مكان ولا يحتاج إلى محيطات Périphériques من قبيل الشحن ومستلزماته).

2 – وضعيات المطالعة : الكتاب يسمح بجميع وضعيات لقراءته ومن جميع الأطر (البيت (2)، الحديقة، الحافلة، الشاطئ...) وهذا ما لا يمكن أن يقع مع الحاسوب أو غيره من المحامل الرقمية لمحدوديته ولارتباطه بالشحن وبتقنيات التعامل مع الحاسوب (مثلا لا يمكن أن تقرا صفحة على شاشة الحاسوب ونحن مستلقون على ظهورنا، أو جالسين في الحديقة...).

3 – اطمئنان النفس إلى الكتاب : لما اصطلحنا عليه بواقعيته وصرامته حيث أن المعارف والمعلومات التي يحملها الكتاب تبقى ثابتة قرونا من الزمن (عكس الحاسوب الذي يهدد وجود المعلومة فيه من خلال عطب في البرمجة أو الضغط خطأ على لوحة المفاتيح وهنا نود إيراد بعض الملاحظات التي نشاطر فيها الرأي الطيب الفقيه أحمد عندما يعتبر :

1 – ثبات المحتوى المسجل على الورق والذي يمكن الرجوع إليه والاستفادة منه عند الحاجة.

2 – طواعية خاصة تساعد على التأمل والتساؤل والاستفسار.

3 – حميمية التعامل معه إذ يسهل اصطحابه إلى المدرسة أو الحديقة وهو خير رفيق في السفر والترحال هذا فضلا عن أن النص المكتوب يظل أساس كل وثيقة مهما كان وعاؤها (3).

– محصل القول من هذه المسائل المتعلقة بحيثيات فعل المطالعة مطبقا على المحمل الأول وهو الكتاب أنه فعل محكوم بغايات هي البحث عن المعلومة في محمل محدد وطبيعة هذا المحمل هي التي تفرض على القارئ نمطا خاصا من التعامل. ومهما يكن من أمر فإن فعل القراءة قد ظل لقرون عديدة فعلا قارا لم يتطور أبدا في الممارسة الفيزيائية لأن الكتاب هو ذاته والورق هو نفسه، بل إن هذا الفعل لبقائه مستقرا قد أدى استقراره هذا إلى ظهور علم كامل هو علم القراءة «كيف نقرأ أو كيف نطالع» أي كيف نتعامل مع الكتاب ومع ما يحويه من علوم ومعارف. ونود هنا أن نشير إلى قول الأديب الطيب الفقيه وهو كلام نشاطره فيه الرأي أيضا حيث يقول : «والكتاب هو أساس الحضارات ومنطلق الاكتشافات وحسب تقدير المختصين والخبراء لن يتزحزح إطلاقا لأنه الوثيقة المثلى التي تطمئن إليها القلوب وأنه سيبقى محتفظا بدوره باعتبار ما يمتاز به من خصوصيات لا توجد في غيره من الوسائل الأخرى» (الطيب الفقيه أحمد 43-2002).

وما جعلنا نضمّن كلام الباحث هذا أن قدم الكتاب والتعامل معه هو الذي كيّف فعل المطالعة وسيره مثلما يفرض مثلا (الكيس المتلئ على حامله طريقة ما في حمله) وقد بقي فعل المطالعة من مظهره الأولي هكذا جامدا En stagnation إلى أن وقع ما يسميه علماء الابستيمولوجية بالقطيعة، فبعد أن كانت محامل المعرفة طبيعية بدائية ورقية أضحت صناعية رقمية بل وافتراضية فهل سيبقى فعل القراءة على ما هو عليه ؟ وهل سيتحول في أهدافه وأغراضه وممارساته وحيثياته بتحول المحمل؟ قد لا يحتاج الأمر إلى تذكير بأنّ فعل المطالعة قد طرأت عليه بعض التغييرات وهذا منطقي وضروري من نتاج التطور التقني وتأقلم الإنسان مع المعطيات الجديدة التي ينتجها هذا التطورالعلمي وقد طرأ هذا التغيير على حدث القراءة والمطالعة في مستويين:

1 – المستوى الممارسي الإجرائي الخارجي
2 – المستوى الأعلى المعرفي العلمي التقبلي

I – وضعية فعل المطالعة في المستوى الممارسي الإجرائي :

إن فعل القراءة في هذا المستوى قد يطرأ عليه من التغيير ما تبرره الضرورة المحملية وهي على كل حال

تحولات غير مجهولة ولا نرى بأسا من التذكير بها في النقاط التالية :

1 - عدم ثبات الصفحة المقروءة من جراء العطب الذي يهدد الجهاز من قبيل الشحن والفيروسات Virus.

2 - عدم إمكانية وضع ملاحظات أو تعليقات وتصويبات في هامش الصفحة وعلى جانبها وإن كان برنامج (Word إخراج 2007) يمكن من هذه الخدمة ولكن ليس على نفس الشاكلة مع الطريقة التقليدية اليدوية القديمة مع الكتاب حيث يستطيع القارئ التصرف في الصفحة كيفما شاء.

3 - مسألة الذاكرة البصرية وضعف اشتغالها في المطالعة الرقمية حيث أن القارئ تضعف لديه الذاكرة البصرية نظرا لتعقد الصفحة من جراء البرنامج الرقمي، وقد أثبتت النتائج العلمية المتعلقة بعلم الأعصاب Neurologie أن الذاكرة تكون أقوى كلما كانت تتعامل مع صورة أو وثيقة غير معقدة في هندستها أو رسومها لأن الإحاطة بها تكون أيسر.

4 - إن وضعية القراءة والتعامل مع الحاسوب Manipulation de computer أضفى على فعل القراءة نوعا من الهشاشة وعدم الترسخ للمعلومة من جراء ما كنا بصدد الحديث فيه من ضعف الذاكرة وتشتتها وغيرهما...

5 - سرعة الوقوع على المعلومة بفضل محركات البحث Moteur de recherche وآليات النص الأعلى HYPERTEXTE وهذا في الكتب المبرمجة وليس في وثائق (PDF) مثلا. وهذه السرعة لها من الإيجابيات مثلما لها من السلبيات فمن إيجابياتها السرعة والنجاعة الآنية ومن سلبياتها أنه سريع الاندثار ولا تبقى راسخة في فكر القارئ ويمكن أن نضرب مثالا على ذلك من خلال رقم الصفحة التي يوجد بها الفصل كذا من الرواية أو الدراسة كذا فعندما يكون البحث يدويا Manuel عن طريق الكتاب تكون المعلومة أرسخ في حين أنه عندما يكون البحث آليا Automatique فإن بقاء المعلومة مهدّد في أسرع وقت بالانقراض لغياب المرجع خاصة (الصفحة والشارات Marqueurs البصرية Visuels).

6 - إن كل هذه المسائل قد أثمرت لدى الطالب التونسي تحولا في سلوكياته القرائية وميولاته الذوقية حيث أصبح أميل إلى التعامل مع الكتاب الألكتروني الرقمي نافرا البحث في الكتاب الورقي وقد كنت أجريت سبر آراء على طلبة المرحلة الأولى تتمثل في الإجابة على السؤال التالي : عندما أكلفك بالبحث عن معاني بعض الكلمات في المعجم هل تفضل العودة إلى الكتاب الموجود في المكتبة في قسم المعاجم؟ أم أنك تستنجد بالفنية Technicienne التي تعمل في المكتبة متعددة الوسائط كي تمدك بقرص المعاجم؟ فكانت الإجابة كالآتي :

25 طالبا :

- 20 طالبا : أذهب إلى مكتبة متعددة الوسائط

- 03 طلبة : أذهب إلى المحامل الورقية (ثلاث فتيات)

- 02 طلبة : سيان المحامل الورقية أو المحامل الرقمية

فمن خلال هذه العينة الأولى نلاحظ تقهقر العلاقة التي تربط الطالب بالكتاب ولهذا التقهقر ما يفسره. ولا نرى له سوى سببين : ولع الطالب بالتعامل مع الحاسوب وهذا السبب الأول هو نتيجة لفرضية أولى توصلت إليها مع محاورة الفنية في مكتبة المعهد متعدد الوسائط حيث نلاحظ ولع الطالب بالبقاء أمام الحاسوب ساعات رغبة في الاستكشاف والاكتشاف. وهذا السبب الأول غير ثابت ولا يعول عليه لأنه ناتج عن رغبة وقتية غير مسؤولة وهي رهينة بزوال سببها، وسببها كما هو معلوم سبب هش على غير أصول. أما السبب الثاني فهو أكثر معقولية وهو عكس الأول مبني على أصول منها الرغبة الملحة في الظفر بالمعلومة في سرعة قياسية لذلك يفضل الطالب العودة إلى المحمل الرقمي خاصة فيما يخص المعاجم الموجودة على الخط أو ما أصبح يسمى، اليوم، بالمكتبات على الخط وهذا ملمح أول في تحول فعل القراءة (4) حيث يلخص في عدم رغبة

الطالب في التعامل مع الكتاب الورقي وتفضيله المحامل الرقمية والألكترونية كمصدر للمعرفة والمعلومات. وهذا التحول كما أسلفنا آنفا مأتاه الرغبة في الحصول على المعلومة بسرعة «سريعة» وهذه حالة مرضية أصابت فعل المطالعة والقراءة وهما فعلان لا يعترفان بعامل الزمان لأنهما يجب أن يكونا غير مقيدين بوقت وإلا فسدت عملية تخزين المعلومة وكان بقاؤها في ذهن القارئ هشا مهددا بالاندثار، ونضرب مثالا على ذلك اليوم بعدم ترسخ المعلومة في ذهن الجهاز العرفاني للطالب لأنه لا يعرف كيف يقرأ فهو يطالع بسرعة ويأكل بسرعة ويغني بسرعة ما دام في عصر السرعة، فكانت المعلومة عنده تندثر بسرعة وكأنه لم يقرأ ولم يطالع.

II - وضعية فعل المطالعة في المستوى الأعلى المعرفي العلمي التقبلي :

أود قبل أن أشخص التطور الذي آل إليه فعل المطالعة مع المحامل الورقية أن نذكر بأن المقصود بفعل المطالعة والقراءة في هذه الفقرة هو بالتعريف الذي صاغه له أستاذنا المبروك المناعي في مصنف «الشباب والكتاب» 2004 حيث صاغ مفهوما للقراءة والمطالعة مبنيا على أصول تربوية تعليمية Educatif/Didactique ومجمل القول فيه هو أن القراءة والمطالعة هما رديفان للتلقي والتقبل وعلى هذا الأساس من التعريف لفعل المطالعة وجب علينا إعادة طرح السؤال بالصيغة التالية :

ما هي التأثيرات التي جاء بها التقدم العلمي عبر المحمل الرقمي على علمية التلقي والتقبل لدى الطالب، أو هل أن طبيعة المحمل La nature de support العلمي تؤثر على حدث التقبل والتلقي عند القارئ ؟

الثابت، حسب عملية سبر الآراء والروائز المطبقة Les tests appliqués أن طبيعة المحمل ونوعه قد أثر على حدث المطالعة تأثيرا كبيرا قوامه خلخلة الجهاز العرفاني لدى القارئ. ومفهوم الخلخلة لجهاز التقبل عند القارئ هو مفهوم ومتصور مركزي تبرهن عليه حيثيات فعل المطالعة ونتائجها، فمن نتائج المطالعة والقراءة من خلال المحامل الرقمية نجد نتيجة مركزية وعنها تتفرع جميع النتائج الأخرى وهي في رأينا مرض عضال لا بد من إيجاد حلول لتجاوزها. وهذه النتيجة هي عدم رسوخ المعلومة المتلقاة من الحاسوب في ذهن القارئ عكس ماهو عليه الأمر عندما يكون فعل المطالعة مع الكتاب. وكل هذا من جراء التدفق المعلوماتي الذي يمارسه الحاسوب على المتعامل معه عكس الكتاب حيث أن المعلومة لا تمكث كثيرا في الذاكرة وقد قدرها علماء الأعصاب والذاكرة أنها لا تتجاوز الذاكرة قريبة المدى Mémoire à court terme وعن هذه النتيجة المركزية تتفرع المسائل التالية (التي نعدها ظاهرة مرضية لا بد من إيجاد حلول لها وتقويمها) :

1 - إن فعل القراء، مطبقا على الحاسوب هو فعل يمكن أن نسمه بكونه ظاهرة اجتماعية حديثة في سلوكيات الفرد الثقافية مازالت لم تتضح بعد لذلك اتسمت هذه السلوكيات بالتأرجح بين النجاعة حينا واللافائدة أحيانا أخرى.

2 - إن حداثة هذه الممارسة في المعيش اليومي هو الذي حال دون صيرورتها تقليدا ثقافيا إلى اليوم في مجتمع المعرفة وإن كانت آيلة إلى ذلك. وعليه فهي من أجل كل هذا قد بقيت مسألة نجاعتها وقتية ومتصلة بممارسات معرفية ثقافية أخرى كإنجاز البحوث الجامعية والمحاضرات الآنية والبحوث البرقية التي لا تتجاوز فائدتها ظرفا محددا من قبيل الترجمة الفورية.

3 - إن فعل القراءة والمطالعة من المحامل الرقمية يمتاز بالهشاشة وعدم الاكتمال في بعض مراحله (5) وخاصة مرحلة الاستيعاب والتمثل عكس ما هو عليه الأمر مع الكتاب. ولعل هذا الأمر عائد إلى السرعة القياسية في الانتقال من صفحة إلى صفحة أو من فصل إلى فصل آخر من خلال التصفح البرقي لبعض الكتب المختلفة الأغراض في مكتبة رقمية ما.

4 - إن الخدمات التي يقدمها «النات» من قبيل رقمنة

الأعمال الورقية وخاصة خلق برمجيات القراءة ووضع آليات لها رهن إشارة القارئ من شأنه أن يضعف الكفاية التواصلية بين القارئ والكتاب حتى وإن كان رقميا، حيث تفرض عليه البرمجيات طرقا خاصة في كيفية معالجة الكتاب والتعامل معه.

5 - وباختصار شديد فإن المطالعة أو القراءة المرقمنة لحداثتها ستبقى رهينة نضج عوامل أخرى في حياة الفرد وهي وإن كانت ناجعة لقضاء بعض المآرب الظرفية كتوفير المعلومة بأسرع وقت وبأيسر الظروف فإنها عديمة النجاعة إذا كانت للتحصيل العلمي والتكوين السكولستيكي.

خاتمة البحث :

وبعد، إن فعل القراءة والمطالعة فيما نرى سواء اكان مطبقا على المحامل الورقية أم المحامل الرقمية هو فعل منشود بغض النظر على مدى نجاعته ودرجة فائدته. والمهم هو الإقدام على هذا الفعل ومعاشرة المعرفة أنى كان محملها ونحن في زمن هيمنت عليه الوسائط السمعية والبصرية واندثرت فيه الكلمة أو كادت وإن كانت لن تندثر لأنه في البدء كانت الكلمة وفي الختام ستكون كذلك هي المحدد لفعل الإنسان في التاريخ وهي الشاهد والحامل لانتصاراته التاريخية ضد كل غزو غاشم. ولعل العولمة اليوم خير مثال على ذلك، بقي أن نتساءل هل يصدق كلام أبي تمام :

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول

قياسا عليه، هل يبقى حب الإنسان للكتاب صامدا أمام شاشة الحاسوب ولوحة مفاتيحه والأقراص الممغنطة والمدمجة ؟ الثابت أن هذه العلاقة الحميمة ليس من اليسير اختراقها ولعل عمر الكتاب وعمر المحامل الرقمية خير شاهد على ذلك حيث يقرّ الخبراء في علم التوثيق أن عمر الكتاب قد يصل إلى خمسة قرون في حين أن بعض المحامل لا يتجاوز عمرها خمسا وثلاثين سنة.



الهوامش والاحالات

1) لإعداد هذه الفقرة عدنا إلى مقال مهم للأستاذ الحبيب المبروك : «منزلة الكتاب في سياق التحولات التكنولوجية الراهنة» ضمن مصنف «الأسرة والمطالعة» 2002.

2) استضافني صديق فرنسي في منزله أيام كنت مدرسا للغة العربية لابناء البعثات الدبلوماسية بتونس وفي طريقنا لمنزله قلت له «أريد أن تقع ضيافتي على الطريقة الفرنسية أي افعل معي مثلما يفعل الفرنسيون عندما يستضيف بعضهم بعضا لأكتشف طقوس الضيافة عندكم» وفور ما وصلنا فتح الباب الرئيسي وأمرني بالدخول قبله (فقلت له هذه ليست من عادتنا» ثم توجه بي مباشرة لدورة المياه وقال لي هذه دورة المياه فوجدتها دورة مياه فيها أكثر من 20 عنوانا لمجلات ودوريات مهمة كلها متعلقة بالصحة والعناية بها فقلت له «فسر لي الأمر» فقال لي «عندما نستضيف أحدا أول ما نريه دورة المياه ليذهب إليها كي لا يحرجنا ولا يجد هو الحرج وأما المجلات فيها فإنها لتمضية الوقت والاستفادة منها وهي مخصصة لتنشئة الأطفال على حب الكتاب... إلخ».

3) النقاط (أ،ب،ج) أخذناها من مداخلة قدمها «الطبيب الفقيه أحمد» في الندوة الفكرية العربية للأسرة والمطالعة. المنظمة 2002 بالمنستير تونس وعنوان المحاضرة: دور الكتاب كوسيط للتثقيف والترفيه صفحة 39 -45

4) يروى عن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، رحمه الله أنه إذا أراد معاقبة ابنه محمد الفاضل منعه من الدخول إلى مكتبته مدة معينة.

5) من المعلوم أن فعل المطالعة نشاط عقلي يمر بأربع مراحل : وهي الادراك/ الاستيعاب/ الاستجابة/ التمثل (لمزيد التعمق أنظر عز الدين الناجح 2006/ 2007).

مدى ارتباط أزمة الكتاب بالانخراط في مجتمع المعرفة

خليفة المنصوري

تقديـــــم :

هناك مقولة توصّل إليها ابن خلدون في مقدمته، تلخّص علاقة المثاقفة بين الشعوب والأمم، وهي أنّ «المغلوب مولع أبدا بالإقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسّبب في ذلك أنّ النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها، وانقادت إليه لكمال الغالب... وتشبّهت به... حتّى أنّه إذا كانت أمّة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبّه والإقتداء حظّ كبير...» (1). ولعل تطور المجتمعات الحديثة وما بعدها لم يشذ عن هذه القاعدة، فمن عصر النهضة الأوروبية مرورا بفكر الإصلاح العربي، إلى وقتنا الرّاهن بتفاعلاته الفكرية والسيّاسية الاقتصادية، تكون مرجعيّة «المغلوب» دائما، إمّا تلك المفاهيم التي تمت صياغتها في مناخ آخر، أو تلك التقنيات والأساليب الجديدة التي ابتكرها الآخر في سياق تاريخي ما. والمحصّلة دائما، أن تطور المجتمعات لا يتمّ بنفس الوتيرة، وعلى «المغلوب» أن يقتفي أثر «الغالب» وإلا كان في عزلة عن محيطه أو عن مسايرة المتغيرات والأحداث.

إنّ هذا التفاعل اللاّمتكافئ بين الشعوب والأمم والحضارات اليوم، له ما يبرّره، من زاوية من هو الأقدر على التأثير في الآخر، ومن يملك القدرة على صياغة المفاهيم والترويج لها، ومن يساهم في الإنتاج المعرفي العالمي، ومن ينتج القيم الجديدة المسايرة للتطور، ومن ينتج أدوات المعرفة الحديثة، وفي النهاية، من هو الأقدر على بناء عقول جديدة تساير التطور والمستجدات؟

وهذا الأمر يحيلنا على التساؤل عن موقعنا، من التحولات العالمية التي غيرت من ملامح حياتنا اليوميّة وأسقطت كلّ الحدود بين ما هو كوني وما هو خصوصي. فهل نحن، اليوم، في مستوى ما يقتضيه «مجتمع المعرفة»، من حيث البنية الأساسية والتشريعية والذّهنية والقيميّة، التي تجعلنا نساهم في الإنتاج المعرفي العالمي؟ أم أن التطور الذي يتأتّى من الخارج دائما يفرض علينا تغييرا شكليا باسم المسايرة واللّحاق والتّفتح على العالم، ليس إلاّ؟ وهل الاهتمام بمصدر واحد من مصادر المعرفة «كمجتمع المعلومات والإعلام» يمكن أن يلغي الكتاب ويؤسس لموته أمام تكريس واقع افتراضي متعاظم؟ وهل يؤثر الانخراط في مجتمع المعرفة في تعاطينا مع الكتاب؟

1 - مجتمع المعرفة تعبير عن تطور السّمات الإنسانية :

يتّفق الكثيرون على أنّ «مجتمع المعرفة» يعرّف بقدرته على التعامل مع العالم بالمعلومة والإعلام والعلم، وتمكنه من أدوات المعرفة الحديثة، لبناء عقل جديد يساير التطوّر الحضاري. ويستعمل هذا المفهوم مرادفا لمفهوم «مجتمع المعلومات «ومجتمع الإعلام» و«مجتمع الاقتصاد اللاّمادي/ مجتمع اقتصاد المعرفة» و«مجتمع الاتصال والمعرفة»... ويقترن مجتمع المعرفة بالتطور الذي حدث في أساليب نقل المعرفة الإنسانية، والذي استوجبته بنية المجتمعات المعاصرة، لذلك، فهو في نظر الكثيرين، يعدّ تواصلا وامتدادا للمجتمع الصناع وثورة التكنولوجيات الجديدة، لننتقل، حينئذ، مع «مجتمع المعرفة»، إلى نوع جديد من المجتمعات التي تستثمر في اقتصاد المعرفة في مجال التعليم والبحث وتطوير البرمجيات.

ولعل هذه الحركة التطورية الجديدة التي مست كل العالم، من شأنها أن تساهم، إلى حدّ كبير، في تشكيل مجتمع عالمي بسمات جديدة، يؤكد على المعرفة المشتركة حول كلّ الموضوعات والمجالات. إذ بفضل تكنولوجيا المعلومات وقع تطوير الحقول المعرفية وتجديدها، من أجل أن تكون المعرفة في إطارها أهم المنتجات لتنمية الشعوب وثمرة هذه التحولات.

لقد تحول العالم، في نظر العلوم الاجتماعية، من خلال هذا المفهوم و«عبر المجال الإلكتروني اللاّمتناهي إلى مجموعة من النصوص والصّور والأصوات والوثائق والرّسائل الوافدة من جميع وسائل الاتصال والتواصل» (2)، لتتشكل بذلك ملامح جديدة للمجتمعات المعاصرة، تكون على وقع الاتصال والحوار والتفاعل بسرعة الضوء. من ذلك أن الانترنت، مثلا، كشبكة للمعلومات العالمية، تمثل، اليوم «مكتبة عالمية فورية تتعدد فيها وسائل الاتصال ومجالات الحصول على المعارف والأفكار في جميع المجالات، ويصل عدد مستخدميها إلى ما يزيد عن 100 مليون شخص في المجتمعات الغربية، وهو استخدام يتزايد بمعدل 200 بالمائة كل سنة» (3).

وكأي مفهوم يسبح في مرجعيته الغربية، لابدّ أن يكون «مجتمع المعرفة» مفهوما كونيا يرتبط بعولمة التكنولوجيا وتمركز دوائر احتكار الإنتاج المعرفي، من ذلك أننا أصبحنا، اليوم، أمام عولمة للمعرفة الواحدة والفكر الواحد والايديولوجيا الواحدة، التي عادة ما تخدم ثقافة المهيمن والأقوى في العالم، والذي هو القادر على الصياغة والترويج، لاسيما وأنّ لغة التواصل تقتصر على لغته.

إنّ هذه العولمة التكنولوجية وثورة الاتصال، وإن خدمت المعرفة وساهمت في إنتاجها من خلال المقالات وندوات الحوار والمعطيات والأرقام الإحصائية والموسوعات، فإنها قد قامت بتوظيفها كوسيلة للربح واحتكار المعلومة في دوائر للهيمنة، لتسقط، تاليا، في أحضان منطق السوق والتجارة وترويج المنتجات والقيم الاستهلاكية، من ذلك أن أمريكا لوحدها تهيمن على سوق المعرفة بنسبة 90 بالمائة من البرامج، حتى تبقى بذلك وسائل الاتصال ممركزة في مستوى الأدوات والمعارف ولغة التداول حول الدّول المتقدمة، ولتؤكد أن الثقافة التي تهيمن هي ثقافة من ينتج ويحتكر ويروج.

2 - من التفاعل الحضاري إلى التطور المفروض في المجتمعات النامية :

إن الطابع الكوني لمجتمع المعرفة، من خلال الأرضية والوسائل التكنولوجية المبتكرة في المناخ الغربي، بثقافته وإيديولوجيته المهيمنة، يجعل العالم النامي مجبرا على الاقتداء و«مولعا دائما به»، لأنّ هذه بنية هذه المجتمعات «لا تتطور، بالضرورة، إلاّ من الخارج» (4). فالأضعف في حلقات التفاعل ليس أمامه إلاّ الانصهار في منطق العولمة والكونية، خاصة

أن الأقوى على الصياغة والابتكار هو الأقوى في الترويج لإيديولوجيته. ولعلّ أبرز تجليات هذا «التغيير من الخارج» هو أنّ تكنولوجيا المعلومات أصبحت اليوم توظف وتستخدم في البلدان العربية، مثلا، في قضايا محلية وخصوصية كالمدونات، على اعتبارها شكلا من أشكال الإعلام والمعرفة، كما تستخدم هذه التكنولوجيا الجديدة في التعريف بالقضايا الفكرية والسياسية، مثلما هو الحال في عمل حركة المقاومة أو ما تقوم به الحركات الأصولية الإسلامية في العالم، والتي تبدو في نظر الباحثين قد «رفعت في مستوى الوعي التكنولوجي، من ناحية المعرفة والاستخدام، بل تعدّت إلى تكوين إستراتيجية ... تدخل البعد التكنولوجي في إيديولوجية المقاومة (5).

والجدير بالذكر هنا، أننا أما عالم تتقارب فيه المصالح وتقاليد الاستخدام رغم اختلاف الهويات، فلم يعد التحفظ شائعا مثلما كان في بداية القرن الماضي في موضوعات مثل الحداثة والتطور والغزو الثقافي مقابل التراث والأصالة والهوية، لاسيما تلك التيارات الرّافضة لكل جديد ومبتكر أو كل فكر متأتّ من الخارج، بل على العكس، يبدو أن العالم اليوم يشهد انصهارا كليا لا مثيل له وذوبانا للخصوصيات والهويات الثقافية أمام هذه الوضعية المعرفية والتكنولوجية الجديدة. بمعنى آخر، إن البعد الكوني لمجتمع المعرفة أصبح واقعا خصوصيا بعينه تعيشه كلّ المجتمعات وعلى نفس الوتيرة وبنفس القيم وأنماط الحياة.

3 - من خطاب مسايرة التطور إلى تحديات الانخراط في مجتمع المعرفة:

يكشف «مجتمع المعرفة» عن خطاب تنموي وإعلامي عالمي، طرفين لا متكافئين تنمويا وحضاريا، ومتباينين في الإمكانات المادية والمعنوية. وهذا اللاتكافؤ أو التباين يبدو جليّا في العلاقة بين من يملك حقائق واقعية ومعطيات تعاش بقيم ومعايير جديدة، وبين من يسعى بتشريعاته وخطابه الإعلامي السياسي وبإصلاحاته وتطوير بنيته الذهنية، إلى تقبل ما أصبح عليه العالم من حقائق ومعطيات أولية.

باختصار، بين من يملك الإمكانات المادية والإمكانات المعنوية (كبنية أساسية وذهنية لمجتمع المعرفة)، وبين من يعمل بمرونة على المسايرة والتفاعل مع المستجدات.

بمعنى آخر، أنّ كلفة الانخراط في مجتمع المعرفة تجعل البلدان المتقبلة لتكنولوجيا المعلومات أمام تحديات كبرى، فهي مطالبة بتحديث مؤسساتها وتشريعاتها وتوفير البنية الأساسية لتقبل هذه التغيرات. لأن الحلقة الأضعف في المعادلة، أو من يفرض عليه هذا التغيير من الخارج، عادة ما يضطر إلى تعديل مستواه التنموي بما يلائم المتغيرات العالمية في بنيته.

وفي هذا السياق، تشير تقارير التنمية الإنسانية إلى أن المعدل العربي لمستخدمي شبكة الانترنيت مثلا، كناقلة للخبر والمعرفة والأداة الأولى للعولمة، لا يتجاوز 12 بالمائة. وفي تونس، تشير آخر الإحصائيات إلى «نسبة 12.5 بالمائة من مجموع السكان الذين يستخدمون شبكة الانترنيت في 2007، رغم تأكيد الخطاب السياسي على أن تكنولوجيا الاتصال تمثل أهم وسيلة للنمو الاقتصادي وشرطا لتلائم المنظومات التعليمية مع الإمكانات المتاحة لهذه التكنولوجيا» (6). وفي المقابل، تسعى العديد من دول العالم المتقدم إلى الاستثمار في اقتصاد المعرفة وخاصة في مجال التعليم العمومي، وذلك بتطوير البرمجيات والبحث والإنتاج المعرفي، من ذلك أن السويد مثلا، تستثمر ما يعادل 11 بالمائة من إجمالي الناتج المحلي في اقتصاد المعرفة، وتليها فرنسا في المرتبة الثانية. ولعلّ هذا الوضع المقارن في الإمكانات يؤشر على صعوبة أن تكون بلدان العالم النامي في مستوى الانخراط الفعلي في مجتمع المعرفة، لأن كلفة هذا الانخراط تفترض أنّ:

- تطوير التشريعات والقوانين لا يمكن أن يجاري التطور العالمي في غياب الإمكانات المادية بالدرجة الأساس (البنية الأساسية).

• خطاب المسايرة و«اللحاق بركب الدّول المتقدمة»، لا يمكن أن يرتقي إلى مستوى الانخراط الفعلي والمساهمة في الإنتاج المعرفي العالمي.

• تجاوز مرحلة «محو الأمية التكنولوجية» المقتصرة على التشغيل والاستخدام البسيط و المساهمة الفعلية في الإنتاج المعرفي.

• ألا يقتصر المجال المعرفي الحقيقي على فئة الباحثين رغم هيمنة الهاجس الأمني عليهم عندما يتعلق الأمر بالمواقع المحرمة.

• ألاّ تغيب قيم المعرفة والبحث عن المعلومة لدى غالبية مستخدمي شبكة الانترنيت، حتى لا يتدنى المستوى المعرفي لناشئتنا.

•الإدراج الفعلي لتكنولوجيا المعلومات في برامج التدريس وتعميمها على المؤسسات التربوية، لأنه تبين في دراسة سوسيولوجية حول مدرسة الغد على عينات من التلاميذ والمدرسين لقياس مواقفهم وتصوراتهم وانتظاراتهم، أن غالبية المبحوثين يصرحون بغياب الاستفادة من تكنولوجيات الاتصال الحديثة، وأن الجدوى من المدرسة الافتراضية، مثلا، لم تتعد نسبة 4 بالمائة، وأن الاستفادة من مخابر الإعلامية المرتبطة بشبكة الانترنيت بالمدرسة لم تتعد نسبة 6.8 بالمائة (7).

• كلفة استخدام هذه التكنولوجيات لا بد أن تلائم المقدرة الشرائية حتى تعمم هذه الوسائط على كافة الشرائح.

في هذا الإطار من التحديات، تظهر بعض الدراسات أن إمكانات الدول الضعيفة، حقيقة، بمفردها غير قادرة على مجابهة شروط التحولات العالمية، نظرا لتباين مؤشرات التنمية الإنسانية في هذه البلدان، ولصعوبة تأمين الانخراط الفعلي في مجتمع المعرفة. الأمر الذي دفع بالجامعة العربية، مثلا، أن تعمل على تأسيس ما سمّي بـ «مشروع الذخيرة العربية/ الانترنيت العربي» في سنة 2006، كنظام معلوماتي عربي، في نظرها، يلبي متطلبات المواطن العربي من المعرفة الشاملة والدقيقة في مختلف الاختصاصات قديما وحديثا» (8). ويأتي هذا المشروع في شكل بنك آلي من النصوص العربية القديمة والحديثة مما أنتجه الفكر العربي، ليكون مرجعا أساسيا للغويين والباحثين في الدراسات العربية ودافعا إلى التعريف الواسع والعميق بالتراث العربي.

4 – مكانة الكتاب في ظلّ مجتمع المعرفة والمعلومات :

لا أحد ينكر الدور الإيجابي لتكنولوجيا المعلوْمات وما أحدثته من انقلاب هائل غيّر ملامح العالم، لا سيما وأنها قد عملت على تطوير الحقول المعرفية وتجديدها، من خلال رقمنة النصوص والصّوت والصورة وربطها داخل شبكة كونية، لتكون المعرفة أهم منتجاتها. ولعل الاشتراك في هذا التغيير على المستوى العالمي، إلى حدّ الانصهار وذوبان الخصوصيات، هو الذي جعل من هذه الظاهرة كونية وشمولية.

لكن تعاظم دور «مجتمع المعرفة» في تشكيل الواقع الافتراضي الجديد، جعل الكثيرين من الباحثين يخشون انحسار وسائل ومصادر أخرى للمعرفة كالكتاب والصحيفة والمجلة في وجه الانترنيت بالدرجة الأساس، لأن هجمة وسائل الاتصال الحديثة، في نظرهم، كرست ثقافة سمعية ومرئية أو شفوية تكنولوجية غيرت من انتظارات المتقبل أمام افتتانه بوسائل التواصل والتخاطب الجديدة والقيم التي رافقتها.

إنّ إشكالية مدى ارتباط أزمة الكتاب بالانخراط في مجتمع المعرفة لم تحسم بعد، لأنّ ظاهرة النشر والتسويق ومنتديات الحوار والدّراسات حول الكتاب وترجمة العمال الإبداعية في العالم تشير إلى أن الكتاب الورقي مازال يحظى بمكانة هامّة، لأنه:

• يبقى دائما معبرا عن ذاكرة للشعوب لا تمحي.

• يبقى حافظا للمعرفة من التلف مقارنة بالوسائط الأخرى للمعرفة، والتي عادة ما تغير من محتوياتها وتجدّدها من حين إلى آخر.

• هناك تقاليد مع المعرفة رسخها الكتاب عبر التاريخ،

تؤكد، دائما، على أهمية المكتوب مقارنة بالشفوي، لم نحد عنها إلى اليوم، رغم تعاملنا مع الوسائط الأخرى للمعرفة، بل على العكس، وقع توظيف للتكنولوجيات الجديدة في التعريف بالكتاب وبمنتجات الفكر البشري، من خلال البحوث والمقالات والمعطيات الإحصائية والتقارير.

• ثقافة المكتوب تبقى الأكثر قوّة على التبليغ لأنها ترتبط بالصرامة العلمية والمنهجية، من ذلك أن الكتاب يخضع لشروط في النشر، تؤكد عليها لجان القراءة والتقييم العلمي مقارنة بما ينشر على موقع الانترنيت.

• ثقة القارئ في الكتاب تبقى متجددة مقارنة بما يقرأه مرئيا، وذلك احتراما للجهد وإبداع صاحبه.

• تجدّد حركة الكتابة والتأليف والنشر في العالم في السنوات الأخيرة، حول تحوّلات الفكر والسياسة والإستراتيجيات والعلاقات الدولية، توحي بالقيمة الأساسية للكتاب التي لم تضمحل حتى في ظلّ الوسائط الأخرى للمعرفة.

• استفادة الكتاب من الرقمنة والترويج الإلكتروني تعريفا وتسهيلا في التعامل به (الموسوعات/ أمهات الكتب/ القرآن: تفسيرا وترتيلا...) بل وتقريب الكتاب أكثر من القارئ عندما يتوفر الجهد والمال، في ظلّ غلاء أسعار الكتاب التي عادة مت تطرح كعائق للقراءة.

• في ظلّ هذا المناخ، ظهرت تقاليد قرائية جديدة للكتاب تعتمد على طبع المرئي واخراجه إلى حالته المكتوبة للتأكيد، دائما، على أهمية المكتوب في سلوكات الفاعلين.



المصادر والمراجع

1) عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، منشورات دار الهلال، بيروت، 2000، ص.ص 101-102.

2) أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصيّاغ، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 2005، ص.525.

3 ـ أنتوني غدنز، مرجع سابق، ص523.

4) Henri MENDRAS، Eléments de sociologie، éd. Armand Colin، Paris، 2001،229.

5) ناصر صلاح الدين محمد، التكنولوجيا كتحول نوعي في إستراتيجية المقاومة، المستقبل العربي، العدد 324، فيفري 2006.

6) Encyclopédie wapédia (En ligne)، page consultée le 2008-12-01.

7) سهام حيزاوي، مدرسة الغد وآفاق تأثيرها المستقبلية على التغيّر الاجتماعي بالمجتمع التونسي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع تونس، السنة الجامعيّة 2004-2005 (مرقونة).

8) المستقبل العربي، العدد 335، جانفي، 2007 (تقرير)

المكتبات العامّة الرّقميّة العربيّة : المبادئ والتّقييم (*)

أحمد الكسيبي

تمهيد :

تعد المكتبات العامة من أهم أنواع المؤسسات الثقافية وترجع أهميتها لأن المكتبة العامة تعتبر «جامعة الشعب» فهي المؤسسة الوحيدة التي تهب لكل مواطن مهما كان سنّه أو جنسه أو مكانته الاجتماعية فرصة التثقيف والتعليم والمعرفة من دون التقيد بأي شروط أو حدود فيعرّف بيان اليونسكو المكتبة العامة بأنها «مؤسسة ديمقراطية للتثقيف والتربية والإعلام والترفيه» فهي عامة، بمعنى شاملة، ذلك أنها لا تقتصر على مجال علمي أو عملي واحد ولا تخضع مجموعاتها وخدماتها لأي شكل من أشكال التمييز ولا تذعن للضغوط التجارية والرقابة الايديولوجية أو السياسية (1) حتى لا تصبح حكرا على فئة اجتماعية دون أخرى أو فئة عمرية دون سواها، وفي ذلك القدر الكافي من أسباب الشراكة في «بناء الديمقراطية وتنميتها» (2) مما جعل للمكتبة العامة بعدا سياسيا وثقافيا هاما دفع الدّول المتقدمة إلى السعي قدر الإمكان لتطبيق المبادئ التي حددتها اليونسكو لهذه المؤسسة. لذلك حظيت المكتبات العامة باهتمام ورعاية في الدول المتقدمة باعتبار أنها مشروع فكري ورهان معرفي، فهي تقوم بخدمات حافزة للتنمية الشاملة والمستديمة بجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية، فتمثل المكتبات خدمة عامة تقدمها الدولة لكل فرد في المجتمع وتعتبر من أهم روافد ومقومات المجتمعات المتقدمة لأنها تساهم بصفة فاعلة في بناء حضارة المعلومات والمعرفة المرتقبة.

إن الهدف الرئيسي من المكتبات العامة هو إتاحة فرص الثقافة المستمرة للمستفيدين دون مقابل، ولهذا أصبحت في بعض البلاد المتقدمة مركزا للحياة الفكرية والاجتماعية بالمنطقة التي تخدمها، فتقوم المكتبات العامة بنشاطات ثقافية هادفة، ومحاضرات جذابة، ووسائل ترفيهية نافعة (وأجهزة لعرض الأفلام الشيقة والهادفة)، وأماكن للجلسات الاجتماعية المسلية، ودورات تعليمية وتدريبية للرفع من المهارات المعلوماتية والتقنية المناسبة للوقت الراهن.

فأصبح دورها التربوي بارزا في الحملات التي تتولاها المكتبات العامة لمحو الأميات لأنها تعددت في هذا العصر، عصر انفجار الإعلام وتزايد المعلومات بوتيرة غير عادية فمن «الأمية الأبجدية» /Analphabétisme

Illiteracy والأمية الوظيفية «Functional illiteracy» تكاثرت الأميات فأصبح هناك مصطلحات الأمية الثقافية «Cultural illiteracy» أو الأمية الحضارية والأمية المعلوماتية. . . «Information illiteracy» إلخ. وأخطرها الأمية الراجعة Illettrisme التي تتمثل في الفقدان التدريجي للقدرة القرائية أو الكتابية، ويتأكد هذا الدور التربوي الذي لا مناص منه ويعتبر فرضا إنمائيا وحضاريات لتكريس مبدأ استمرارية التعليم مدى الحياة وغرس عادات المطالعة عند كل الفئات.

فللوصول لمجتمعات المعرفة والمعلومات تقوم المكتبات العامة بمحاولات جدية لتكريس عادات جديدة تجعل من القراءة والاطلاع على المستجدات وتجارب الآخرين ممارسة يومية عند كل الفئات الاجتماعية وخصوصا الفئات الناشئة والنشيطة.

فعند الإعداد للتحـوّل من الاقتصاد الزّراعي والصناعي إلى الاقتصاد المعرفي على الفكر فإن أهم وسيلة لهذا التحول هي تغيير العقليات والسلوكيات. فالأمم التي تعمل على غرس عادات المطالعة في أوساط وفئات اجتماعية يافعة ونشيطة واندماجها في شبكات المعلومات بالقيم الجديدة، والبلدان المتقدمة أعطت من خلال منظمتها للتعاون والتنميـة الاقتصادية (OCDE) مثـالا على الأهميـة القصوى للمطالعـة والقـراءة. وخيـر دليل أخذهـا بعين الاعتبار كمؤشر هـام عنـد تقييمهـا لمدى تقدم الأنظمـة التعليمية من خلال دراستها الميدانيّـة التي تسمى بالبيزا (3) «PISA Programme international pour le suivi des acquis des élèves» البرنامج الدولي لمتابعة تحصيل التلاميذ. وهذه الدراسات الدورية تبين لنا مدى الترابط بين الأمم التي تحصل أبناؤها على معدلات عالية في القراءة والمطالعة وبين رقيها وتقدمها (4)، . . . وغيرها من الدراسات التي تسهم في تنمية الممارسات الثقافية باعتبارها قناة أساسية للتخطيط السليم للوصول إلى مجتمع المعرفة ببناء برامج محددة وفاعلة تعد لمستقبل هو ملك الأجيال القادمة.

فالعلاقة واضحة بين المطالعة والرقي، ونتبين ذلك جليا من خلال تجارب البلاد المتقدمة التي تحتل أعلى المراتب في مجالات التنمية والتي تتبين من خلال تقييمات مؤشرات التنمية الإنسانية (5) IDH ومثال ذلك أن بعض البلدان الاسكندينافية مثل «السويد» وبعض البلدان شرق آسيوية «التنينات» مثل كوريات الجنوبية التي تحتل الصدارة في مجالات التنمية نجدها قد تحصلت في نفس الوقت على نصيب الأسد في مجالات القراءة والمطالعة لدى ناشئتها حسب دراسات البيزا. فيرتبط مستوى التنمية مع المطالعة وترتبط ثقافة المعلومات مع وجود قاعدة واسعة للقراء، لأن القراءة من أهم الوسائل لاكتساب العلم والثقافة، فهي مفتاح المعرفة والمصدر الذي يمدنا بالمعلومات عما يقع في الكون من أحداث وما يدور في البيئة من وقائع وما وصلت إليه العقول من خبرات.

وفي زمن تدافع المعلومات إلكترونيا عبر الإنترنات أو وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة يبدو أن التنويه بدور المكتبة العمومية أشبه بعودة إلى زمان الدينصورات. ففي عصر تقنية المعلومات تسعى المكتبات لتطوير مجموعاتها وخدماتها إلى مكتبة رقمية (digital library) لمواكبة الوسائل الحديثة لحفظ المعلومات واسترجاعها بما يضمن للباحثين الدقة والسرعة في الحصول على المعلومات.

1 ـ مبادئ ومناهج للتصميم والتقييم :

في عصر تقنية المعلومات، حيث إن التحول من المكتبة التقليدية الورقية إلى المكتبة الرقمية أصبح ضرورة يتطلبها نمط الحياة اليومي من حيث السرعة والدقة، لا بد أن نتساءل ما هي الغائيات والمناهج من مكتبة تقليدية إلى مكتبة رقمية، وما نوع المكتبة الرقمية ودورها بالمقارنة مع المكتبات الالكترونية الأخرى، ففي أدبيات المكتبات يوجد عدّة مصطلحات تشير إلى الوجه الحديث للمكتبات يصعب حصرها. فهناك تعبيرات كثيرة ومختلفة من أهمها المكتبة الالكترونية /

المكتبة الافتراضية / المكتبة الرقمية / المكتبة المهجنة / المهيبرة / المكتبة المحسوبة / المكتبة المميكنة / المكتبة بلا جدران / المكتبة على الخط المباشر . . . تختلط لدى غير المتخصصين والمسؤولين المعاني لهذه التسميات المختلفة التي تشير إلى مصطلحات تعبر عن خاصيات تقنية ووظيفية معيّنة. ولكي نتجاوز الخلط والفوضى في التسميات ونتجنب التفسير الأكاديمي والتقني لا بد من التذكير باختزال شديد أن المكتبات الرقمية تخضع إلى مبادئ ومناهج للتصميم والانجاز والتقييم.

ومن حيث المبدأ يعتبر منهج نقل التقانات واحترام المرحلية في توطينها الإطار العلمي الصحيح لدراسة المكتبات الرقمية التي تندرج ضمن إشكاليات إدماج تقنيات حديثة للمعلومات في المكتبات ومرافق المعلومات، ويعتبر توخي المنهجية من المسائل الضرورية عند تصميم أنظمة المكتبة الرقمية وعمارتها وكذا عند اختيار الموارد والمعدات والتجهيزات اللازمة وعند اختيار معايير تنظيم الرصيد المعرفي. ذلك أنه من غير الطبيعي عند إنشاء مرافق معلومات محسوبة أن يقع إهدار الموارد المالية العامة كما هو وارد عند شراء المعدات والبرمجيات دون اعتبار للحاجيات الفعلية للمستفيدين والبيئة الثقافية والاجتماعية، وحيث أن التقييم والتحليل التكنولوجي يعتبران أساس أي محاولة ناجحة لتوطين ملائم للتكنولوجيا فإننا في هذه الدراسة سنحاول تحليل جودة المواقع الإلكترونية باستخدام قيم رقمية لقيام المؤشرات الأكثر دقة التي تستعمل مدخل المستفيد. فيتم ترتيب المواقع بناء على عدد زائريه مع الإشارة للتجارب العربية الناجحة التي تصلح لأن تكون نموذجا.

2 ـ المكتبات العامة الرقمية العربية في قلب مجتمع المعلومات :

ولذلك لابد من تعريف المكتبات الرقمية، وفق منهج دراسة الحالة والإدلاء بالتجارب الناجحة (6) Success stories، وهو منهج أصبح من أساليب عمل الهيئات والمنظمات المتخصصة المعترف لها بحسن التصرف والتسيير، وهي المنهجية التي تبرز الجوانب الوضاءة للظواهر والمؤسسات المدروسة وهذا من باب درء الأوجه الفاشلة والقبيحة وإبراز الأوجه الناجحة والتعريف بها للسير على منوالها والعمل على تعميمها واعتمادها كنموذج قومي فلن نقوم بمسح شامل لكل المكتبات العامة الرقمية وإنما سنقتصر على التعرف على المكتبات الافتراضية الموجودة على شبكة الأنترنات.

جدول مواقع المكتبات العامة العربية على الانترنت

	الدولة	اسم المكتبة	عنوان الموقع
1.	الأردن	مكتبة أمان للمصادر والمراجع	http://ww.amanjordan.org/downloads/index.php
2.	الإمارات	مكتبات دبي العامة	/http://www.libraries.ae
3.	البحرين	إدارة المكتبات العامة	http://www.education.gov.bh/library/index.asp
4.	السعودية	مكتبة الملك عبد العزيز العامة	/http://www.kapl.org.sa
5.	السعودية	مكتبة الملك سعود ببريدة	http://www.kslib.com
6.	السعودية	المكتبة العامة لمحافظة الخرج	http://makatabat-alkharj.tripod.com/
7.	السعودية	مكتبة المدينة المنورة	http://madeena.org/vb/forumdisplay.php?f=59
8.	السعودية	مكتبة المسجد النبوي الشريف	/http://www.mktaba.org
9.	السعودية	مكتبة الصور مدينة الرياض	http://www.arriyadh.com/photos/index.asp?DirId=597

10.	السعودية	المكتبة المركزية الناطقة	http://www.gsse.org/dvicont-vlibrary.htm
11.	السعودية	مكتبات الملك عبد الله المتعددة الوسائط	http://www.kaml.net.sa/Searchlibraries.aspx?id=1
12.	السعودية	المكتبة العامة بمحافظة رجال ألمع	http://www.rijalamaa.gov.sa
13.	السعودية	المكتبة العامة بأملج	http://wwwalyseer.gov.sa
14.	السعودية	المكتبة العامة لظهران الجنوب	http://wwwalyaseer.gov.sa
15.	السعودية	المكتبة العامة بمحافظة القنفذة	http://wwwalyaseer.gov.sa
16.	سلطنة عمان	مكتبة الندوة العامة	http:/www.al-ndwa.net/modules.php ?name=News&file=friend&op=friendSend&sid=18
17.	العراق	المكتبة العامة لشبكة العراق الثقافية	http://wwwiraqcenter.net/vb/10797.html
18.	العراق	مكتبة الإمام أمير المؤمنين العامة	http://www.imalib.net/edara/index.php?id=10
19.	فلسطين	مكتبة بيت لحم العامة/ كلية الكتاب المقدس	http://www.bethlehembiblecollege.edu/library.htm
20.	فلسطين	مكتبة فلسطين الرقمية	http/www.palestinelibrary.ps/index.php
21.	فلسطين	مكتبة بلدية البيرة العامة	http://www.birehlibrary.org/
22.	فلسطين	المكتبة مركز بديل لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين	http://www.badil.org/arabic-web/e-library/e-library.htm
23.	فلسطين	مكتبة بلدية جنين العامة	http://www.jeninlib.ps/thanks.htm
24.	فلسطين	مكتبة بلدية غزة العامة	http://www.mogaza.org/centers-library.htm
25.	لبنان	المكتبة الوطنية ببعقلين	/http://wwwbaakleenlibrary.com
26.	مصر	مكتبة الاسكندرية	/http://www.bibalex.org
27.	مصر	مكتبة مبارك العامة	/http://www.mpl.org.eg
28.	مصر	مكتبة المعادي العامة	/http://www.maadilib.org.eg
29.	مصر	مكتبة مصر الجديدة العامة	http://www.hsds.org.eg/helio-lib.asp
30.	مصر	مكتبة المستقبل العامة	http://www.hsds.org.eg/most-lib.asp
31.	مصر	جمعية رجال أعمال اسكندرية - المكتبة	http://www.aba.org.eg/arabic/reports.htm
32.	مصر	إعلام الشباب العربي	http://www.jeunesserabe.info/mot.php3?id-motlang=ar&=65
33.	اليمن	مكتبة السعيد العامة	http://www.al-saeed.net/modules.php?Content&pa-showpage&pid=5

إن نظرة أولية لهذا الجدول تدفعنا إلى أن نلاحظ ما يلي:

– أن عدد تلك المكتبات العامة العربية الرقمية هو نسبيا دون عدد المكتبات الأخرى: دون عدد المكتبات الأكاديمية الرقمية وهو دون عدد المكتبات الوطنية الرقمية، بما يدل على أن الأولوية أعطيت إلى هذه المكتبات لدورها في رفد التعليم الجامعي وفي تكوين إطارات المستقبل وحفظ التراث، بينما بقي تطوير المكتبات العامة من خلال إتاحتها على الانترنت أو حتى مجرد التعريف بها على الشبكة مجرد استثناء.

– أن عشر دول عربية فقط لها مكتبات عامة متاحة على الإنترنت، بينما تغيب العديد من البلدان الأخرى حتى تلك التي تتوفر على شبكة مكتبات عامة أو لها موارد مالية هامة. وهو ما يعني أن التوجه إلى إتاحة المكتبات العامة على الانترنت لا يرتبط بالإمكانيات المادية أو البشرية وإنما بمدى الوعي باستراتيجية تهدف إلى نشر المعلومات. وهذا لم يعد مسموحا به اليوم حيث أن إرساء مجتمع المعلومات يتطلب تعبئة كل الموارد المتوفرة بما في ذلك بطبيعة الحال المكتبات ومرافق المعلومات.

– أن المملكة العربية السعودية ومصر تحتلان المرتبتين الأولى والثانية من حيث المكتبات العامة المتاحة على الأنترنت أو التي لها مواقع على الأنترنت، وهو ما يتلاءم مع ما لديهما من إمكانيات مختلفة المادية والبشرية. إلا أن الملفت للاهتمام أن المرتبة الثالثة تحتلها فلسطين بست مكتبات وذلك رغم الاحتلال والظروف الصعبة التي تعيشها الأراضي الفلسطينية المحتلة. ولعل إشراف البلديات على المكتبات العامة ساعد على الارتقاء بها وإتاحتها على الأنترنت.

– أن بعض المكتبات العامة العربية المتاحة على الأنترنت هي في الحقيقة مكتبات متخصصة أو حتى مكتبات خاصة، ومثال على ذلك المكتبتان العراقيتان، حيث أن المادة الدينينة تطغى على غيرها. كما يمكن أن نصنف ضمن هذا النوع من المكتبات مكتبة المدينة المنورة وكذا مكتبة بيت لحم العامة لكلية الكتاب المقدس بفلسطين.

– أن الإشراف على هذه المكتبات العامة الرقمية لا يعود دائما إلى الدولة أو إحدى مؤسساتها وإنما في بعض الأحيان إلى إحدى مؤسسات المجتمع المدني، ويتضح هذا من خلال المكتبات المشار إليها في الملاحظة السابقة يضاف إليها مكتبة جمعية رجال أعمال إسكندرية المصرية ومكتبة مركز بديل لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين بفلسطين...

– أن من بين المكتبات التي تضمنها الجدول توجد أنجح المكتبات العربية العامة الرقمية ومن بينها خاصة مكتبة الإسكندرية ومكتبة مبارك بمصر ومكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض. وهي المكتبات التي سنتوسع بالتعرض لها كنماذج على النجاح.

3 – التجارب الناجحة في المكتبات الرقمية :

ومن خلال ما تتمتع به الساحة الثقافية في البلاد العربية من معالم حضارية يبرز نجاح عدد محدود من المكتبات العامة التي يمكن أن نشير من بينها إلى بعض التجارب التي ظهرت خلال السنوات العشر الماضية، ومن بينها: مكتبة الإسكندرية ومكتبة مبارك العامة ومكتبة الملك عبد العزيز العامة والمكتبات العامة في دبي، وجميعها يمكن أن تشكل بالنسبة للمكتبات العامة الأخرى "القاطرة التي تجر العربات. وسنركز فيما يلي على ما حققته التجربتان الأولى والأخيرة:

لقد أقيمت مكتبة الإسكندرية لتكون منارة مستدامة للمعرفة (7) وصرحا حضاريا، وثقافيا، وإنجازا هندسيا استثنائيا.

وقد أقيمت أساسا بدعم دولي وبشركات أجنبية، ولتعبئة كل ذلك قدمت على أنها استمرار للمكتبة القديمة وتم بناؤها في نفس الموقع القديم الذي يعود للعهد اليوناني والروماني. وباعتبارها مكتبة عامة للبحث

العلمي، فهي قادرة على أن تساعد المنطقة بأسرها على استعادة سمعتها السابقة.

يضم مركّب مكتبة الإسكندرية: المكتبة الرئيسية، ومكتبة طه حسين، ومكتبة النشء، ومكتبة الطفل، ومكتبة الوسائط المتعددة، والموارد الإلكترونية، وأرشيف الانترنت، المخطوطات والكتب النادرة، والمتحف الأثري، ومتحف الخطوط ومتحف العلوم، والقبة السماوية، وقاعة الاستكشاف، ومركز الدراسات والبرامج الخاصة، ومركز المخطوطات والمركز القومي لتوثيق التراث الثقافي والطبيعي، ومركز الخطوط ومركز دراسات الاسكندرية والبحر المتوسط ومركز الفنون، ومركز المؤتمرات والخدمات الملحقة به.

«تسخّر مكتبة الإسكندرية طاقاتها وقدراتها لتحقيق الريادة العالمية في المجال الرقمي من خلال عدد من المشروعات الرقمية» (8)، حيث تشترك مع مكتبة الكونجرس الأمريكي في إنشاء المكتبة الرقمية العالمية (www.worddigitallibrary.org) وذلك المشروع الذي تبنته اليونسكو لإثراء الانترنت بمحتويات ومواد ثقافية وإتاحتها للجميع من خلال بوابة الكترونية لمحاولة تنمية التفاهم الدولي باحترام مساهمة الثقافات المختلفة، ويقوم المشروع على رقمنة مواد نادرة وفريدة من مكتبات ومؤسسات ثقافية من جميع أنحاء العالم وتنمية قدرات الرقمنة المكتبية في دول العالم النامي بحيث تستطيع كل الدول أن تشارك وأن تمثل نفسها في المكتبة الرقمية العالمية وحيث يستطيع كل من يملك وصلة الأنترنت وجهاز كمبيوتر الحصول على اختياره وقراءة أمهات الكتب وأصول المعرفة الإنسانية. أما مشروع المليون كتاب فيطمح ويعمل على المدى البعيد إلى تحويل جميع الكتب المنشورة إلى كتب رقمية، وهو يمثل شراكة بين مكتبة الإسكندرية والعديد من المؤسسات الدولية لإتاحة إبداع الفكر الإنساني لملايين الأشخاص في العالم بشكل مستدام. ومن المتوقع أن تتخذ مكتبة الإسكندرية موقع الصدارة في هذا المجال، وذلك من خلال قيامها بمسح ورقمنة 75.000 كتاب باللغة العربية خلال ثلاثة أعوام، ومنذ شهر أكتوبر 2003 قام المتخصصون من خلال استخدام خمس وحدات مسح ضوئي، برقمنه 10500 كتاب، كما تم تكوين قاعدة تضم بيانات وتفاصيل عن هذه الكتب، ويلعب المعهد الدولي للدراسات المعلوماتية (ISIS) المنضوي تحت إشراف المكتبة دورا محوريا في التنفيذ والقيام على تطوير هذه المشروعات.

إلا أننا نشير إلى أن مكتبة الإسكندرية ليست استثناء في إطار المكتبات الناجحة إذ نجد إلى جانبها وفي مصر بالذات مكتبة مبارك العامة وفروعها ومكتباتها المنتشرة الآن في المحافظات المصرية، حيث تتيح المكتبة خدمة البحث في الفهرس الآلي على الخط المباشر (OPAC) وهي تنمي مقتنياتها سنويا بأكثر من 16 ألف مادة ثقافية جديدة من كتب ومراجع حديثة ومواد سمعية وبصرية ووسائط متعددة، ويتم اختيار هذه المواد وفقا لسياسة معتمدة لتنمية مقتنياتها لتفي باحتياجات الأعضاء ومتطلباتهم الفعلية (9).

كما تعتبر المكتبة العامة بدبي أقدم وأول مكتبة عامة من نوعها في دولة الإمارات العربية المتحدة، وعلى امتداد أكثر من أربعين عاما شهدت هذه المكتبة نموا وتوسعا ملحوظين من حيث المباني والمجموعات والخدمات والموظفين وتقنيات وأساليب العمل، فقد تم تشييد سبع مكتبات فرعية في الأحياء السكنية لمدينة دبي (10). وبادرت بإنشاء مكتبة إلكترونية متكاملة وعصرية وذلك بتحويل أحد فروعها العاملة في منطقة جيمرا إلى مكتبة دبي الإلكترونية كمنظومة ضخمة ومصمم لها أن تحوي مواد علميّة وثقافية مختلفة متوافرة أصلا بشكل رقمي أو تم تحويلها إلى الشكل الرقمي، ويقوم على إدارتها مكتبيون مؤهلون في قسم المكتبات العامة، وهي تمكن من إتاحة الوصول إلى موارد المعلومات الإلكترونية من كتب إلكترونية، ودوريات إلكترونية، وقواعد معلومات يمكن للمستفيد البحث فيها. كما تتيح

استخدام الأنترنت مجانا لأعضاء المكتبة وبأسعار رمزية لغير الأعضاء (11).

وهذه الأمثلة تبين أنه من الممكن بالنسبة للبلدان العربية أن تخطو خطوات ملموسة نحو الارتقاء باستخدام تكنولوجيات المعلومات والاتصالات في المكتبات العامة التي تحتاج لحشد جهود وطاقات جماعية في سبيل مجتمع المعرفة. إن الإدراك العميق بأن المكتبة العامة أداة للتغيير أو أداة للتنمية الشاملة في المجتمع هو الأساس الأول للنهوض بالمكتبات العامة حسب حسام الدين (12). ولأنها تعتبر مشروعا حضاريا نظرا للعلاقة الواضحة بين المعلومات والرقي والتنمية.

إن المكتبة العامة هي الخطوة الأولى في سبيل تحقيق أمن المجتمع الفكري، بل يمكن القول بأنها من الملامح السيادية في الدولة. وفي هذا الإطار فإن المعلومات تعتبر مسألة بقاء لا مسألة رفاه إذ أن الأمن الفكري يطرح نفسه بإلحاح في هذا الوقت بالذات، وإن أمن المجتمع الفكري وسلامة نسيجه لا يتحققان إلا بتخليص هذا المجتمع من أمية الفكر التي هي أعمق وأعقد من مجرد أمية الحرف حيث أنها أمية مركبة ومعقدة.

الخاتمة:

خلصت الدراسة إلى أن العديد من المكتبات مشروعات للتطوير حتّى تكون مكتبات رقمية، غير أن هذه المكتبات في أغلبها ليست ذات كيانات مستقلة وإنما هي شبّت وترعرعت في كنف المؤسسات التابعة لها وفي أحضان المكتبة التقليدية.

كما توصّلنا من خلال هذه الدراسة إلى بعض النتائج الجزئية التي نوردها فيما يلي:

• توخي المنهجية من المسائل الضرورية عند تصميم أنظمة المكتبة الرقمية وعمارتها، ذلك أنه لا يمكن الوصول إلى المكتبة الافتراضية دون استيفاء شروط المكتبة التقليدية والتخطيط لذلك محكما تنفيذه بصفة تدريجية ومرحلية.

• وجوب الاعتناء بالعنصر البشري إذ يمثل أحد أهم وأكبر مقومات أنظمة المعلومات الحديثة.

أظهرت الدراسة بعض النجاحات الناجحة التي قطعت شوطا بعيدا في بناء بنيتها التحتية لإرساء المكتبة الرقمية، وهي تحاول حلّ المعادلة الصعبة بين الحفاظ على التراث الثقافي والمعارف المكتسبة للإنسانية عبر العصور من جانب، والآليات والأدوات الجديدة لنشر واكتساب المعرفة من جانب آخر. ولا بد من الإشارة إلى تلك التصاميم الجميلة لبعض المواقع مثل موقع المكتبة الوطنية التونسية (13). والتي رسمت بريشة إبداعية تعطي بصمة تراثية تبدو متفاعلة مع جماليات فضاءات الانترنت.

ومما يدعو حقا للتفاؤل من خلال الدراسة أن هناك جهودا حثيثة لبناء مواقع عربية إلى حدّ ما متميزة وفعالة في سبيل تثقيف الشباب العربي، وهو ما ملأ فراغا كبيرا كان يعيشه الشباب، وبالتالي وجههم نحو ثقافتنا العربية وأصبحوا خلاقين ومتميزين حيث أوجدوا مواقع خاصة لمكتبات عربية إلكترونية مجانية بجهود فردية وغير مدعومة تؤدي دور المكتبة العامة مثل موقع "المكتبة العربية" (http://www.abook.tipsClub.com) التي تمثل حسب موسوعة ويكيبيديا أكبر تجمع للكتب العربية الإلكترونية (14). ويقوم بإدارتها شباب دون العشرين سنة، وكذلك العديد من التجارب الأخرى مثل موقع «كتب» (http://www.kutub.info/library) الذي يقوم عليه شبان أيضا يسعون إلى تدعيم الثقافة واللغة العربيتين على الانترنت (15). ومن ثم كانت تجربتهم إضافة حقيقية إلى المجال المعلوماتي. لذا فمن الناحية العملية يجب على مرافق المعلومات أن تقوم بمحاولات جادة لتطوير المعطيات حسب المواصفات الحديثة والبرمجيات المتوفرة وأن تسعى في بلادنا على الأقل لحوسبة ورقمنة البيانات المتعلقة بمجالات الإنتاج الفكري المحلي. وإن التعاون مطلوب بين

المكتبات لتبادل الآراء والأفكار التقنية لتطبيق تقنيات ورزم برامجية موحدة وتحديد الإجراءات التنظيمية لتوحيد أساليب العمل المشترك بتطبيق المقاييس العلمية المعمول بها في الميدان. كالاقتناء المشترك على سبيل المثال والمعالجة والتخزين المشتركين لتسهيل خدمة الإعارة بين المكتبات فمن الواجب المساهمة في الحركات العالمية المتعلقة بنماذج التعاون المفتوح (Open Collaborative Models)، وحركة «الشراكة الإبداعية» (Creative Commons)، و«إتاحة المعرفة» (Access To Knowledge) وغيرها. لأن التعاون بهذه الأشكال الجديدة هو السبيل الوحيد للرفع من مستوى فعاليات التكاليف ومن ثم تحقيق الاستثمار الأمثل لثروة المعلومات. وهو السبيل لتعويض ما فاتنا كما أنه يشكل إحدى الضمانات الرئيسية المطلوبة لتحريك عجلة تطور المجتمع لتصبح متناسقة مع نتاج العصر ومتطلباته.

وفي العموم يجب أن نقرّ بأننا نتلمّس طريقنا الآن لإعداد البنية الأساسية في الوطن العربي رغم أننا مازلنا نحبو نحو الرشد المعلوماتي بعد أن تخطينا مرحلة المهد المعلوماتي، مطالبين بالمزيد من التطوير السريع لمواقع كثيرة تهتم بالثقافة العربية مثل بوابة العرب صخر ونسيج، شاعرين بأن الطريق مازال طويلا خاصة أن كثيرا من دول العالم المتقدم والنامي قد سبقتنا في هذا المجال. ولكن رغم وجود العديد من العقبات والتحديات مثل التمويل والتفكير والاتجاهات واللهجات العربية المختلفة فليس أمامنا إلا أن نكون متفائلين. ولهذا أصبح لزاما ذكر بعض التوصيات التي تتلخص فيما يلي:

1 - إنشاء مواقع ألكترونية للمكتبات العامة على شبكة الأنترنت في كل ولاية لحفظ تراثها وتكون مستقلة عن الادارة تسوسها جمعيات أحباء المكتبة والكتاب.

2 - توفير قاعات مجهزة بالحاسب الآلي لتدريب موظفي المكتبات في استخدام شبكة الأنترنت ورفع مستوى المهارات لأداء أعمالهم إجمالا، وبالأخص في مجالي الخدمات الأساسية للمستفيدين وتطوير أداء أعمال المكتبة بتنمية مجموعاتها.

3 - التوسّع في تجهيز المكتبات العامة بشبكات معلوماتية داخلية (أنترنت) وذلك لتسهيل تقديم الخدمات المكتبية ألكترونيا لأكبر عدد ممكن من المستفيدين.

الهوامش والاحالات

*) مستخلص لبعض استنتاجات دراسة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قمت بها مع نخبة من الخبراء العرب منهم أ. د زين عبد الهادي وأ. د ربحي مصطفى عليان هذا وقد ساعدني في الدراسة الميدانية د. محمد ضيف الله فله الشكر والامتنان

1) الاتحاد الدولي لجمعيات المكتبات / اليونسكو بيان المكتبة العامة عام 1994 بيان متاح في IFLANET : www.ifla.org/VII/s8/unesco/manif.htm

2) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إستراتيجية التوثيق والمعلومات في الوطن العربي/ إدارة التوثيق والمعلومات تونس: الألكسو، 1998- 298ص

3) Organisation de coopération et de développement économiques. Compétences en sciences, lecture et mathématiques : le cadre d'évaluation de PISA 2006.203 p. Le texte de cet ouvrage est disponible en ligne à l'adresse suivante : http://www.org/enseignement 9264O264X

4) The nations of readers- a Best Practice in Reading Promotion Book- published in Russian and English in 2006 by the Library of Congress cooperates with Pushkin Library in Russia (and the British Council)

5) Indicateur du Développement humain

مؤشر يعتمده برنامج الأمم المتحدة للتنمية لترتيب البلدان في مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية

6) IFLA libraries succes stories database Catherine Bell and Diane McDonald – The Success Case Method : A simple evaluation Tool to Identif Critical Success Factors and Program Impact : http://aes.asn.au/conferences/2006/papers/063%20Cathrine%20Bell.pdf

7) شعار المكتبة من ثلاثة عناصر : الفنار، قرص الشمس، مياه البحر.

8) إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية . جريدة الأهرام 20/ 04/ 2007

9) موريس أبو السعد. نفس المصدر

10) بلدية دبي، قسم المكتبات / المكتبات العامة في دبي- دبي : البلدية 2004، ص 13-14

11) عماد أبو عيد، مساهمة المكتبات العامة بدبي في إرساء مجتمع المعلومات والمعرفة. أعمال مؤتمر المكتبات العربية في مطلع الألفية الثالثة : بنى وتقنيات وكفاءات متطورة / الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات- الشارقة : جامعة الشارقة، -2002 2 مج

12) مصطفى حسام الدين . نفس المصدر

13) http://www.bibliothèque.nat.tn/

14) المكتبة العربية من أهم التجارب التي يقوم عليها ثلة من شباب تتراوح أعمارهم بين 14 و 20، انطلقت في منتصف 2006 وتضم أكثر من 5000 كتاب عربي في مختلف المجالات وعدد الكتب فيها في زيادة نوعية وعددية مستمرة، كما أسس شاب آخر في عام 2005 موقع مكتبة عربية توفر الكتب الانجليزية على الانترنت (http://www.TipsClub.com)

15) صحفية الاقتصادية الألكترونيّة مكتبة – 17/ 09/ 2008 – العدد 5455.

المكتبة الرّقميّة في المكتبة الوطنيّة

محمد رؤوف بلحسن

I ـ المداخــل :

شبكة الأنترنات حلبة تدور على أرضها سباقات كبيرة للفوز بسبق المعرفة وللتعريف بالهوية والغلبة تؤول بطبيعة الحال للأقوى. ومن يختلف عن هذه الحلبة فهو مجهول في عالم المعرفة الرحب وجاهل أيضا.

مجيء الأنترنات إذن أتاح للناس جميعا في مختلف أصقاع الدنيا الوصول إلى المعلومة كيفما كانت هذه المعلومة وفي وقت قصير جدا. مزية الانترنات أنها تختزن المعرفة وتختزل مسافات إيصالها إلى الناس لتقدمها لطالبها أينما وجد في هذا الكون إذ يكفي هذا الطالب أن يضغط على فأرة الحاسوب ويدخل الكلمات المفاتيح في بحثه حتى تنهال عليه المقالات وعناوين الكتب المراد استخدامها مصادر في بحوثه ولعل مهنيّي الكتاب والوثيقة عموما هم أكثر الناس استخداما لهذه الشبكة ولهم دور كبير يلعبونه في التعامل معها والاستفادة مما تقدمه من إمكانيات لحفظ الوثائق ونشرها على نطاق أوسع.

فبفضل الشبكة العنكبوتية إذن تفجرت المحليات وأمّحت حدود الأقاليم وصار العالم كما يذكر «ماكلوهان» قرية صغيرة متصلة ببعضها البعض تجمع بين أطرافها المختلفة شبكة الانترنات وتسمح لهذه الأطراف بأن تتبادل فيما بينها ثقافاتها وحضاراتها وفي ذلك إثراء للحضارة الإنسانية.

وأدرك المشتغلون في حقل المكتبات ومراكز التوثيق أن هذا الانفجار المعلوماتي يسمح لهم أكثر من أن يسمح لغيرهم ـ من ضمن ما يسمح به ـ بتصوير أرصدة مكتباتهم على أوعية رقمية ومحامل ألكترونية أولا للاستعاضة بهذه الأوعية الجديدة عن التعامل مع الوثائق الورقية الأصلية وثانيا للتعريف بهذه الأرصدة على مدى ما امتدت شبكة الانترنات وتولدت طبقا لذلك مفاهيم متعددة للمكتبة الألكترونية والمكتبة المتشابكة والمكتبة المتكاملة (المركبة ومكتبة بلا جدران الخ...) (1).

ومنذ أن أعلنت المكتبة الرقمية عن قدومها إلى عالم المعرفة تعددت تعريفاتها وذهب الناس مذاهب شتى في ذلك وتعددت لديهم مفاهيمها وان كانت المكتبة الرقمية واحدة.

II ـ ما معنى مكتبة رقمية؟ وما جدواها في مكتبة وطنية؟

أ ـ مفهوم المكتبة الرقمية وخصوصيات النص الألكتروني :

وإن كنا نروم في هذه المداخلة الحديث عن مكتبة رقمية في صلب مكتبة وطنية فإنه كان لابدّ لنا أن نأتي أولا على بعض التعريفات التي تداولها المختصون

للمكتبة الرقمية في استحالة الإحاطة بمفهوم مازال ناشئا في خطواتها الأولى ومازال متغيرا بتقدم التكنولوجيا في هذا المجال :

لقد عرفت «كريستين بورغمان» (Christine Borgman) (2) المكتبة الرقمية على أنها «عبارة عن مجموعة من المصادر الألكترونية والتسهيلات الفنية المرتبطة بإنتاج وبحث المعلومات واستخدامها».

ويشير الباحثان الروسيان (سوكولوفو ولياباف) (3) إلى أن «المكتبة الرقمية هي نظام موزع لديه المقدرة على اختزان الوثائق الألكترونية المختلفة وإتاحتها بفاعلية للمستفيد النهائي عبر شبكة اتصالات».

وتعرف موسوعة «ويكيبيديا» (Wikipédia) (4) المكتبة الرقمية (على الأنترنات أو الألكترونية) بأنها مجموعة كتابات مرقمنة يمكن الوصول إليها عن بعد (بالخصوص بواسطة أنترنات) وبدلا من أن نتحدث في هذه الحالة عن محامل يجدر بنا أن نتحدث عن معايير (format) وعن ترميز (للفيديو والصوت) وكذلك عن صنف الرقمنة (في شكل صورة أو في شكل نصوص) ...»

ويرى الدكتور محمود عبد الكريم الجندي (5) أن المكتبة الرقمية «نوع من المكتبات التي تعتمد مجموعاتها اعتمادا مطلقا على الوسائط الألكترونية المتعددة الأشكال مثل المغنطات والليزرات وشبكات المعلومات وذلك لتخزين واسترجاع المعلومات التي تهم قطاع المستفيدين والتي أنشئت من أجلها المكتبة ...».

ويعتبر أحمد الحافظ إبراهيم (6) أن المكتبة الرقمية هي تلك التي توفر وصولا سهلا وعن بعد لمواردها وخدماتها للمستفيدين في أي موقع وزمان كان».

ويرى (CLIR) Council of library and information resource (7) «أن المكتبات الرقمية مؤسسات توفّر الموارد المعلوماتية التي تشمل الكادر المتخصص لاختيار وبناء المجموعات الرقمية ومعالجتها وتوزيعها وحفظها وضمان استمراريتها وانسيابها وتوفيرها بطريقة سهلة واقتصادية لجمهور من المستفيدين ...»

وثمة تعريفات أخرى كثيرة للمكتبة الرقمية قد لا يتسع لها هذا المجال وقد تناولها الباحثون بالدرس والتدقيق ومازالوا يفعلون ذلك مادامت الظاهرة في مراحلها الأولى وقد تشهد تطورا كبيرا بتطور وسائل الاتصال وتطور تقنياتها.

ومهما يكن من أمر فإنه يمكن القول إن المكتبة الرقمية بما لها من خصوصيات ومزايا في تداول المعرفة بما تتيحه من ربح للوقت وبتكلفتها الأقل مقارنة بتكلفة المكتبة التقليدية وبما تتيحه من وسائل ألكترونية لنقل المعلومة «واختزان كم هائل من مصادر المعلومات وتنوّع أشكال وسائط المعلومات المتداولة وإدارة مصادر المعلومات المتاحة بشكل موزع والاعتماد على المشاركة واقتسام مصادر المعلومات واستخدام تقنيات استرجاع ذكية وتقديم خدمات معلومات لا تخضع لحدود المكان والزمان ... » (8).

بالرغم من كل هذه المزايا فإن المكتبة الرقمية تظل في شكلها العام شبيهة بالمكتبة التقليدية بما تشترك فيه معها بكونها خزان وثائق موضوعة على ذمة القراء والباحثين والمستفيدين عموما وان كانت هذه الوثائق على أوعية ألكترونية. أمّا فضلها الأساسي الذي تمتاز به على المكتبة فيتمثل في قدرتها على إفادة الباحث بالمعلومة أينما وجد على هذه الأرض وإتاحتها لعدد كبير من الناس في آن واحد وبذلك يمكن القول إنها تختصر المسافات بين المكتبة والباحث وتيسّر التعامل مع المعلومة عن بعد وتمكن من تحميلها وطبعها والاستفادة منها وقد تزداد هذه الأدوار أهمية عندما نعلم أن أجهزة القراءة الألكترونية بدأت في الانتشار في العالم آخرها القارئ الألكتروني الجديد الذي أطلقته أخيرا شركة سوني في «لاس فقاس» والذي يتراوح سعره بين 300 و500 دولار ...».

وللنص الألكتروني خصوصيات عدّة يتميز بها عن النص الورقي وقد جعلته أكثر قبولا لدى الناس وقد اختصر «حبيب عبد الربّ سروري» (9) هذه الخصوصيات في أربع : الخصوصية الأولى هو أن النص الألكتروني نص مفتوح (وليس مغلقا مثل الكتاب

الورقي الذي يبدأ بالصفحة الأولى وينتهي بالأخيرة) بفضل التوصيلات النصية (hypertext links) الموضوعة أسفل كل كلمة تسمح (عند نقرها بالانتقال إلى موضوع آخر بنفس النص أو إلى أي نص آخر في أي كمبيوتر في أطراف الكرة الأرضية، تسمح هذه التوصيلات أيضا بالانتقال الآلي إلى قواميس لشرح مدلولات كلمات النص أو لتقديم أي معلومات عنها.

والخاصية الثانية هي أن النص الألكتروني نص هوائي يمكن الوصول إليه من أي جهاز كمبيوتر، تلفون نقال، جهاز ألعاب ألكترونية، جهاز القارئ الألكتروني الجديد) ومن أي مكان (المكتب الشارع المرحاض الشاطئ...) ثمة استعارة تقليدية أنيقة تصوّر هذه الخصوصية بشكل صائب (cloud computing) أو الحوسبة السحابية إذا جاز القول.

هو نص ذري الفهرسة (تتمّ فهرسة كل كلماته وليس فصوله فقط مثل الكتاب الورقي) بفضل ما يسمى «موتورات» البحث الكونية مثل «قوقل» الذي يحوي حاليا 25 مليار نص ومليار صورة موزّعة على نصف مليون كمبيوتر في 22 موقعا جغرافيا أمينا مثير منها تتخندق قرب المفاعل النووية...».

هو نص سهل التحديث (يتطلب ذلك ثوانيَ فقط أحيانا بعكس الكتاب الورقي الذي يلزم إعادة طبعه) سهل النسخ والنقل والإرسال سهل الحمل ليس له أية مضار بيئية أو أعباء لوجستيكية ثقيلة مثل الكتاب الورقي.

هو أرقى وأثرى الوسائط الثقافية التي عرفها الإنسان منذ فجر التاريخ «تتعانق فيه كل الوسائط معا من صوت وصورة وفيديو في وعاء تفاعلي جميل الإخراج متعدد الأبعاد عبقري المحتوى...».

هذه إذن المكتبة الرقمية وهذه خصائصها وامتيازاتها عن المكتبة التقليدية وهذا هو النص الألكتروني وما يوفر من مزايا وتسهيلات جديدة في الوصول إلى الوثيقة لم تكن متاحة من قبل مع إجراءات المكتبة التقليدية.

ولهذه الفضائل وغيرها أقبلت كبرى مكتبات العالم وصغراه أيضا على إنشاء المكتبات الرقمية والتخطيط لإدارتها وتنظيمها، ومن هذه المكتبات ذكرا لا حصرا مكتبة الكنغرس والمكتبة الوطنية الفرنسية والمكتبة البريطانية ومكتبة المتوسط (Medlib) ومشروع المكتبة الأوروبية والعديد من المكتبات الأخرى ناهيك أن كوريا الجنوبية مثلا هي الآن بصدد تشييد صرح كبير بالقرب من مكتبتها الوطنية التقليدية لتخصيصه للمكتبة الرقمية التي رقمنت إلى حدّ الآن ما يناهز 12 مليون وثيقة... الخ.

لقد شكل ظهور المكتبات الرقمية إذن «منعرجا مهمّا في نشر المعرفة والوصول إليها» (10) لذلك تهافتت عليها المكتبات ومراكز التوثيق وخصوصا المكتبات الوطنية مثلما سبقت الإشارة إلى ذلك، وكان على المكتبة الوطنية التونسية أن لا تتخلف عن الركب وأن تدلي بدلوها هي الأخرى لتأخذ منه نصيبها. لاعتبار أنه من لا يستخدم التكنولوجيات الحديثة في مجال تداول المعرفة والتصرف فيها يعتبر جاهلا.

لكن قبل أن تستعرض الخطوات التي قطعت في هذا المجال والوقوف على المرحلة التي وصلت إليها المكتبة إلى حدّ الآن في موضوع انضمامها إلى عالم المعرفة الألكترونية المرتكز أساسا على استخدام الاعلامية في التصرف في الرصد والتعريف بها على نطاق أوسع كان علينا ونحن سنتعرض إلى تجربة المكتبة الرقمية في المكتبة الوطنية أن نطرح جملة من الأسئلة الخصوصية المتعلقة بمسألة الرقمنة في مكتبة وطنية عموما.

ب ـ الرقمنة في مكتبة وطنية :

للرقمنة في مكتبة وطنية بصفة عامة خصوصياتها وأسبابها والأسئلة التالية قد تقودنا بعد ذلك إلى الاجابة عن هذه الخصوصيات وهذه الأسباب. لماذا نرقمن في مكتبة وطنية؟ وماذا نرقمن بالذات؟ ما الغاية من ذلك؟ هل المكتبة الرقمية متممة للمكتبة التقليدية أم هي قد تستقل عنها في أحد الأيام؟ هل سيصبح بإمكان المكتبة

الرقمية أن تغنينا عن خدمات المكتبة التقليدية؟ وعديد الأسئلة الأخرى؟ ...

لا شك في أنّ المكتبة الرقمية في مكتبة وطنية هي وليدة رحم المكتبة التقليدية إذ يتشكل رصيدها في معظمه من نفس رصيد المكتبة التقليدية محوّلا من وعاء ورقي إلى وعاء ألكتروني تضاف إليه الوثائق الرقمية التي ولدت في أصلها ألكترونيا كالكتب التي صنعت أصلا في معامل الأوعية الألكترونية والتي يمكن تحويلها على ورق بمجرد طبعها أو الصحف والمخطوطات التي وضعت مباشرة على الشبكة العنكبوتية. وللإجابة عن الأسئلة التي طرحنا آنفا نقول إننا نرقمن في مكتبة وطنية لغايتين أساسيتين:

أولا المحافظة على الوثائق الورقية (كتب مخطوطات دوريات) من التلف لكثرة استعمالها واستنساخها والاستعاضة عنها بالوعاء الألكتروني الذي هو أيسر استعمالا من قبل الباحثين.

أما الغاية الثانية من الرقمنة في مكتبة وطنية فتتمثل في إتاحة الرصيد المكتوب لجمهور أكبر والتعريف بالتراث الفكري خصوصا إذا عرفنا أن الوظيفة الأساسية لمكتبة وطنية هي جمع هذا التراث وحفظه وإتاحته للناس.

ماذا نرقمن أساسا؟

نرقمن الوثائق المختلفة التي بدأت تبلى وتوشك أن تتلاشى إذا ما استمر استعمالها من قبل المستفيدين، وإلى جانب هذه الأولوية هناك أولوية أخرى تتمثل في رقمنة تراثنا الوطني. أما ما لا نرقمنه فهو ذلك التراث الذي مازال خاضعا لحقوق التأليف ولم يسقط بعد في الملك العمومي وذلك تفاديا لما قد يحدث من إشكاليات مع أصحابه.

والمكتبة الرقمية في صلب مكتبة وطنية هي متممة إن لم نقل متماهيّة مع المكتبة التقليدية وهي في نفس الوقت مستقلة عنها بما هي أوعية ألكترونية غير ورقية وبما يسمح البحث فيها من إمكانيات جبارة توفرها للدارسين وتيسّر عليهم الرجوع إلى المعلومة وقد كنا أشرنا فيما سبق إلى خصوصيات هذه المكتبة ومزاياها.

وفي كلّ الحالات يمكن القول إن الصنفين من المكتبات متممّان لبعضيهما البعض إذ لا يمكن لمكتبة رقمية أن توجد في صلب مكتبة وطنية ما لم تكن هناك الوثائق الورقية للمكتبة التقليدية التي يتم تحويلها إلى أوعية ألكترونية. ولكن هذا الوضع لا ينفي إمكانية أن تشيد مكتبة رقمية مستقلة بذاتها خارج هذا الاطار.

III ـ المكتبة الوطنية : من مكتبة تقليدية إلى مكتبة رقمية

أ ـ الخطوات الأولى :

على غرار ماهو جار به العمل في مختلف المكتبات الوطنية في أرجاء العالم بادرت المكتبة الوطنية التونسية مذ دخلت رحابها الإعلامية أي منذ سنة 1998 إلى البرمجة لإنشاء مكتبة رقمية وكان الوازع الأساسي الذي يحدو المشروع دخول عالم المعرفة من بابه الكبير والتعريف بمخزون الدّار الثمين من كتب ودوريات ومخطوطات وغير ذلك من الوثائق الأخرى...

وتمثلت البدايات في محاولة تحويل منتقيات من الكتب والدوريات والمخطوطات على أقراص ليزرية فأنتجت المكتبة آنذاك أي في مطلع هذا القرن أقراصا ممغنطة لبعض الكتب ككتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» للطاهر الحداد و«جولة حول حانات البحر الأبيض المتوسط» لعلي الدوعاجي وكتاب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» لخير الدين. وأنتجت أقراصا أخرى تمثلت في نماذج من مخطوطات القرآن وفي «مجلة العالم الأدبي» لزين العابدين السنوسي وكذلك الصفحة الأولى من جريدة الشباب لبيرم التونسي، وشرع منذ سنة 2001 في تنفيذ تحويل الفهارس الورقية إلى فهارس ألكترونية في حضيرة عمل مازالت أشغالها جارية.

ثم لمّا انتهت أشغال البناية الجديدة وانتقل معظم رصيدها

إليه شرعت المكتبة في إنجاز الموقع الألكتروني ومن ثمة البوابة المعلوماتية وقد انطلقت هذه البوابة في حدود 2006 في مرحلة تجريبية داخل قاعات المطالعة ومنذ شهر أفريل سنة 2008 وضعت على شبكة أنترنات وهي بوابة تقدم معلومات بيبليوغرافية ضافية عن مختلف أرصدة المكتبة وعنوان الموقع : www.bibliothèque.nat.tn

ولقد حظي هذا الموقع منذ شهر أفريل 2008 بزيارة مستعملي الأنترنات من مختلف أنحاء العالم نذكر في طليعتهم الولايات المتحدة التي زار منها موقع المكتبة 4846 ومن تونس 1175 ومن تركيا 158 ومن فرنسا 123 ويمكن القول إن عدد زوّار الموقع بلغ ما يقارب 7000 زائر من 56 بلدا في العالم.

ب ـ المكتبة الرقمية في المكتبة الوطنية :

على إثر تركيز موقع الواب والبوابة المعلوماتية شرعت المكتبة في التفكير فعليا في موضوع المكتبة الرقمية التي ستكون قادرة في قادم الأيام على إسداء خدمات متنوعة للبحث داخل البلاد وخارجها والتعريف بمخزون المكتبة الوطنية الثري والمتنوع والذي يتضمّن وثائق نادرة مطبوعة كانت أم مخطوطة كتبا كانت أم دوريات أم خرائط وبطاقات بريدية وإلى غير ذلك من الوثائق الأخرى.

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك فيما تقدم من هذه المداخلة فإن الخطوات الأولى كانت محاولات متفرقة ومعزولة تمثلت في إنتاج بعض الأقراص الممغنطة. ولكن لمّا تمّ تركيز المنظومة الإعلامية ووضعت البوابة على شبكة الأنترنات بات ضروريا على المكتبة أن تخطط لهذه المكتبة الرقمية الجديدة.

تقول النشرة التي تعرف بالمكتبة الوطنية الجديدة «... إن المكتبة الوطنية في إطارها الجديد تواكب التكنولوجيات الحديثة في مجال المعلومات... والأخذ بالتقنية الحديثة وما يواكبها من برامج جديدة وإجراءات فنية تتماشى واستخدام التقنية في إدارة المعلومات فأصبحت المكتبة الألكترونية والرقمية جزءا لا يتجزأ من الخدمات التي تقدمها المكتبة الوطنية التونسية لمستخدمي البوابة المعلوماتية من روّاد ومستفيدين داخل جدرانها أو عبر شبكة الانترنات...» وتضيف هذه المطوية قائلة: «...تسمح المكتبة الرقمية بالوصول إلى مواضيع مختلفة مستوحاة من مجالات الامتياز التي تغطيها أرصدة المكتبة كما توفّر إمكانية اختيار عناوين من رصيد الدوريات التونسية الثمينة والنادرة العلمية منها والهزلية والجهوية، نماذج من رصيد المخطوطات كالمصاحف ونماذج من الكتب النادرة ...» (11).

يتضح إذن من القول المتقدم أن المكتبة الرقمية أضحت عضوا أساسيا وضروريا في هيكل الخدمات التي تقدمها المكتبة الوطنية للباحثين والقراء. وانطلاقا من ذلك أقبلت إدارة المكتبة على إنجاز اللبنة الأولى وأعطيت الأولوية للرصيد التونسي مخطوطا ومطبوعا (كتبا ودوريات). ويمكن القول منذ البدء إنّ الانطلاقة لم تبن على برنامج واستراتيجية مسطرة مسبقا بل كان الشغل الشاغل يتمثل في أن تبدأ المكتبة في انتظار أن تتضح ملامح البرنامج.

IV ـ ماذا رقمنت المكتبة الوطنية إلى حدّ الآن؟ وكيف كان ذلك؟ وممّا يتشكل الرصيد الأولي للمكتبة الرقمية الوليدة؟

دعنا نبدأ بالاجابة عن السؤال الثاني ـ لنعود بعد ذلك إلى السؤال الأول والثاني ـ ورشتان مجهزتان بأجهزة الرقمنة تعملان على التصوير الرقمي للوثائق لكن بأية طريقة؟

الأولى: بدأت بتحويل ما تم تصويره على مصغرات فيلمية (الميكروفيلم والميكروفيش) إلى وثائق رقمية وهو رصيد كانت المكتبة أقدمت على تصويره من قبل للاستعاضة به عن مناولة الوثائق الأصلية التي تحرص المكتبة على صيانتها وحفظها حفظا يليق بقيمتها وسنتعرض لتفاصيل ذلك لاحقا. وإلى جانب هذه العملية تسهم هذه الورشة في مجهود الرقمنة المباشرة

للوثائق التي يتم اختيارها في صلب المصالح المختصة (المخطوطات/ المناولة/ الدوريات الخ) وتتم رقمنتها لتصبح على أوعية ألكترونية.

أما الورشة الثانية فقد وقع تخصيصها أصلا لرقمنة ما تم الاتفاق عليه من قبل مختلف مصالح المكتبة لرقمنته مباشرة في شكل صورة مبدئيا إلى أن تتسنى الرقمنة في شكل نصوص يكون البحث فيها ممكنا.

ماذا ترقمن الورشات؟

ترقمن الورشتان الوثائق التي تخضع للمقاييس التالية:

أ ـ الوثائق التي لم تعد لها حقوق تأليف أي التي سقطت في الملك العام.

ب ـ الوثائق المهددة أكثر من غيرها بالتلاشي والضياع.

ج ـ المقياس الثالث يتمثل في الأولية المعطاة للرصيد التونسي باعتبار أن المكتبة الوطنية هي ذاكرة البلاد.

تهدف عملية الرقمنة في مجملها فيما تهدف إليه إلى تكوين مكتبة رقمية للوثائق المتفق على رقمنتها توضع على ذمة زائري موقع المكتبة الوطنية، ولا يمكن أن نمرّ هنا دون أن نشير إلى أن رصيد المكتبة الرقمية يتشكل أيضا مما ترقمنه المكتبة ضمن خدماتها اليومية لروادها إذ كلما رقمنت مخطوطا أو دورية أو كتابا لأحد القراء إلاّ واحتفظت بنظير من تلك الوثائق وضمته إلى رصيد المكتبة الرقمية. وبالإضافة إلى ذلك يمكن القول إن هذا الرصيد سيتعزز بما ستقدم عليه المكتبة الوطنية لاحقا من اشتراكات في بعض المجالات العلمية العربية المتاحة على شبكة الأنترنات.

هذه هي إجمالا بدايات الرقمنة في المكتبة الوطنية لكن ماذا حققنا إلى الآن؟

1 ـ على صعيد الكتب:

لقد رقمنت المكتبة في خطوة أولى عددا قليلا من الكتب القديمة لا يتجاوز 12 عنوانا رقمنة تامة في شكل صورة وهي متاحة في رصيد المكتبة الرقمية نورد منها ذكرا لاحصرا «الدر المنظوم في كيفية كتب الرسوم لعلي النيفر التونسي وهو كتاب صادر سنة 1298 هـ. وكتاب النزهة الخيرية في موافقة الشهور الأعاجم للشهور القمرية لحسن لازغلي وكتاب «جولة حول حانات البحر الأبيض المتوسط» لعلي الدوعاجي و«كنز فنون الضباط» لأحمد المورالي، كتاب صدر سنة 1272 هـ والمؤنس في أخبار أفريقيا وتونس» لابن أبي دينار وبعض الكتب الأخرى.

ويمكن القول إجمالا إن عدد الصفحات المرقمنة قد بلغ 2500 صفحة والعمل مستمر في هذا المجال.

2 ـ على صعيد المخطوطات:

تمثلت رقمنة المخطوطات في البداية في نماذج من مصاحف القرآن الكريم اقتصرت على صفحاتها الأولى ثم تحويل مجموعة حسن حسني عبد الوهاب من مخطوطات مصوّرة على مصغرات فيلمية إلى مخطوطات مرقمنة. وتشير الأرقام الواردة في النشرية الداخلية للمكتبة أنه تمّت رقمنة ما يقارب 700 مجلد من المخطوطات أي ما يعادل 180000 صفحة.

3 ـ على صعيد الدوريات:

يمكن القول إن قطاع الدوريات قد استأثر بالنصيب الأوفر من عمل الرقمنة في المكتبة الوطنية إذ رقمنت المكتبة من رصيد الدوريات العام 61 عنوانا من الصحافة الفرنكفونية الصادرة بتونس في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين رقمنة تامة في شكل صورة، ومن هذه الجرائد والمجلات المنجزة يمكن أن نقول إن المكتبة رقمنت مثلا 16480 صفحة من «المجلة التونسية» لمعهد قرطاج (La revue Tunisienne de linstitut de Carthage) وهي مجلة صدرت على مدى ما يزيد عن الخمسين سنة من منتصف ثمانينات القرن التاسع عشر إلى حدود منتصف القرن العشرين وفيها نقرأ مواضيع مهمّة عن تونس في شتى مجالات المعرفة. كما رقمنت

المكتبة كل رصيد مجلة «تونس المصوّرة» «la Tunisie illustrée» التي صدرت في العشرية الثانية من القرن العشرين وقد بلغ عدد صفحاتها 3726 صفحة، والمجلتان المذكورتان متاحتان للعموم ضمن بوابة المكتبة.

ويمكن القول إجمالا إن عدد صفحات ما رقمنت المكتبة في الـ 61 عنوانا من الصحافة الفرنكفونية قد بلغ +38524 صفحة وهي صحف قد صدرت كلها بتونس وإن كانت لغتها فرنسية. أمّا فيما يتعلق بالصحافة العربية فقد اختارت المكتبة في إطار رقمنة الدوريات أن تبدأ بالصحافة الهزلية التي صدرت في تونس في النصف الأول من القرن الماضي. وقد صورت المكتبة من هذه الجرائد 22 عنوانا وهي تقريبا جملة الصحافة الهزلية وبلغ عدد الصفحات المرقمنة +7053 صفحة، نذكر من هذه الجرائد «السردوك» و«الانشراح» و«جحا» و«النمس» و«أبو قشة» و«القنفود» و«الزهو» الخ... ونذكّر بأن كل هذه الصحف متاحة على البوابة ضمن رصيد المكتبة الرقمية لمن أراد أن يطلع عليها.

فيما تقدم إذن يكمن مجهود المكتبة الوطنية في تنفيذ إنجاز مكتبتها الرقمية في هذه المراحل الأولى التي يمكن أن نقول إنها مراحل محتشمة كان الغرض منها بالأساس دخول عالم الرقمنة لينتظم المسار لاحقا في برنامج طموح تنكب المكتبة الوطنية حاليا على التفكير في إنجازه وتوفير العدة والعتاد وتهيئة الأسباب لنجاحه، خاصة وأن رصيدها يستحق أن يوضع في مكتبة رقمية قادرة على السفر به عبر منعرجات شبكة الأنترنات أينما امتدّت خيوطها.

المصادر والمراجع

1) انظر : Bawden D, Rawland I: digital library assumptions and, concepts

وعماد عيسى صالح محمد : المكتبات الرقمية : الأسس النظرية والتطبيقات العلمية. ذكر المصدرين محمد ابراهيم حسن في مقالة : تأثير البيئة الرقمية على أخصائي المعلومات التحديات والتطلعات: «العربية 3000 عدد 1 مارس 2006.

2) نفس المصدر

3) نفس المصدر

4) تعريف موسوعة wikipédia مقال كتبته Lucile Donnat ديسمبر 2006.

5) بناء وتنمية مجموعات المكتبات الرقمية: المقومات الاجراءات آفاق مستقبلية: مقال صادر في كتاب وقائع ندوة الاتحاد العربي للمكتبات المنعقدة والتي انتظمت في الشارقة نوفمبر 2001.

6) نحو مكتبة رقمية في دولة الإمارات العربية المتحدة، محاضرة ألقاها في نفس إطار المصدر السابق.

7) نفس المصدر

8) محمد ابراهيم بن محمد : تأثير البيئة الرقمية على اخصائي المعلومات: مصدر مذكور سابقا

9) جريدة أخبار الأدب الصادرة يوم 5 أكتوبر 2008.

10) Bibliothèques et documents numériques: concepts composantes techniques et enjeux. Alain Jacquesson et Alexis Rivier

11) نشرية داخلية تعرّف بالمكتبة الوطنية الجديدة وبخدماتها.

دور المكتبة في اقتصاد المعرفة :
مكتبة معهد العالم العربي نموذجا

الطيب ولد العروسي

إننا ندرك ونلمس التطورات الجارية في ميدان المكتبات والتطورات الحاصلة، ونعرف بأن هذا التطور يتم في مجال «اقتصاد المعرفة» الذي هو فرع جديد من فروع العلوم الاقتصادية، لأنه يقوم «على فهم جديد أكثر عمقا لدور المعرفة ورأس المال البشري في تطور الاقتصاد وتقدم المجتمع» وأن المعرفة قد رافقت الإنسان منذ أن تفتّح وعيه، وتطورت معه، مارة بمراحل مختلفة، حتى وصلت إلى ماهي عليه، بحيث أصبحت تؤثر على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وعلى نمط حياة الإنسان عموما، وذلك بفضل الثورة العلمية والتكنولوجية. ونحن نعرف أن الربع الأخير من القرن العشرين قد مر بأكبر عملية تغيير في حياة الإنسان، خاصة مع العولمة التي راحت تدق أبواب الناس كلها في مختلف بقاع العالم، ولذا فهذه الثورة أصبحت واقعا يجب التعامل معه، لأنها قد تدخلك في عالم المعرفة والتطور الحاصل والمشهود فيها، وبالتالي إما أن نكون شاهدين سلبيين أو فاعلين، خاصة في مجال ثورة الاتصالات والإنترنت.

إن هذه الثورة قد أصبحت تؤثر في تعليم الإنسان وتربيته وتدريبه، وتجعل من عامل السرعة هو أحد المقاييس المعتمدة أو المطرقة التي تمكننا من التأقلم مع التغيير الذي هو واحد من أهمّ العوامل الاقتصادية الإنتاجية. ولذا فالسؤال الذي يطرح نفسه بحدّه هو: أين نحن؟ أين مكتباتنا التي من الواجب أن تعرف هذا التطور العاصف للتكنولوجيا؟ وأين نحن من هذا الاتساع الهائل لنطاق المعرفة ودورها؟ فمعظم المحللين يرون بأن «مجتمعاتنا لم تدخل بعد (اقتصاد المعرفة)»، بحكم أننا لا نزال في موقع المستهلك غير الناضج أو المتلقي السلبي لا المنتج، أو المساهم في بلورة ثمار وإنجازات الثورة «العلمية التكنولوجية في كل مراحلها» والذي هو المسلك الوحيد لنجاحنا في مواجهة تحديات العصر ولاحتلال موقع لائق بين الأمم.

ومن هنا أريد أن أتناول دور مكتبة معهد العالم العربي الموجودة في باريس والتي تعرف تطورا هائلا في ميدان اقتصاد وتطور المعرفة، وأننا في نفس الوقت منشغلون بما يحدث في العالم العربي، لأننا نريد أن نتعاون في بناء مكتبة عصرية تساهم في التعريف بالثقافة والحضارة العربيتين على أكبر نطاق ممكن في العالم.

لقد فرض معهد العالم العربي نفسه على الساحة الثقافية الباريسية والأوروبية والعربية، بعد أن تجاوز عدد زواره المليون شخصا في السنة، حيث تلعب مكتبته دورا

هاما، إذ يؤمها ما بين الخمسمائة والسبعمائة مستفيد. والحال أنها أصبحت فضاء للقاء الثقافي والفكري يؤمها كثير من المترددين من مختلف الشرائح الاجتماعية والسياسية، ما يجعل منها مرجعا لا غنى عنه حول العالم العربي في كل من باريس وأوروبا وفي العالم العربي نفسه، فهي تهتم بالحضارة العربية إبداعا وكتابة وبحثا في جميع ميادين المعرفة.

إجمالا، يعد معهد العالم العربي مؤسسة ذات نفع عام، خاضعة للقانون الفرنسي، تشرف عليها فرنسا والدول العربية. بدأت كمشروع سنة 1980 وفتحت أبوابها للجمهور سنة 1987، من أجل التعريف بالثقافة والحضارة العربية لدى الجمهور الفرنسي والأوروبي الواسع بواسطة أنشطة ثقافية مختلفة.

فرضت مكتبة المعهد نفسها رويدا رويدا بين المكتبات الباريسية، بحكم اختصاصها وموسوعيتها حول العالم العربي. إذ يشير سبر الآراء الذي أجرته عدة طالبات مختصات في علم المكتبات والتوثيق في شهر جوان 2006، أنّ المترددين عليها من الأصناف التالية: أكثر من 60 في المائة باحثين، يعدّون شهادات عليا في باريس وفي أوروبا أو في العالم العربي، وهناك من يأتي من آسيا وأمريكا أيضا، كما يأتي تردد الصحفيين على المكتبة في المرتبة الثانية لاستقاء معلوماتهم، ومتابعة الحدث من خلال ما توفره لهم المكتبة من مجلات وجرائد وكتب، ثم هناك فئة السياح وعدد كبير من الفضوليين يأتون لزيارة المعهد ثم يكتشفون المكتبة فيصبحون روادا لها.

يلتقي في المكتبة كما نرى الباحثون، وتلاميذ المدارس، والثانويات، والطلبة والصحفيون، وأصحاب المهن الحرة، بخلاف السياح الذين يأتون للاطلاع على وثائق وكتب تخص بلدان عربية قد زاروها أو يرغبون في زيارتها، دون أن ننسى الفنانين الذين يبحثون عن صور للوحات زيتية من خلال الكتب المتوفرة في المكتبة، بالإضافة إلى آخرين يدفعهم حب المعرفة والاطلاع، فيأتون لزيارة المعهد بغرض البحث عن الجديد بين دفات الكتب. علاوة على ذلك كله، تجد من الزوار من تدفعه الأحداث التي يعيشها العالم العربي الإسلامي، وأيضا المواضيع المطروحة في الساحة الفرنسية حوله، إلى المجيء للبحث عن ضالته وإرضاء غايته. وبالتالي تجعل هذه العوامل متفرقة أو مجتمعة من المعهد فضاء للبحث والمطالعة واللقاء.

تعمل المكتبة على إيصال رسالة المعهد بواسطة رصيدها المتنوع: كتب، مجلات، جرائد... هذا على الرغم من أن المكتبة تهتم أكثر بالعالم المعاصر، كونها تحتوي على أعمال نافذة من أمهات الكتب العربية، تستجيب من دون شك إلى عينة كبيرة من طلبات جمهورها، وذلك بلغات مختلفة، وتمثل اللغة العربية نصف رصيد المكتبة، ويتوزع الباقي بين اللغات التالية: الفرنسية، الإنجليزية، الإسبانية، والإيطالية...

ومما لا مراء فيه أن المكتبة تؤدي دورا اجتماعيا وثقافيا مهما، إذ يلتقي فيها الباحث المتخصص مع الجمهور الواسع من مختلف الجنسيات والثقافات والآفاق والشرائح الاجتماعية. ذلك أنها تخصص فضاء يرصد متابعة الأحداث عبر الصحف والجرائد التي تسمح بالإطلاع على الحدث باللغتين الفرنسية والعربية، إذ تعتبر مصدرا هاما للأخبار وهو مما يميزها عن غيرها.

يبلغ رصيد المكتبة ثمانية وسبعين ألف كتاب يضاف إليه قسم الدوريات الذي يحتوي على ألف وخمسمائة مجلّةو منها خمسمائة عنوان مجلة حية، تمثل مختلف الإنتاج الفكري والثقافي العربي.

والجدير بالذكر أننا لا نتابع كل ما يصدر باللّغتين العربية واللاتينية في أوروبا والعالم العربي فحسب، بل حتى في آسيا وأمريكا. وذلك بحكم تواجد الجاليات العربية المثقفة الموجودة في بقاع العالم التي راحت تنتج وتواصل معركة الابداع والكتابة والتحقيق ونشر الجرائد والمجلات. الأمر الذي يميز رصيد المكتبة ويضيف إليه بالإضافة إلى إنجاز عدد مهم من بنوك المعطيات المتنوعة المضمون، مثل الفهارس الآلية، التي من خلالها أو عن طريقها يصل المستفيد إلى المعلومات التي يبحث عنها، إذ نجد بنك المعلومات «جريد» الذي يحتوي على أكثر من أربعة وثلاثين ألف مقالة مفهرسة

في جميع ميادين المعرفة بلغات مختلفة: العربية، الفرنسية الانجليزية، الإيطالية الاسبانية، وهي تتابع الأحداث التي لم تتطرق إليها الكتب بعد، أما بنك معطيات «أعلام» فهو يقدم قائمة تتجاوز الاثنتي عشر ألف مدخل أسماء المؤلفين وتراجمهم، لذا فإن هذه القاعدة هي تقريبا الفريدة من نوعها في العالم العربي، نظرا لكونها تحدد جنسية الكاتب وتعطينا عنوان مؤلفاته وإنجازاته الفكرية والعلمية، كما نجد في هذه القاعدة تراجم لكتاب عرب أو مسلمين قدماء بجانب الكتاب المعاصرين عربا كانوا أو كتبوا عن العالم العربي. بالإضافة إلى بنك معطيات الناشرين العرب أو المهتمين بالعالم العربي، وكذلك بنك معطيات ذاكرة المعهد التي تحصي كل الأنشطة التي نظمها المعهد منذ نشأته حتى اليوم.

وقد أنجزنا في هذا الإطار كتابا يحتوي على «دليل بالأنشطة الثقافية التي قدمها المعهد منذ عشرين سنة»، يتبين من خلاله إحصاء ما يفوق ثلاثة آلاف نشاط ثقافي، أي ما يعادل الثلاثمائة نشاط سنويا. وهو رقم قياسي يرجع لا محالة إلى وجود المعهد في باريس أهم عاصمة ثقافية في العالم، مما يفرض علينا أن نكون في مستوى ما يقدم أو أحسن. وبفضل ذلك أصبح المعهد يعج بأنشطة ثقافية كثيرة من جهة، ومن جهة أخرى أثبت المعهد ومكتبته للعالم بأن للعالم العربي الإسلامي ثقافة وفكرا جديرين بأن نقدمهما إلى الآخر.

والأهم من ذلك أن تعدد هذه الأنشطة الثقافية تعبير ملموس يجسد موضوعيا ما يمكله العالم العربي من ثوابت قارة، وله ما يقوله بحق دون خجل أو حياء. وإذ أقول هذا الكلام فلأن هناك بعض المؤسسات كانت من ورائها دول حاولت أن تعمل صرحا ثقافيا مماثلا ولم تنجح، لأنها لم تجد ما تقدمه للآخر، وما قدمته لم يكن عليه أي إقبال. فهل يفهم المسؤولون العرب هذه الفكرة كي يحافظوا على هذا الإنجاز المهم؟ هذا سؤال نطرحه لأن بعض الدول العربية لا تعرف كم يغبطها العديد من الدول على هذا الإنجاز الحضاري المهمّ.

وبالعودة إلى آليات عمل المكتبة، فهي تشتغل بمنهجية البحث الحر والاتصال المباشر بالكتاب أو الوثيقة، هذا عدا الكتب النادرة المحفوظة في المخزن والجذاذات الورقية أو الفيلمية ومناهج تدريس اللغة العربية - التي تسلم بعد إملاء استمارة -. ومما لاشك فيه أن الاتصال المباشر بالكتاب يسهل ويقرب الثقافة العربية التي قد تبدو بعيدة المنال بحكم وضعها الجغرافي، إذ نلاحظ يوميا ازدياد الجمهور الذي يأتي من المكتبات الفرنسية الأخرى، بل وحتى من المكتبة الوطنية الفرنسية للقيام بأبحاثه في المكتبة لقلة التعقيدات ولسهولة الوصول إلى المراجع المتوفرة دون انتظار طويل. ناهيك أن المكتبة لا تفرض على روادها أية شروط مادية، مما يساعد كثيرا من الباحثين العرب الذين يأتون من مختلف الدول العربية لإثراء أبحاثهم، حيث يأتي في طليعة هؤلاء كثير من الباحثين من مختلف جامعات المغرب العربي.

والواقع إن الاحتياجات للمعلومات عن العالم العربي كما نعلم، تزداد في العالم الغربي يوما بعد آخر، والمكتبة بمختلف أرصدتها تحاول أن تستجيب إلى مختلف الطلبات التي تصلها عن طريق الرسائل، والهاتف، والفاكس والأنترنيت من جميع مناطق فرنسا، بل ومن العالم. وهكذا تمكن وسائط الاتصال الحديثة المتوفرة في المكتبة من التواصل والتجاوب مع جمهور آخر، أي ذلك الجمهور الذي يستفيد عن بعد، ولم يزر المعهد أو مكتبته، ما يجعل المعهد مرجعا أساسيا في فرنسا ودول أخرى.

ويسعدنا بهذه المناسبة أن نعلن أن المكتبة ستوسع أكثر آفاق البحث إلى جمهورها حيث ستضع كل بنوك معطياتها على الأنترنيت خلال الأشهر القادمة. وذلك عبر نظام «فلورا» الذي نعمل على نقل كل بنوك معطياتنا عليه، حتى نواكب الثورة المعلوماتية المعاصرة التي اختزلت المسافات، فتضع المعلومات بين أيدي جميع المستفيدين والراغبين. هذا دون أن ننسى أن دور المكتبات ومراكز المعلومات والتوثيق يظل في نظرنا وسيظل قائما لكونها تصون وتحافظ وتنظم الكتاب.

أما فيما يخص الرقمنة، فأود أن أتكلّم عن مجموعة

من التجارب التي مررنا بها أو نحن بصددها. كانت التجربة الأولى مع منظمة اليونسكو سنة 1999، حينما أراد قسم الاتصال الدولي بهذه المنظمة وضع أنتولوجيا الأدب العربي، وذلك باختيار مائة عنوان أساسي، يكون خاليا من الحقوق، رحبنا بالمشروع وأثريناه بتوفيرنا لأربعين عنوانا، كما اتصلنا بمكتبة اللغات الشرقية في باريس لكي يوفروا العناوين الباقية، أي من جهتنا نحن حضرنا المادة، ورسمنا المشروع. والجدير بالذكر أن مسؤول القسم الدولي بالمنظمة كان يفكر بأن عمر الأدب العربي لا يتعدى الخمسة قرون، لأنه نظرا إلى ذلك حسب المقاييس الأوروبية، لكنه فهم بعد مناقشات بأن عمر الأدب العربي يفوق ذلك بكثير، ولذلك فاختيار 100 عنوان شيء بسيط في حقه، لكننا اتفقنا على عمل أنتولوجيا ثانية، وكنت شخصيا جد حذرا من الرقمنة نظرا للحرف العربي، غير أن مصاحب المسؤول وهو رجل مختص في المعلوماتية كان يرى بأن الحل بسيط، وسيرينا «بأنه يستطيع رقمنة النصوص بالعربية» وكان الغرض من هذا العمل هو توزيعه على أكبر مؤسسات عالمية ممكنة، فكان ذلك بمثابة الحافز لنا. ولكن بعد أن حولنا العمل من النظري إلى الملموس، بدا المهندس عاجزا إذ وجدنا أخطاء لا تحصى ولا تعد، وكرر المهندس تجربته لكنه فشل مجددا، ثم ترك المشروع ولا زلنا ننتظر اتصالا من اليونسكو مرة أخرى لمواصلة المشروع بكثير من الجدية.

أما التجربة الثانية، فقد جهزنا فضاء قسم الصحافة بالمكتبة بحاسوب يمكّن المستفيدين من أن يقرؤوا الصحف ووفرنا لهم طابعة للاستعانة بها إذا أرادوا طبع مقال ما، فترك المستفيدون هذا الجهاز وواصلوا إقبالهم على الجرائد والمجلات الورقية، وراحوا يواصلون تصوير ما يريدون على آلة كلاسيكية. ولأنه مع الأيام والسنوات والأشهر سيأتي قراء آخرون فقد فكرنا في إثراء هذا الفضاء مستقبلا بجهاز أو جهازين آخرين، ولكن حتى الآن لا زال المستفيدون من هذا الفضاء الذي يجلب أناسا كثيرين من مختلف الشرائح الاجتماعية يقرؤون ماهو متوفر بالطريقة الكلاسيكية.

وبخصوص التجربة الثالثة، فنحن نعمل على رقمنة أكثر من 500 كتاب و 10 مجلات مع مكتبة الإسكندرية- بالاعتماد على تصويره لا غير، وتجربتنا هذه هي حيز التنفيذ. كما قمنا بتجربة مماثلة مع المكتبة الوطنية الفرنسية لرقمنة حوالي 450 عنوانا، إذ يبدو أنه في مجال اللغة الفرنسية واللغات اللاتينية، هناك تغليب على معالجة النصوص، رغم أن من يقومون بهذا العمل يرون بأن نسبة الأغلاط تتراوح من 5 إلى 10 في المائة، فكم تكون نسبة الأغلاط في اللغة العربية في حالة ما إذا عالجنا نصا بطريقة حقيقية؟.

إننا أيضا نفكر في إبرام اتفاقية تعاون مع بعض المكتبات العربية، مثل المكتبة الوطنية التونسية، حيث ندرس آليات تفعيل رقمنة مجموعة من الدوريات.

كما وقعنا اتفاقية مع المكتبة الوطنية السعودية، مكتبة الملك عبد العزيز، ولا زلنا لم نشرع في وضعها حيز التنفيذ.

كما أنّ هذه الجهود هي محاولة جادة وواعية ومتأنية وموضوعية لحث الباحثين، لنشر وتشجيع المطالعة لأكبر شريحة اجتماعية وعلى رأسها القراءة الجماهرية، والرقمنة التي هي عنوان هذا اللقاء الاستشرافي لما يكون عليه وضع الكتاب ومشكلة القراءة في السنوات القادمة.

لاشك أن مداخلتي هذه هي مداخلة منطلقة من تجربة معاشة موجودة خارج الفضاء العربي، أي في فضاء حيث التطور التقني -وخاصة في مجال الرقمنة- يعرف مجهودات كبيرة وتضافر جهود كبيرة، أقصد في باريس التي تعتبر عاصمة الثقافة العالمية، وبث الكتاب والنشر والإبداع والحرية.

فهذه تجربتنا عرضناها بكل صراحة، لأنني لا أريد البقاء أو التوقف عند الجانب النظري المملوء بالمغالطات، مثل تلك التي تقول بأننا تغلبنا على معالجة النصوص العربية ورقمنتها بكل بساطة، وإمكانية إيصالها للقارئ حيث كان.

وأنا هنا في الحقيقة، وانطلاقا من تجربتنا البسيطة،

أرى أن هذه الفكرة لا تفرق بين الواقع والخيالي، لأنه إن كان النص الغربي يعرف أغلاطا في الرقمنة كما قلت سابقا، فكم يكون عدد الأغلاط في النصوص العربية؟ كما أحذر من أولئك الذين يخلطون بين تصوير النص -كما تفعل بعض المكتبات، والتي تدعي أنها تغلّبت على مشكل الرقمنة، وأصبح لديها رصيد مهمّ من الكتب المرقمنة-، وبين الواقع الملموس، فإن أغلب ماهو متوفر حتى اليوم، ماهو إلا تصوير وليس رقمنة حقيقية.

ولعل ما يقوم به المجمع الثقافي في أبوظبي لخير دليل على عدم التغلب التام على رقمنة النص العربي، فهذا المجمع أتى بمجموعة من المهنيين والباحثين وأنشأوا «الوراق» الذي أدخل فيه حتى الآن أكثر من 600 عنوان، ولكن أعيدت رقمنتها فقط، ولاشك أن هناك أغلاطا كثيرة، أي حتى المشرفين عليه يعلنون عن ذلك، لكون أن من يرقن لاشك أنه يخطئ ويسهى. لكن هذه الطريقة ستحتاج إلى محققين لقراءة هذه النصوص ومراجعتها، ومن المعروف أن هذه الكتب هي في أغلبها من أمهات الكتب العربية.

أنا أشجع على الرقمنة، لأنها توصل الكتابة إلى أماكن موغلة وبعيدة، كما توفر إمكانية القراءة والاطلاع والبحث، غير أن الواقع الحقيقي لهذه الرقمنة في العالم العربي يدعو لنكون حذرين وأن لا نتكلم على الرقمنة وكأننا تغلبنا عليها.

أخاف أن تصل النصوص المرقمنة للقارئ والباحث والمطلع مبتورة وناقصة، لذا فهي لا تساعد في بناء مشاريع صلبة بقدر ما تغالط وتضل خاصة القارئ العام، الذي يجب أن نوصل إليه نصوصا سليمة وخالية من الأغلاط.

فلا شك أن القراءة عبر النصوص المرقمنة يوفر عناء التنقل، وشخصيا أحلم وأعمل كل ما في جهدي لتحقيقه، غير أنني أخطو في هذا الموضوع بخطى حذرة، لأنني كما ذكرت آنفا، وانطلاقا من التجارب التي خضناها لا نشجع على الوصول أفرادا، بل على العالم العربي أن يأخذ الموضوع بجدية وأن تعمل بعض مؤسساته معا لتحقيق مشروع طموح. ولازلت من المؤمنين بمستقبل الكتاب، وأن الكتاب المرقمن سيكون إضافة هامة، وأنني لست من دعاة رقمنة كل شيء دون مراعاة حقوق المؤلف واحترام قانون التأليف.

تفتح مكتبة معهد العالم العربي أبوابها للتعاون مع مؤسسات أخرى لتشجيع رقمنة حقيقية، وللقيام بكل ما يمكن لإيصال الكتاب لأكبر شريحة اجتماعية من الناس، وذلك للمساهمة في القضاء على الأمية الحقيقية والمجازية.

إن دور المكتبات الأساسي هو حثّ كل الناس للقراءة والمطالعة، أما المجازي، فأقصد به الذين يجرون وراء ما أسميه «بالموضة» حيث يطبّل أهلها لكل ما يعتبرونه جديدا دون التأني والتحقق من الأمور قبل أن نضع لها إشهارا مغلطا.

هناك تجارب في الرقمنة لاشك في ذلك، لكن الحذر مطلوب من الذين يقومون بذلك على حساب المحتوى الفكري والإبداعي الذي تزخر به الكتب، فعلينا أن لا نرقمن حتى نتدخل في تغليط كبير للناس، علينا أن نتأكد ونستعين بلسانيين ونحويين وتقنيين ومكتبيين، حتى تتضافر الجهود من أجل رقمنة صحيحة، أي أن تتوفر الإمكانية المادية والبشرية والعلمية حتى نبني مكتبة عربية مرقمنة في الواقع الملموس، وليس في مخيلتنا فقط، أي نبقى نردد الجانب النظري ونتصوره على أنه حقيقة.

أنا سعيد جدا من ناحية أخرى، بأن أعرف أن هناك دولا عربية بنت وتبني مكتبات في كل بلدية وقرية، لأن هذا هو العمل الأساسي الذي يجب أن تقوم به الدول العربية في كل مكان، فهو يشجع على القضاء على الأمية وينشر بل يعمم فعل القراءة. وبشكل متواز يجب مواصلة التفكير في العمل على رقمنة سليمة وصحيحة حتى تضاف إلى هذه المكتبات لكي تضاعف فعل القراءة وتقضي رويدا رويدا على الأمية.

التّجربة الرّقميّة للفنّان التّشكيليّ نور الدين الهاني: ميل إلى التّفرّد أم نزوع إلى الكونيّة؟

فنون تشكيلية



رمزي التركي

مقدمـــة :

بعد غياب استمر قرابة خمس سنوات عن قاعات العرض والأروقة الفنية، يعود الفنان التونسي نور الدين الهاني (1) لعرض أعماله وتقديمها لجمهور الفن. وكما يبدو فإن هذا التقديم اكتسى حلة جديدة تتخلص من كل التقاليد الثقافية للعرض حيث غادر هذا الفنان فضاءات العرض التقليدية كالمعارض السنوية والأروقة والتظاهرات التشكيلية... ليتجه إلى التكنولوجيات التواصلية الرقمية والفضاء المتسع فيعرض أعماله على مدونته الرقمية الخاصة (2). ولكن تغيير شكل العرض ليس مسألة عرضية، بل يجرّ وراءه منعرجا في المحتوى المعروض ومنعرجا جديدا في بنية الرؤية الجمالية لهذه التجربة وما يرافقها من فكر تنظيري... وهو ما نسعى، من خلال هذه المحاولة، تقصّي أهم خطوطه ومداراته.

لقد رأى الهاني في هذه الفضاءات المستحدثة «نزعة الفنان للاستقلالية عن كل الفضاءات التقليدية للعرض كما تقلص اهتمامه بالقيمة المادية للأثر وذلك باختياره



الفنّان التشكيلي نور الدين الهاني

إنتاج أعمال لا تتصل مباشرة بأية حركة سابقة» (3). في حين يبقى غياب هذا الفنان عن المعارض ناتجا أيضا عن أزمة شاملة أضحت تحيط بالفن المعاصر والراهن لتمتد عالميا. ويمكن اعتبار الطبيعة التسويقية التي أطرت الفنون التشكيلية في الآونة الأخيرة العنصر الممهّد لهذه الأزمة، ليصبح البيع والشراء محدّدين للقيمة الثقافية، كما مثّلت الفئة الميسورة العنصر الأكثر تهافتا على اقتناء اللوحات، وذلك تبعا للاعتبارات التأثيثية التي يناشدها المستهلك والتي تجرّد العمل من كل قضاياه التشكيلية. إلاّ أنّ هذه الصورة حظيت بالدعم الذي يوفره الفنانون لها والذين أثبتوا تحولهم إلى حرَفيّين منتجين يتقاضون أجورهم على بضاعتهم من خلال اللجوء إلى التسويق بأسلوب سلعي.

وبقدر ما يمثل سوق الفن في العالم تطورا شرعيا لانفتاح تاريخ التطبيقات الإنتاجية في مجال الفنون على اقتصاد السوق وآليات الترويج وتعامله مع التقنيات الدعائية... إلا أنه جعل من القيمة المصرفية للعمل الفني (وهي نتاج تراكم ميتا-جمالي تحددها سياسات الترويج في العواصم الكبرى لسوق الفن نيويرك -لندن -باريس-طوكيو...) تحجب قيمته الفنية إن لم تعمل على استبعادها. وذلك هو عين الخطر خصوصا عندما تصبح مسيرة الفنان بحسب ميولات السوق المتعاقبة والتي يسميها عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو المانستريم Mainstream... أمام هذا التراكم المادي للقيم البديلة (قيم السوق والمبادلات والمزايدات) يركن الفنان إلى وضعية العرض اللامادي...

ويؤكد هذا الفنان في مقاله الموجود على مدونته تحت عنوان الفنون التشكيلية في رحاب التكنولوجيا «لقد أثرت الفجوة القائمة بين المبدع والمتلقي على استمرارية البعض في الإنتاج إلى حد أن كثيرا من الفنانين أصبحوا «يبرمجون» ممارستهم تبعا لبعض المناسبات السنوية مثل المعرض السنوي لاتحاد الفنانين التشكيلين التونسيين أو حسب دعوة للمشاركة بعمل أو عملين في معرض جماعي

بأحد الأروقة الخاصة. وفي عديد الحالات ترتهن المشاركة في العرض لفرصة المردود المالي. فغالبا ما يقع التعامل مع القيمة الجمالية للأثر من منظور القيمة المالية، لذلك فإن لجنة الشراءات التابعة لوزارة الثقافة والمحافظة على التراث تتعامل مع الأثر الفني باعتباره منتوجا حددت قيمته مثلما حددت مقاييسه وتقنياته وخاماته وصنّف على غرار ما تصنف أي بضاعة تخزن وتحفظ (4). إن هذه العلاقة المتذبذبة بين الفنان والمتلقي في تونس أو في العالم أدركت بالفعل صورة تؤكد التواجد في ساحة متأزمة يخلو فيها العمل الفني من كل مثالية تأصيلية، في غياب التأصيل المرجعي والتنظيري والاستئناس بالموقف النقدي.

لقد أضحى المتلقي غير مدرك للقيمة الفنية، التي كانت في السائد تتمحور وفق أسس ومناهج تعبيرية



بوسة خال

هذه الصور مقتطعة من تكوينة Patchwork عرضها الفنان نور الدين الهاني (6) على مدونته الرقمية في 3 أوت 2007 وهي تعود إلى أعمال تصويرية تم إنجازها بين سنة 2000 و2005 دهن مائي على قماش قياسات مختلفة من 65-55 صم 165-130 صم 150-150 صم



مقطع من التكوينة المربعاتية «بتشوارك» إعادة تأويل رقمي لرسم زيتي

متفق عليها، تتمثل عادة في مقاربات بين خصوصيات تشكيلية ومفاهيم ذهنية تتشكل وفق أسس جماعية إن لم نقل أكاديمية. كذلك إنّ لغة الفنون التشكيلية تحوّلت إزاء هذا الكمّ الهائل من الإنتاج الفني إلى لغة يصعب فهمها وتحديدها، تتشكل إزاء فردية الفنان. فلم نعد قادرين على تصنيف العمل ضمن سياق موحد إنما أصبح كل شخص قادرا على قيادة فنه.

هكذا غادر الفنان نور الدين الهاني نظام العرض والتعامل مع الأشكال والتقنيات الملموسة والواقعية ليتجه إلى الفضاء والآليات الافتراضية الرقمية مداعبا قيمة التواصل الشامل التي تسخرها الإنترنت فينسج خلف شاشة الحاسوب أعماله التي احتكت بجمالية الرقمي. لقد حول الهاني الألوان والأشكال والمفاهيم إلى شحن رقمية تكتسي جمالية لا تنفصل عن الأساليب

والهواجس التي عاشها هذا الفنان في تجاربه السابقة بل هي استمرار في بحث يحتك أكثر فأكثر باجتماعية هذا الفنان بقدر ماهي تطوير لها.

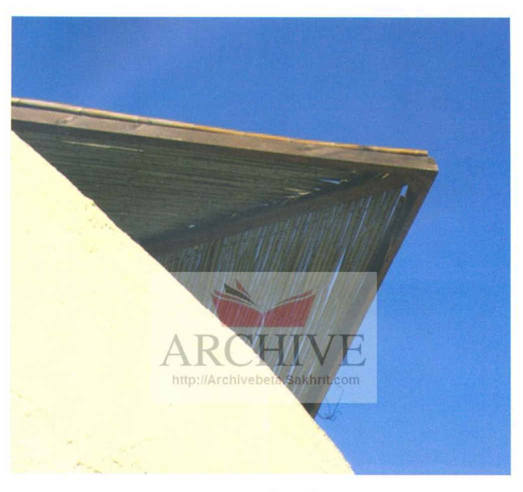
المدوّنة الرّقميّة وسيلة لاستعادة مفهوم العرض:

لقد ساهمت التطورات التكنولوجية الحديثة منذ اختراع شبكة الأنترنت في تحديد وسيط جديد للاتصال ليمتد على نطاق متسع يمكننا القول بأنه عالمي. إنّ هذه الثورة المعلوماتية والاتصالية ساهمت في بناء الجسور بين الأشخاص والمجتمعات، كما قامت ببناء ربط نسيجي يتخطى الإطار المكاني والزماني، واستدعت في نفس الوقت جمهورها العريض الذي صاغ من هذا الاختراع حاجةً استهلاكية يومية. لقد استقطبت هذه العوامل نظر الفنانين الذين دفعتهم الحاجة لترويج أعمالهم من خلال اعتماد هذا الوسيط معتبرين إياه المثال الجديد للعرض.

كما أتاحت الإنترنت لكل شخص خلق فضاء خاص به فأصبح كل فنان قادرا على الاحتفاظ بمدونة «ينشر» عليها أعماله وهواجسه بمجرد ملء نماذج وضغط أزرار، فأتاح هذا المجال خصائص مكملة من خدمات أخرى للربط بين المدونين، إضافة إلى الخاصية الأهم وهي التعليقات التي تحقق التفاعل بين المدونين والقراء. وبينما يخصص بعض المدونين مدوناتهم للكتابة في



تفاعل ـ عمل رقمي



في مأمن عن الأنظار ـ فوتوغرافيا رقمية

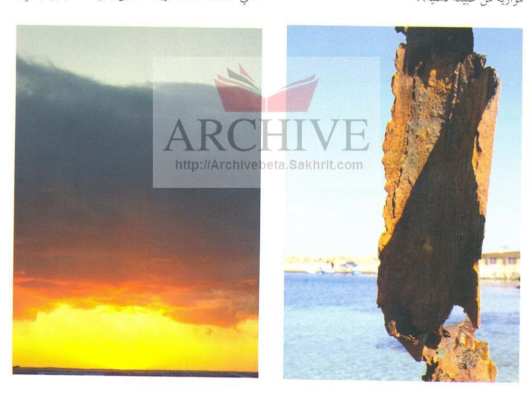
موضوع معين أو عرض صور، فقد أتاحت هذه الآلية للبعض تناول مواضيع شتى في مدوناتهم في إطار احترام المواد المطروحة في المدوّنات ومراعاة الآداب العامة. وذلك وفق مبادئ في المتناول تخلص المستخدم من التعقيدات التقنية المرتبطة بهذا الوسيط (l'ergonomie de communication) وعلى ذلك ساهمت هذه البرمجيات في إعادة توليد فضاءٍ لُحموي بين الفنانين.

وعلى ضوء نموذجية العرض على الواب والانفتاح على المحيط العالمي تنطلق التوجهات الفكرية في أعمال الفنان التونسي نور الدين الهاني ناشدة جمالية التواصل المعلوماتي ليؤثث لنا هذا الفنان على شبكة

الإنترنت مدونته الرقمية التي ظهرت وفق تقسيمه لبعض أعماله التصويرية ورسومه محاولا بذلك بعث فضاء جديد للعرض مستقلا عن الفضاءات التقليدية. وكما يبدو فإن التخلي عن الفضاءات الاعتيادية للعرض بات هاجسا تشكيليا لهذا الفنان الذي امتد فعله على الشبكة ليؤثث مدونته من خلال تجاربه الرقمية أو صور لأعماله التصويرية مرفقة بنصوصه وتعليقات الزوار إذ الفنان لم يعد يكتفي بفعل التشكيل الفني للعمل بل أصبح يحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى فعل الكتابة والنظر الفكري. (عندما تصاحب الصورة الفنية صورة أخرى موازية من طبيعة ذهنية).

يقسم لنا الهاني هذه المدونة إلى أروقة فنية تتوالد فيها الأعمال لتجتاح الفضاء الرقمي. ووفق هذا التوالد تظهر أروقة العرض لتستحضر الأعمال. لقد امتازت طريقة عرض العمل الفني في القسم الأول (5) من المدونة ببنية جديدة حيث تخلص الهاني من الطبيعة الاعتيادية للعرض على شبكة الإنترنت والتي غالبا ما كانت مع العديد من الفنانين اعتباطية تتأسس وفق معطيات ترويجية للعمل الفني منطلقها ميل الفنانين إلى الفوز السريع بالشهرة.

لقد تجاوز نور الدين الهاني الغايات المصلحية التي عادة ما كانت تربط الفنانين بطريقة العرض والتي



لا تقترب!8
فوتوغرافيا رقمية

سأنظر إلى القمر!
فوتوغرافيا رقمية



وكانت الرياح عاتية!!
فوتوغرافيا رقمية

مثلت مجملا غايات مالية أو إشهارية. فالهاني يرى أنه «في عديد الحالات ترتهن المشاركة في العرض لفرصة المردود المالي. فغالبا ما يقع التعامل مع القيمة الجمالية للأثر من منظور القيمة المالية». وعلى هذا، فإن هذا الفنان وكما يبدو، يقاطع فكرة التوجه لغايات مالية ويعتمد فكرا جديدا يخلو من كل المصالح الذاتية والتي تقوم أساسا على اعتبارات مادية.

ويضعنا هذا الفنان وفق نظام يتسم بعقلنة الطبيعة المفترضة لهذا الفضاء والتي تستغني عن كل ضروب الشهرة والغرور التي باتت ميثاق الفنون التشكيلية المعاصرة، فيفتح لنا نوافذ الفن للفن متخلصا بذلك من كل الأسس المادية والتسويقية أو الإشهارية لأعماله ليؤسس لنا صورة أخرى تقوم على استعادة فكرة العرض وصياغتها وفق فكر جماعي يناشد تبادل الآراء

والمقترحات. وبنفس القدر ألا يسترجع ذلك أدبيات الجمالية المثالية التي ظهرت في القرن الثامن عشر عندما دشن الألماني إيمانوال كانط أسس الحداثة الجمالية وهو القائل في نقد ملكة الحكم (critique de la faculté de juger) الفن غائية مستمرة دون نهاية منفعية ومتعة خالصة منزهة عن المصلحة (plaisir désintéressé)؟

لقد اعتمد هذا الفنان عملية تجميع الصور الرقمية لأعماله وخلق تكوينة من المربعات «باتشوارك» في الصفحات الأولى من مدونته ليؤسس لنا صورة جديدة تستعيد أفكارا اعتمدها فنانو الواقعية الجديدة و«البوب أرت» وفق منظور استعادة الصورة المستهلكة في الحياة اليومية. وبذلك فإن هذا الفنان يصوغ شكلا جديدا لصور رقمية فيستحضره في عمل رقمي جديد. وهكذا تتحول صور أعماله التصويرية إلى مفردات رقمية فأصبحت الوحدة بذلك جزءًا والكل عملا رقميا يمتد وفق نسيجية ترابطية مؤسسة لشكل جديد. لقد أسس هذا الفنان بأسلوبه صورة جديدة تتخطى الفروض العرضية لتتحول التكوينة وفق قناعاته إلى جمالية خاصة تتحدى رتابة التعامل مع العمل الفني.

إنّ عملية العرض التي اعتمدها نور الدين الهاني باتت إحدى المحطات التي يتمسك بها هذا الفنان لدورها في إثراء القيمة التشكيلية للعمل. وبذلك فقد سعى هذا الفنان إلى توجيه مفهوم الإبداع على مستوى العرض، باعتبار أنّ عملية العرض التقليدية أضحت متذبذبة ومتأزمة، فلم تعد بذلك من مساعي الفنان بل من اختيارات صاحب الرواق ومندوب المعرض، كما أنّ المتلقي نفسه لا يجد غاياته وفق هذه الأبعاد. ومن ثمة فإن دائرة بحث الفنان قد تركزت على شحنة ابتكارية في عملية العرض نفسها. ماهي المتطلبات التي استحثها هذا التحول في طريقة العرض؟

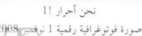
لم يقتصر الهاني على التفاعل مع فكرة العرض على الإنترنت بل أبدى هذا الفنان تفاعلا وانسجاما مع البنى الرقمية، ويبقى هذا التفاعل امتدادا لمفهوم متفرد وأسس لم تغب البتة عن أعماله التصويرية أو لوحاته المحسوسة. لقد امتد الفعل الذهني مع هذا الفنان ليحولنا إلى نظام جمالي جديد لا ينفصل عن الطابع التشكيلي إنما ظهرت كينونته خلف معطيات رقمية. كأننا بإزاء صورة ذهنية وفكرية ترافق الصورة



الرسائل الصغيرة
صورة فوتوغرافية رقمية



نحن أحرار !1



صورة فوتوغرافية رقمية 1 نوفمبر 2008

الفنية المرقمنة وهو ما يفسح المجال أمام ظهور نوع من الخطاب المرافق للعمل.

فلم تعد الإنترنت مجرّد شبكة عالمية لتبادل المعلومات، ولم تعد أداة للعرض فحسب، بل تحوّلت أيضا إلى فضاء مؤثر على الفكر الإجتماعي الذي بدوره يلتحم بميولات هذا الفنان. وعليه، تنصهر هذه المعطيات فتحوّل هذا التقاطع إلى مواقف يتبناها هذا الفنان في أعماله أو توجهاته. لقد مثّل هذا الوضع صورة قائمة على ضرورة معاصرة الهاني للظروف الإجتماعية المحيطة به، تبعا للفروض التي جعلت من المجتمعات تسير باتجاه اكتشاف آليات معاصرة لواقع معاصر، يتطلّب روحاً جديدة. وهكذا فإن جدلية البقاء بين فن قائم على تلك الصورة النبيلة للفن الذي تدعمه الحقيقة الماديــة والتواجد خلف فنّ افتراضي تدعمه شبكة الواب، تفترض تواجده في أنظمة معاصرة.



أحبها!

صورة فوتوغرافية رقمية 23 نوفمبر 2008



التواصل مع الرقمي من العرض إلى استحضار النمط :

في نفس السياق تتخلل مدونة الهاني صورة أخرى تبرز مدى تشبع هذا الفنان بتكنولوجيا المعالجة الأنفوغرافية وذلك في تأسيس عمله الفني، إذ لم يكن هذا التفاعل بين الفنان والبنى الرقمية قائما على العرض إنما استمر هاجسه لاستدعاء أعماله الفنية السابقة. فكانت المدونة حاملا للأعمال الرقمية التي تقوم على تصوير لوحاته المحسوسة، فضلا عن الأعمال المبنية بفضل برمجيات الرسم والتصميم، أو كذلك الأعمال الفوتوغرافية الرقمية في مرتبة ثالثة.

فقد ساهم الهاني في تشكيل حركة عميقة داخل مدونته، لا تقتصر فقط على استعادة الأعمال التصويرية وفق نظام جديد إنما يحدد لنا فرضية اعتماد الواب كحامل لبعض أعماله الرقمية. كما عبّر هذا الفنان عن كل ما يخالج ذهنه وذلك باعتماد ممكنات الحاسوب

والمؤثرات المتطورة متخلصا من إلزامات التعبير التشكيلي للفن التقليدي ومبادئ الأصالة الفنية والصبغة التقليدية للأدوات. وهكذا استأنس هذا الفنان بالرقمي متمسكا بمفاهيمه التشكيلية والخصائص التشكيلية الواقعية فأضحت أعماله تمثلا لمقومات لوحته الماضية، بقدر ما جاءت تجاوزا لها.

ويبدو أن التحام هذا الفنان بجمالية النظام الإلكتروني ساهم في تطوير تشكيل أعماله كما لم يفقده هذا الوسيط امكانية الإبداع والخلق في مجمل أعماله الفنية والتي تتحد فيها الرؤية الجمالية والذهنية بالقدرات التقنية العالية للبرمجيات الأنفوغرافية المتنوعة التي يتعامل معها. فرغم أن الهاني تحمس للفن الرقمي وبذل الوقت والجهد اللازمين من أجل خلق لوحاته إلا أنه يستعيد مفاهيم وهواجس لازمته في أعماله هذه، فأضحت أشكاله المستوحاة في أعماله التصويرية تستعيد حضورها من خلال الصور الفوتوغرافية الرقمية وألوانه لتتحول إلى مقاربات رقمية. فإن كنا في لوحاته بمادة الأكريليك التي عرضها الهاني في مستهل السنوات التسعينات (وتحديدا في معرض «الزهور» برواق شيم) نستعيد حضور الطبيعة على نحو خاص، ليس بمعنى أن اللوحة تقلد الطبيعة بل بالمعنى الذي طرحه الكاتب الإنجليزي أوسكار وايلد عندما قال: إننا أصبحنا نتحسس جمالية الطبيعة من خلال ما يقدمه الفن لنا وكأنه يصرح فلسفيا بأن «الطبيعة تقلد الفن»...



أزرق، أبيض و أحمر
عمل رقمي القياس : 3100 × 3100 بيكسال، 24 مارس 2008



عالم العلامات ـ عمل رقمي

لئن كان حضور الطبيعة على هذا النحو في لوحاته، فإن هذا النموذج التفسيري يستعيد نفسه مع قراءة لوحاته الرقمية. فكأننا بلغة الطبيعة (الحساسيات اللونية، البنية المشهدية، العلامات الزهرية والنباتية والحيوانية. . .) تنبجس على بساط التذوق ونحن بإزاء التعاطي مع الصورة الرقمية المبتكرة نفسها. ورغم تجاوز الإبداع الرقمي لبنية اللوحة التصويرية المسندية ومن ثمة، رغم تجاوزه لذاكرة الطبيعة، إلا أنه ها هنا يستعيد المصالحة ما بين الفن وهذه الذاكرة الحية. ففي هذا النموذج الذي نحن بصدده، لا يلغي المسار التكنولوجي للصورة الفنية إنسانية الإنسان (من جهة أنه منتج للإحساس والقيم والفكر) وبنفس القدر لا يستنكر هذا المسار طبيعيّــة الطبيعة (من جهة أنها مصدر المادة اللونية والضوئية وأصل اللغة التشكيلية).

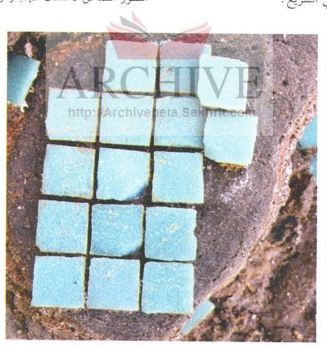
لقد مثلت آلية التفاعل بين رؤية الفنان الذهنية والفنية عبر أعماله محاولة لإيجاد بُعد رابع للصورة يمكن أن يطلق عليه «البعد التواصلي». وقد عملت الحركة التفاعلية بين الفنان والمتلقي على تنشيط هذا البعد التواصلي من خلال الكتابة وتبادل المقترحات والأفكار فتحرر المتلقي من القبول الأصم للعمل الفني. إلا أن

السؤال يبقى قائما حول أسباب إعدام العنصر النقدي سواء في المدونات أو الأروقة الفنية أو المسطحة الفنية «البلاتفورم» على الإنترنت، لا سيما أن هذا العنصر يبقى الوسيط الأكثر أهمية للربط بين الفنان والمتلقي وابيستيميات الخطاب الجمالي الجديد.

وكما يبدو، فإن فكرة معالجة الأعمال الفنية من خلال الحاسوب أمر يساهم حتما في اختصار المكان والزمان، أي أنه بالإمكان وضع خطة للتعامل الحركي والمتتالي للإنتاج. ففي ظل هذا التوجه تنشأ حركة تؤكد انفتاح فكر الفنان على متطلبات العصر مقدما لنا بنية جديدة في الخلق عنوانها العمل الفني السريع.

هل الفنّ في حاجة إلى الإنترنت؟

لقد أثّر توجيه العمل الفني في المعارض والأروقة على طريقة النظر للمنتوج، فلم نعد ندرك إنْ كان الفنان يستدعي قضايا تشكيلية، أم هو يستدعي المشاهد لاقتناء عمله. كما أنّ الثقافة البصرية التي باتت تحيط بالفن عجّت بالتجارب التي يدعمها محبّو الفن التشكيلي: إنهم أشخاص عصاميو التكوين نجحوا في إفتكاك مكان على الساحة يدعمهم تمكنهم التقني فحسب، مفتقرين إلى الخاصية الذهنية التي يفترضها الفن وخاصة المعاصر. وبعدُ، فما تزال تثيرنا مقولة ليوناردو دافنشي: «فن الرسم شيء ذهني»، لنبحث عن ممكنات تنزيلها وعن استتباعاتها في ظل هذا التطور الصاعق لأشكال الإنجاز والعرض. لقد غدت



مقطع من التكوينة المربعاتية «بتشوارك» إعادة تأويل رقمي لرسم زيتي



روابط العلامات ـ عمل رقمي

هذه البنية ساحة رخوة اجتاحها العديد من محبّي الاستعراض والمدّعين بفنهم، بينما يتوارى الفنان الحقيقي خلف هذا الزخم الإنتاجي الرّخو في أعماق الموسوعة الفنية.

وكما يبدو، فإن هذه العوامل ساهمت في مغادرة نور الدين الهاني للفضاءات التقليدية للعرض ليستحث الخروج من طبيعتها الانغلاقية ويستدعي البنية الترويجية لعملـه قصد شدّ انتباه الجمهور أو المجتمع. وبما أن التطورات التكنولوجية الحديثة ساهمت منذ اختراع شبكة الأنترنت (منذ إرهاصاتها في منتصف القرن الماضي وازدهارها لدى العموم في بداية التسعينات) في تحديد وسيط جديد للاتصال يمتد على نطاق متسع، فإنّ هذه الثورة المعلوماتية والاتصالية ستدفع هذا الفنان إلى خلق جسور بينه وبين المبحرين سواء من الجماهير أو من الفنانين لبناء ربط نسيجي يتخطى محدودية الإطار المكـاني والزماني.

لقد ساهمت الإنترنت في خلق فضاء فعّال للفنان الذي أدرك، كغيره من المروّجين، القيمة المتشعبة والجماهيرية التي استعمرت العقل البشري والتي برهنت فعّاليتها في عمليات التسويق. إنّ هذا التفكير قاد العديد من الفنانين إلى الغوص في تجربة الترويج عبر الإنترنت. كما أن عملية الالتحام بالشبكة برهن في أغلب المواقع على غاية الفنان الأولى وهي ترويج عمله. إلا أنه وكما رأينا، فإن بعض الفنانين مثل نور الدين الهاني كانوا في غنى عن هذه الآليات التسويقية، بل حاولوا تجاوز كل الأسس التجارية ليؤسسوا فكرة العرض والتعامل مع الرقمي كوسيلة فنية لا كغاية مصلحية.

ويبقى تحديد مغزى التساؤل عن تأثير حضور

الوسائل الاتصالية الحديثة على البيئة الفنية ومدى تأثيره على سياسة الفنان التعبيرية ومدى تأثير العصاميين والمدّعين بفنهم في المعارض الرقمية المفتوحة والأروقة الافتراضية، وهو مأتى نوع من التشويش (في بنية الخطاب الجمالي . . .) أصبح قادرا على أن يستمر في ظل غياب نقاد للفن يتناولون ما يظهر على الساحة الرقمية، بوجه خاص.

خاتمـــة :

لقد شهد أواخر القرن العشرين نزعة الفنان للاستقلالية عن كل الفضاءات التقليدية للعرض كما تقلص اهتمامه بالقيمة المادية للأثر وذلك باختياره إنتاج أعمال لا تتصل مباشرة بأية حركة سابقة. فتعددت التجارب وتنوعت المسارات اعتمادا على النزوة الذاتية، والرؤية المتفردة التي لا تخضع لأي منظومة جمالية قائمة. وعلى هذا الأساس فقد تفتّتت المعايير النقدية واضطربت المقاييس الجمالية (7).

و يبدو أنّ انفلات الصورة النقدية الجادة التي كانت الوسيلة المؤطرة للفن، قد شهدت صورة مختلفة في تونس تبعا لتغييب النقاد أو تغييب النقد الواعي بكل معطياته وأسسه، إذ أصبحنا في نظام دائري يقوم على تبادل المجاملات والتشكرات في حين أن الساحة التشكيلية تعيش أسوء حالاتها من حيث غياب حركة فنية متماسكة ذات مشروع ثقافي مخصوص ومواقف تاريخية . . . في المقابل لا يمكننا أن نتجاهل غنى هذه الساحة ببعض الأسماء العريقة في مجال النقد التشكيلي بتونس والتي لا تزال تقدم ومضات وقراءات نقدية واعية ومتمكنة رغم حضورها الفاتر . . .

المهم، وإزاء هذا الإشكال يتغير مفهوم العمل الفني ليتحول الفن إلى بضاعة تدعمها لجان المشتريات من خلال تخصيص جزء من الأموال لبعض العروض العامة والدورية في إطار جذب أقدام الجمهور إلى المتاحف والقاعات الفنية. إلاّ أنّ رعاية العمل الفني تقتضي أساسا البحث عن فكرة النقد والتي تكون على عاتق

مقطع
فوتوغرافيا رقمية



الناقد، بما أنه يزيح الغبار عن الأجوبة الاستفهامية التي ينطوي عليها الإبداع الفني من خلال القراءة، وذلك بغرض توضيحها وتقريبها إلى المتلقي. . .

وهكذا فإنّ تغييب السلطة النقدية بتونس ساهم في تغيير وجهة بعض الفنانين وتخطي الأنظمة الاعتيادية للتعامل مع طريقة عرض العمل الفني. كما لا يمكن الإقرار بأن هذا التوجه إلى الأنترنات والتكنولوجيات الرقمية سواء للعرض أو لاعتماده كوسيط تقني يمكن أن يكون شكلا من أشكال الهروب من الواقع الفني والنقدي المتأزم، إنما قد يمثل بحثا أو ميلا عن فضاءات قد تستجيب لحاجات الفنانين وميولاتهم. فما قدمه الهاني عبر مدونته وعبر أعماله الرقمية أو الفوتوغرافية ليس إلا نموذجا لفنان يعاصر مجتمعه ويستجيب لرغباته الثقافية والحضارية ليتواصل بفنه في فضاء شامل مع الناس.

ويبقى الفن رهانًا للثقافة التي تحيط المجتمع، وتبقى عملية الرقيّ به قائمة على البنى النقدية الجادة وليست صورةً تتلاشى وتتداعى في وسط طغت عليه الأزمات (8). كما أن الفنان لم يعد إلاّ وسيطا بين المجتمع وثقافته، يهيمن على الوقائع ويصوغها ضمن منطقها الداخلي من خلال الغوص في مقاصدها الخفية التي تبلورها الحركة الإجتماعية . وفي ظل هذا الإنصهار يجب أن تتبلور وجهات نظر أخرى تنقد الفن وتفرض هواجسها، كيف لا وقد باتت عملية العرض على هذه الشبكة مهدا لفرص السرقة، وبذلك فهي تشكّل خطرا

على إنتاج الفنان وإبداعه، دون احترام حقوق الطبع والنشر المحلية والعالمية من قبل المستخدمين. كما أن مصادر الكتابات لا تمثّل كثيرا أي مثال صادق. فهي غالبا ما مثلت عمليات انتحال في المجال الفنـي وقد بلغت ذروتها في بعض المدونات التي لا ندرك ممثلها الحقيقي. وتلك من بين المزالق التي يتحتّم علينا مجابهتها من داخل هذه الأنظمة الجديدة في الإبداع والعرض على شبكة الإنترنات.

المصادر والمراجع

1) نور الدين الهاني : فنان تشكيلي تونسي من مواليد سنة 1954 يقطن بصقانص المنستير، متحصل على الدكتورا بجامعة باريس 1 الصربون سنة 1982، شغل خطة مدير المعهد العالي للفنون والحرف بصفاقس 1999-2005 وهو الآن أستاذ تعليم عال في الفنون التشكيلية. يمارس الهاني الرسم منذ سن الرابعة عشر، بعث رواق شيم للفنون مع رشيد الفخفاخ بالمنزه السادس تونس سنة 1989 .شارك في العديد من المعارض التونسية والدولية من ضمنها رواق ارتسام سنة 1979 ،الحي الدولي للفنون بباريس «Cité Internationale des Arts» باريس، رواق القنطاوي سوسة، رواق شيم تونس... تحصل سنة 2002 على الجائزة الأولى في الفنون التشكيلية التي تسندها وزارة الثقافة. كما شارك في العديد من المعارض الجماعية مثل الرواق الفني المنزه مع الفنان التشكيلي التونسي الحبيب بيدة سنة 1985 وسنة 1987، معرض بحث مع رشيد الفخفاخ والحبيب بيدة «المفردة في الفنون التشكيلية» مركز الفن الحي لمدينة تونس...
آخر مشاركة للفنان نور الدين الهاني كانت سنة 2005 بالمركز الثقافي الدولي بالحمامات تحت عنوان «الحبوب الجلدية» «Grains de peaux».

2) http: //palmes. wordpress. com/.

3) Ibid

4) ibid.

5) Ibid، galerie-1/

6) ibid

7) من مقال لنور الدين الهاني ibid, publications-en arabe/

8) قويعة (خليل) ،تشكيل الرؤية، تأملات في تجارب تشكيلية من تونس، سلسلة إشراقات، تونس، 2007، ص 37-38. يقول:
«ويبقى النقد الفني كأحد فعاليات الدينامية الثقافية لعملية الايداع والتلقي، ممارسة واجبة الوجود أمام هذا الزخم الايداعي الذي تشهده العديد من قاعات المعارض الفنية ... على الأقل لأنه بمثابة محاولة مزدوجة لتوجيه المبدع وتوجيه الجمهور، ولأنه حلقة مشروطة لمجابهة القطيعة التي بين الطرفين ومحاولة استثمارها.. فكريا وثقافيا.. كما أن من شأن المساهمات العلمية والإعلامية في الجماليات وتاريخ الفن أن تساعد الجمهور على الارتقاء إلى مستويات الوعي الجمالي الحداثي والتعامل مع الأعمال الفنية بوصفها كيانات مستقلة ولذاتها قبل كل شيء، عوض أن يقع التعامل معها بوصفها انعكاسات آلية وساذجة لما هو جاهز في معطيات الذاكرة المشهدية أو الرمزية».

عبدُ اللّه بن أبي زيْد القيْرواني
310 هـ -922 م / 386 هـ -996 م
وكتابُه «الرّسالة»

أبو القاسم العليوي

أثَرُ العقيدة السُّنّية، والمذهب المالكي في تكوين الشّخْصية الحضارية المغاربية عامّة، والتونسيّة، على وجه الخصوص، بَالغُ الأهميّة، كما لا يَخْفَى. وقد تكاملت رُؤى الفقهاء، وأنظارُ المؤرّخين، وآراءُ علماء الإجتماع في تأكيد هذه الحقيقة بما جعل الاهتمام بتجْليتِها، والتذكير بها قَدْرًا مشتركا بيْن المتخصّصين في عُلوم الدّين، والتاريخ، وغيره من العلوم الإنسانية، على تبايُن أنماط البحث، واختلاف المَناهج المتوخّاة في كُلّ منْهَا.

ومن أسْطع الدّلالات على رِيادة إفريقيّة التونسية في صَوْن هذه العقيدة، وَ الذّبّ عن هذا المذهب، مذْهَب مالك بن أنَس، إمَام دَار الهجرة، بما هُوَ مقوّمٌ أساسيّ من مقوّمات الشّخصيّة التونسية، دِفَاعُ علماء القيْروان، خلال العَهْد العُبيْدي أي الفاطمي، وخلال العَهْد الزّيري الصّنهاجي الذي كان امتدادًا للفاطميّين، عن الذّاتية السُّنّية المالكية التي تعرّضت للكثير من محاولات الطّمْس بغية توطين التشيّع، بعد العَهْد الأغلبي، أي منذ أواخر القرن الهجري الثالث، (دَالت دوْلة بني الأغلب سنة 296 هـ/ 909م)، وحتّى سنة 435 هـ التي أعلن فيها رَابعُ أمَرَاءِ بني زيري الصّنهاجيّين، وهو المعزّ بن باديس، اسْتقلالَ إفريقيّة التونسيّة عن الفاطميّين الذين نَقَلُوا قاعدةَ خلاَفتِهِمْ من المهدية إلى القاهرة على يَدِ المُعزّ لدين الله.

فلقد كان العهد العُبيْدي الفاطمي «عَهْدَ اضطراب فكريّ، وصِرَاع اعتقاديّ، تفارقت به عناصرُ المجتمع، وتباينت مناهجُها، فاستقام كُلٌّ على طريقة، وانْحاز إلى فئة» (1) ممَّا وَسَّعَ مَدَى التفكّك الاجتماعي والضّمور الثقافيّ، ويَسّر بُروزَ نزعات التصادُم المذهبيّ الذي اشتـــدّ به الإنشغـــالُ عَن الفعل الحضاريّ الذي به تقدّم المجتمع، وازدهارُ أحْوالــه.

فَعَلَى مَدَى مائة واثْنتيْن وأربعين سنة، كان المذهب المالكيّ عُرْضَةً لِمُقَاوَمَة العُبيْديّين الرّافضين لعقيدة السُّنة. وقد أفضى ذلك إلى ذُبول الرّوح العلمية، وانتشار مظاهر الإضطراب، في أوسع معانيه.

ويرجِع الفضلُ إلى علماءِ المالكية الذين تمسّكوا

كبير، لا يعادله غير علمهم الغزير، في الردّ على بدع الروافض، و في الحفاظ على التّراث الفقهي المالكيّ، وعلى الممارسات المالكيّة في إقامة الشعائر؛ وبالتّالي في صوْن أهمّ أسس الوحدة المجتمعية، وهو المتمثّل في العقيدة السنيّة، والثّقافة المرتكنة إليْها، ومنها الفكرُ الدّيني الاجتهاديّ المستنير.

ولئن اشتهر من فُقَهاء القرن الرّابع عَدَدٌ غيْرُ قليل ممّن كان لهم إسهَام متميّز في صَوْن المذهب المالكيّ وفقْهه، فإنّ الدّوْرَ الذي قام به في ذلك ابنُ أبي زَيْد القَيْرَوانيّ حقيقٌ بأنْ يُعَدَّ بَالغَ الأهمية بحق. فهو الذي تصدّى، في فترة تحرُّر المذْهَب المالكي من نزعات التشيُّع العُبيْدي، لخدْمة المذْهَب بضبْط مَصَادره، والتّعريف بأصُوله، وفكّه من رُؤَى التعصّب، وَنزعات الجَدَل الايديولوجي، «واهتَمَّ بوَضْع كُلِّ حُكْم في نصَابه وذلك بضَبْط الأرْكان والشّروط التي تتحقّق بها ماهيةُ كُلِّ موضوع منْ مواضيع الأحكام الفقهيّة: فكان بذلك عمَادًا متينًا لدَوْر التطبيق في المذْهَب المالكيّ [...] وقدْ عَلَتْ بهذا العَمَل الجليل سُمْعَتُـهُ الفائقة شرْقًا وغرْبًا، فكثُرَ القَاصدُونَ إليه، والآخذون عنْه من إفريقيّة بما يشْمَلُ ليبيا وصقلّيّة، ومن المغرب الأوسط، والمغرب الأقصى، وَ منَ الأنْدَلُس، ومنَ المشْرق حتّى كان عَدَدُ المُتَتلْمذينَ لَهُ منْ غيْر أهْلِ القيْروان وإفريقيّة أكْثَرَ منْ هؤلاء» (2).

وعبدُ الله ابنُ أبي زيْد القيْرَوانيّ الذي ذهَبَ بعضُ من ترجموا له إلى أنّه موْلود بنفزاوة، وُلدَ بالقيروان، على الأرجح في سنة 310 هـ / 922م. وبها نشأ، ودَرَسَ، وعاش زهاء أربع وسبعين سنة، وبها توفّي في الثّلاثين من شعبان 386هـ/ 14 سبتمبر996م. وصلّى عليْه أبو الحسن القابسي بالرّيحانية في جمع غفير [...] وقد رثاه كثير من أدباء القيروان» (3).

وممّن رثاه، وخلّد مناقبه، ومظاهر فضله، تلميذه أبو يحيى الشّقراطسي الذي قال في لاَميّته المُؤثّـرة: (بسيط):

وَ حَادثٌ جَلَّ يُنْسي الحَـادثَ الجَـلَـلاَ
نَاع نَعَى ابنَ أَبي زَيْـد فقلتُ لـه:
أَشَمْسُنَا كَسفَتْ أَمْ بَدْرُنَا أَفَلاَ
أَمْ مَادَتِ الأَرْضُ أَمْ رُجَّتْ بسَاكِنِهَا
أم الحِـمَـامُ بعَبْـد الله قَـدْ نَـزَلاَ؟
فَإنْ يَكُنْ صَدْرُنَا حَامَ الحِمَامُ بِـه
فالصَّدْرُ صَـادٍ وَ مِنْ نَارِ الأَسَى شُعلاَ...
عَلَى الجليل الذي جَلَّتْ مَفَاخـرُهُ
وَ مَـنْ مَآثِـرُهُ أَضْحَتْ لَنَا جُـمَـلاَ
كُلُّ البسيطـة بُسْط الحُزْن قَدْ بَسَطَتْ
وقَـبْـرُه بسَنَـا أَنـوَاره ابْتَهَـلاَ
وَكَيْفَ لا، وَوَلِيُّ الله حَـلَّ بِـه
قُطْبُ المَشَائـخ نُـورٌ للهُدَى اكتَمَـلاَ...
لاَ تَعْجَبُوا مِنْ شَجِيٍّ في تَوَلُّهِـه
بَلِ اعْجَبُـوا لِخَلِيٍّ البَـال كَيْفَ سَـلاَ».

وقد أخَذَ ابنُ أبي زيْد عن علماء عَصْره بجامع عقبة بن نافع، أو بغيْره من الأماكن التي كان فقهاءُ القيروان يبثّون فيها عُلومَ الدّين، وغيْرَها من العلوم، وعُرف بكلَفه بالتّحصيل، وحرْصه على ضبْط المسائل العلْمية بالعَوْد إلى أمّهات المصنَّفَات، على عُسْر الظّفَر بها في ذلك العَصْر، وبالرِّوَاية والإسناد، والسعي إلى الاتّصال بمَن أجازوه منْ الشيوخ الأعلام الذين تتلمذ لهم، أو اتّصل بهم بالمشرق في رحلتـه التي أدّى فيها فريضة الحجّ، أو بمن رَاسَلهم، مستفسرًا مستوضحًـا، بشأن بعض النّوازل، والقضايا مثل القاضـي أبي بكر بن الطيّب الباقلاني عالم العراق الذي سأله رأيه في موضوع «الكرامات»، حتّى اجتمعت له «ثرْوة زَاخرَة من النقول والمأثورات، وَمُـهِّـدَ لَـهُ سَبيلُ الإجتهاد

الفقهـــي والنّظر العَـقْلـــيّ، وَ بَلغ رُتْبَة علمية سَامية قبْل أنْ يتجَاوَز العَـقد الثاني مِن عُمره؛ ثُـمّ زَكَت مَلَكَتُهُ الفقهية، ممّـا هَيّـأ لَه أنْ يُـؤدِّيَ أكْبَر الخدْمات لمذْهَبه المالكي» (4). يقول الشيْخ محمد الفاضل ابن عاشـــور: «وَ قَـدْ زَكَّـــى سُمْعَتَه العلمية الذّائعة مَا زَانَ سُلُوكَهُ الشّخْصِيّ مِنَ الزُّهْد وَ الوَرَع مَعَ العَقْلِ الرَّاجح، والأدَب البَارع. فكانت قُوّةُ عَارِضَتِه وجَزَالَةُ رَأيه، مَعَ مَا أوتـيَ مِنْ فَصَاحَة اللّسانيْن الشّفَهِيّ والكتابيّ مُـمَكّنَةً لَـهُ مَقْدُرَةً في خِدْمَة الفقْه تدْريسًا، وتأليفًا يعـزّ أنْ تُتَاح لغيْرِه، حَتّى عُرِف في عَصْرِه بشَيْخِ المذهَب، وَلُـقّبَ مَالكًا الأصغر» (5).

وكان شداةُ المعرفة في المنقول والمعقول ينثالون عليه، وهو الذي انعقد الإجماع على تسميته بمالك الصغير، في مجالسه العلمية التي اشتهرتْ بما استقام له من حُسْن الجمع بيْنَ الدِّقَـة في الرّواية، والتعمّـــق في تحليل المواضيع، ونقد الأحكام، وَ مقارنة الأنظار، في أسْلوب جَذّاب، مُرَغّب في الإقبال عليْه، والإفادة من غزير عِلمه، وآسـرِ بيانه.

وقد تخطّى إشعاعُه مدرّسًا، وفقيهًا، ومفسّرًا، ومحدّثًا، ومفتيا أوساط تلاميذه الذين أخذوا عنه بالقيروان إذْ كثر قصّاده من طلبة العلم والمستفتين من سائر أنحاء إفريقية، ومن فاس، والأندلس، وغيرهما من الأقطار.

وكان يتلقّى أسئلة مَن لا يقدرون على الوصول إليه بواسطة ما يوجّهون إليه من الرسائل التي كان حريصا على الإجابة عمّا ضمّنوها من الأسئلة، كما كان حريصا على إجازة بعض أصْحابها، دعمًا للصّلات العلمية بمقدّري علمه وفضله، في المغرب، والمشرق على حدّ ســواء.

أمّا مؤلّفاته التي زادت على الأربعين مصنّفًا (6)، والتي كان طلبته شغوفين بروايتها عنه، فقد اشتهر بعضُها في المغرب، والأندلس، ومصر، والعراق، والشّام، والحجاز.

وهي -في الأغلب- «مصنّفات فقهيّة تخدم المذهب المالكي، وتفصّل أحكامه، وتعرض آراء رجاله، ومواقفَ إمامه من مختلف القضايا المستجدّة، وتأويلَـه للنّصوص، وأصولَه المعتَمَـدَةَ في الاستنباط» (7).

ومن أشهر هذه المؤلّفات كتاب «النّوادر والزّيادات» الذي اشتمل «على جميع أقوال المذهب، وفروع الأمّهات»، كما قال ابن خلدون في «المقدّمة». وَقد خَصّ به صاحبه «ذوي الدّراية والملكة الفقهيّة والاختصاص في الشريعة» (8) لاشتماله على الكثير من المسائل الخلافيّة، والنقول، والمقارنات، والأخبار، والسّير، إلى جانب آراء مالك في العقيدة.

ومنها «مختصَر المدوّنة» الذي ذكره ابنُ خَلدون أيْضًا تأكيدًا لأهميته، والذي «كان يُدَرَّس بالرّبوع الأندلسيّة في القرن الخامس» (9).

ومنها كتاب «الرّسالة» الذي وضعه عبد الله بن أبي زيْد سنة 327هـ، أي قبل تخطّيه السابعة عشرة من عمره. وهو أوّل مَـا ألّف. وقد توخّى فيه منهج الايجاز والتبسيط ليكون - كما قال في مقدّمته، مخاطبا مَن طلب منه تأليفه - وهو ابن خالته (10) الشيْخ الصّالح المربّي محرز بن خلف (تـ سنة 413هـ/ 1022م)ـ «جملةً مختصَرةً مِنْ وَاجب أُمُور الدّيانة ممّا تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وَ ما يتّصل بالواجب مِن ذلك مِن السُّنـن مِن مؤَكّدها، ونوافلـها، ورغائبها، وشيء مِن الآداب منها، وجُمَل من أصول الفقه، وفنونه، على مذهب الإمام مالكَ بن أنَـس رحِمَـــه الله تعـالى».

وكانت غايته من ذلك تمكين المتعلّمين من النشء من معرفة حقائق دينهم، والتمييز بيْن الحلال والحرام، والمندوب والمكروه، باعتماد طريقة تراعي مداركهم العقلية، وتيسّـر لهم فهم ما فُرِض فعلا أوْ ترْكًا، قـوْلاً أوْ عَمَلاً، قبل البلوغ، حتّى يكون ذلك بعده قِوام سلوكهم، وأساس عملهم، بحيْث تسكن إليه نفوسهم، وتثبت عليه مهجهم، وَ تعتاده جوارحهم، فإذا هم من المهتدين، الصّالحين.

فالرسالة تشكّل صفوةَ حرص على اختصار القواعد والأحكام الفقهيّة المالكية، وتبسيطها على النّحو الذي يتيح للصّبية استيعابها، وإدراك دواعي العمل بها، ومقتضيات ذلك. وَهو - بهذا الإعتبار - أداة تعليم، أو قل إنّه كتاب مدرسيّ يجسّد المنهج المتوخّى في وضعه وعي الحاجة إلى اعتبار حاجات المبتدئين في تعلّم ما ينبغي أن يكون معلوما من الدّين بالضّرورة، ومراعاة قدراتهم الذّهنيّة التي لم يكتمل نموّها بعدُ، ممّا يجعلهم دون مستوى الإقتدار الذّاتي على درس العويص من المسائل، وفهم ما يتنزّل منها في صنف الصّوريّ المجرّد، أي البعيد عن عالم المادّي المحسوس، أو على التفكير في أكثر من موضوع في نفس الآن.

وبهذه المسحة البيداغوجية التي ميّزتها، وَ كانت أكبر أسباب شهرتها، والاقبال عليها، يجوز عدُّها من عيون التراث التربوي الزكيّ الذي تكاملت أنظار المجتهدين النابهين من فقهاء إفريقية التونسيـة في إغنائه في زمَن لم يكن فيه التأليف في أصول التربية، وأحكام التعليم شأنا معهودًا، أو أمـرًا معـدودًا من أولويات العلماء، أو عاداتهم في التصنيف.

ففي المدوّنة التّربوية التونسية التي يصحّ اعتبارها من أقدم مكوّنات المرجعية التي قام عليها الفكر التربـوي العربي الإسلامي، والتي تتبوّأ فيها رسالـة عبد الله بن أبي زيْد مَكانـة عاليـة، ينـدرج كلّ من كتاب «آداب المعلّمين» الذي وضعه مُحمّد بن سحنون، (202هـ- 256هـ) و«الرسالة المفصّلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» التي ألّفها أبو الحسن القابسي (324هـ- 403هـ) (11).

وقد أتيح لرسالة بن أبي زيْد من أسباب الشهرة الواسعة السريعة ما لم يُتح لغيْرها من المصنّفات. فقد انتشرت منذ ظهورها، كما قـال أبـو زيـد الدّبّـاغ (تـ 696هـ) «في سائر بلاد المسلمين حتّى بلغت العراق، واليمن، والحجاز، والشّام، ومصر، وبلاد النّوبة، وصقلّية، وجميع بلاد إفريقيّة، والأندلس، والمغرب، وبلاد السّودان، وتنافس النّاس في اقتنائها حتّى كُتبت بالذّهب. وأوّل نسخة منها بيعت ببغداد في حلقة أبي بكر الأبـْـهَـريّ بعشرين دينارًا ذهبا» (12)

وحظيت هذه «الرسالة» من قبل علماء المالكية بعناية كبيرة لأنـّهم وجدوا فيها خـيْر أداة لتلقين فقههم، وتجذير الأجيال المتلاحقة في مذهبهم، وصوْن ما انبنى عليه من الأنظـار، والتخريجـات، والاجتهادات، والفتاوى من التحريف والمناقضة.

وتصدّوا لشرحها، وبيان أصولها، وتبرّكوا بنظمها تسهيلا لحفظها وبتعليم ما حوت من قواعد الشّريعة، ورغّبوا في حفظها، إخلاصا في خدمـة الدّين، وَفي أداء رسالة التأديب والتنشئة، حتّى عُرفت عندهم بأنّها «باكورة السَّعد وزُبدة المذهب».

وقد دَرَجـوا على اتّخاذها مرحلة أوّلية لازمة لدراسة أمّهات كتبهم كمدوّنـة سحنـون (160 هـ - 240 هـ)، وغيرها، بغيَة التعمّق في تحليل المسائل، ومقارنة ما استثارت من الآراء، والتعليقات.

وممّا ذاع به صيت «الرسالة»، وسمت منزلتها - زيادة على منهج التيسير والايجاز الذي اعتمده صاحبها في تصنيفها - اشتمالها على كلّ ما على المكلّف فعله، وما لا يسعه جهله. وقد تُرجمت «الرسالة» إلى الفرنسية، والانجليزية، منذ أوائل القرن العشرين.

وممّا قاله مصنّفها في «باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الدّيانات»، متحدّثا عن الايمان: «. . . الإيمانُ بالقلب، والنطق باللّسان أنّ الله إله واحد، لا إلهَ غيْره ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولـد، ولا والد لـه، ولا صاحبـة لـه، ولا شريك له، لـيْس لأوّليّته ابتـداء، ولا لآخِرِيّته انقضاء، لا يبلُغ كنه صِفَته الواصفون، ولا يحيطُ بأمْره المُتَفَكّرون، يعتبر المتفكّرون بآياتـه، وَ لاَ يتفكّرون في ماهيّة ذاته».

فقد عرّف مفهوم الايمان، كما هو بيّن، بما هو تصديق بالقلب، ونطق باللّسان، وعمل بالجوارح، تعريفا شاملا ،وَاضحا، يصلح للانطلاق في شرحه بما

ييسّر تقريب المعاني التي يَدل عليْها الصّعب من اللّفظ، كما هو الشأن، مثلا، بالنسبة إلى كلمة «كنه»، وكلمة «ماهيّة». وهذا الشّرح الميسّر لاستيعاب المعنى، مكتَمَلا، متميّزا عن غيره من المعاني، هو من دَوْر الشيْخ المدرّس الذي يغنيه متن «الرسالة» عمّا وُضِع قبلها من المصنّفات الفقهيّة المالكية المطوَّلة التي ليس بوسـع المبتدئين في التعلّم الإفادة منها لما فيها من تفصيل، وتعليل، ومقارنة، واستطراد.

وعلى نفس هذا المنهج القائم على التوضيح والتيسير في عرض المفاهيم، والقواعد، والأحكام، وسائر أمور الدّيانة، سار «مالك الصغير»، عبد الله بن أبي زيْد، في صياغة الأبواب اللاّحقة التي تعلّقت بـالفرائض حتّى جعل كتابه، كما قال في آخره: «ممّا ينتفع به إن شاء الله مَن رَغِب في تعليـم ذلك من الصّغار، ومَن احتاج إليْه من الكِبار» لاحتوائه على «ما يؤدّي الجاهلَ إلى علم ما يعتقده من دينه، ويعمل به من فرائضه، ويفهم كثيرًا من أصول الفقه، وفنونه، ومن السّنن، والرّغائب، والآداب».

المصادر والمراجع

1) محمد الفاضل ابن عاشور – أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، تونس، مكتبة النجاح، بدون تاريخ، ص 44

2) نفس المصدر، ص 47

3) محمد أبو الأجفان – عبد الله بن أبي زيْد القيْرواني، في: دائرة المعارف التونسية، تونس، بيْت الحكمة، الكرّاس 2/ 1991، ص 44.

4) نفس المصدر، ص 37.

5) محمد الفاضل ابن عاشور – أعلام الفكر الإسلاميّ في تاريخ المغرب العربي ،تونس، مكتبة النجاح، بدون تاريخ، ص48

6) أنظر: الهادي الدّرقاش – فقه الرّسالة متنا ونظما وتعليقا، بيروت، دار قتيْبة، 1989، ص 8

7) محمد أبو الأجفان – عبد الله بن أبي زيْد القيْرواني، في: دائرة المعارف التونسية، الكرّاس 2 / 1991، ص 40

8) الرسالة الفقهية – تحقيق الهادي حمّو ومحمد أبي الأجفان، بيروت، دار الغـرب الإسلامي، 1986، ص 32.

9) نفس المصدر.

10) محمود شمّام – محرز بن خلف رجل الصّلاح والإصلاح، في: الإمام محرز بن خلف رائد التسامح ومقاومة التطرّف، تونس وزارة الشؤون الدينية، جانفي 1994، ص 196.

11) أنظر: أبو الحسن القابسي ومواقفه التربوية – أبو القاسم العليوي، في: المجلة التونسية لعلوم التربية، العدد 13، السنة IX، جانفي 1985، ص ص 8-48.

12) انظر: "الرسالة الفقهية، تحقيق الهادي حمّو ومحمّد أبي الأجفان، ص ص 39 – 40.

الشّيخ محمد دَحْمَان

القيرواني نشأة وقرارا، المالكي مذهبا، الشادلي طريقة

جمال بن حمادة

I – نبذة عن حياة المؤلف :

هو أبو عبد الله الحاج محمد بن الحاج قاسم دحمان الغساني القيرواني المالكي مذهبا، الشادلي طريقة، العدل المحدث الفقيه، تولى الخطابة بجامع القيروان خليفة عن إمامه ودرّس به (1). كان «متبلّغا بالكفاف»، له شغف بالتصوف «يميل إلى الزّهد والخمول» – بتعبير مؤرخنا أحمد بن أبي الضياف– ولد بالقيروان – دون أن نعلم تاريخ الولادة –، وبها نشأ. يرجع أصله ومنبته فيما ذكر، إلى الفلول الأولى من بواكير الفتح الإسلامي. وتدل نسبته الأولى «الغسّاني» إلى أصله العربي، فهو من «قبائل الفتح» (2).

لم تحفل كتب التراجم بهذا الرجل إلا لماما. فالظاهر أنه كان منشغلا بالتدريس، وكان له دور ديني باعتباره شيخ الجماعة الشادلية بالقيروان. كما لم تسجل المرجعيات التاريخية المتوفرة لدينا، تنقله إلى حاضرة تونس بغية طلب العلم أو لقضاء حاجة، ولم تتناقل خبر توليته لإحدى الخطط في مواضع من برّ إفريقية. كما لم تشر المصادر –بما في ذلك القيروانية – إلى سفره بنيّة الحج.

إلا أنه من خلال اطلاعنا على تصنيفه الموسوم بـ «كتاب الديوان»أي ديوان الأولياء، فقد استخلصنا أن الشيخ محمد دحمان قد رحل في سفرية قادته إلى الحج، حيث جاور بالحرم النبوي لفترة طويلة، وأقام إلى غضون شعبان سنة 1218 هـ / 1803 م.

لقد كان لهذا الطور في حياته قيمة إذ سرعان ما انجذب إلى طريق التصوف، وتشوّف إلى منازل الزهاد، ثم عاد في أثر ذلك إلى موطنه الأصلي القيروان، وقد اكتمل زاده بمعارف عامة عن التصوف والاطلاع على سير البعض من أعلامه وشيوخه ، وتعرف على تحديد مراتبهم ومقاماتهم.

ولعلّ انعكافه على الدراسة، والسعي إلى مزيد استيعاب العلوم الدينية الرائجة عصرئذ بالحرمين الشريفين ثم انصرافه إلى مذاكرة المشائخ والعلماء، ساعداه على القيام بأعباء الطريقة الشادلية ثم التصدر لمشيختها، فانتفع به الناس فيما بعد ببلده، وتحلقوا

حوله. كيف لا ؟ وقد أكسبته دراسته وإقراؤه بموطنه الأصليّ النجابة والإفادة في علوم القرآن ومرويات الحديث النبوي الشريف، وغير ذلك من المعارف المتداولة وقتئذ.

وقد ساس تربيته بالتُّقى والعفاف، إلى أن أدركه المنون فآب أوبته الأخيرة بالقيروان، يوم الاثنين منسلخ شهر ربيع الأنور عام 1244 هـ / [الاثنين 06 أكتوبر 1828 م] عن سن عالية. وكان أوصى بأن يصلّي عليه تلميذه الشيخ المفتي محمد بوهاها الرعيني، فلبى الوصية «في جمع لا يحصون كثرة». ودفن بداخل قبة الشيخ سيدي عبيد الغرياني.

II – التّراجم المخصوصة به :

قليلة هي المرجعيات الأدبية والتاريخية التي تحدثت عنه. وهي على ندرتها، استقت مضمونها من مصدر وحيد، كان عليه الاتكال ضمن هذه المقاربات، وهو كتاب:

1 – «تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان»: لمحمد بن صالح عيسى الكناني القيرواني المتوفى 1292 هـ / 1875 م.

توجد منه نسخة بدار الكتب الوطنية تحت الرقم: 3403، وهي التي اعتمدها في التحقيق والتعليق عليها سي محمد العنابي – رحمه الله – الذي كان موظفا متعاقدا بدار الكتب (مصلحة المخطوطات) خلال بداية السبعينات من القرن المنقضي.

علما وأن كتاب «التكميل» يعد بمثابة المستدرك، على كتاب آخر في ذكر من ترجمهم مواطنه أحمد الحربي القيرواني (*) الذي كتب في أشياخ من القيروان كانوا بالقرن الحادي عشر هجرية / السابع عشر للميلاد، وما يليه بقليل.

تتنزل ترجمة الشيخ محمد دحمان بين الصفحتين 162 و164 من النص الذي حققه العنابي (3)، وتتدرج ضمن مجمل تراجم (220 علما) من الأعلام القيروانيين تضمنهم كتاب «التكميل» وهي تعكس صورا عن حياتهم الايمانية والشخصية، والتشبث الجماعي بالولي الصالح وكراماته. –كما ترسم الخطوط العريضة التي تحدد دور الزوايا اجتماعيا ودينيا، بغية التوسل بالأولياء علاوة على قضاء الحاجات، والاطلاع على هذه النماذج البشرية وما يكتنف نمطها السلوكي من عبادة وزهد وانقطاع عن الدنيا، وربما إتيان رهط منهم ببعض السلوكيات الغريبة التي قد لا يقبلها العقل اليوم.

أما بالنسبة إلى مخطوط «التكميل» فيتميز الحيز المخصص لترجمة الشيخ دحمان نص جديد – بالطرة اليسرى – من الصفحة 167. وقد نسب الناسخ مضمونها إلى ما نقله جده عن الشيخ القاضي محمد بوراس القيرواني. وقد انفرد بزيادتها هذا الناسخ الذي لم يفصح عن إسمه وإنما عرف نفسه بالقول : «وجدت بخط والدي العلامة سيدي محمد صالح الجودي».

والطريف أن هذه الفقرة لم يتعرض إليها أحد. وقد اختلفت مع غيرها في ذكر تاريخ وفاة الشيخ دحمان بنقصان عام واحد (أي 1243 هـ). كما تميزت بذكر بعض تلاميذ الشيخ دحمان وزيادة بعض الجوانب الأخرى الجزئية في مسيرة هذا الرجل.

ولعل ترجمة الشيخ محمد دحمان في «التكميل»، قد انفردت بإضافة الفقرة التي كان الكناني، بدأ بها كتابه الثاني، ونقلها حرفيا، مما يعطي انطباعا على الأسبقية الزمنية لهذا التأليف المتقدم، الموسوم بـ:

2 – «ديباجة الأعيان ممّن كان في أواسط القرن الثالث عشر بالقيروان» وهو مخطوط غير مطبوع يوجد بدار الكتب الوطنية تحت الرقم: 18599 من رصيد مكتبة حسن حسني عبد الوهاب – رحمه الله –.

وضع الكناني «الدّيباجة» بطلب من صديقه أبي عبد

الله محمد بن سعيد البكيري (4) التونسي، التطواني أصلا، وجعلها في تراجم أهل عصره من الأشراف والعلماء والأدباء بمدينة القيروان ممن أدركهم في صغره أو قرأ عليهم. وقد حظيت ترجمة الشيخ دحمان بالمرتبة الأولى من هذا التصنيف المخطوط الذي لم يطبع منه إلا قطعة بمثابة محاولة لصاحب المقال وراقم هذه الحروف، صدرت له في شهر جوان من عام 1983 بمجلة «الحياة الثقافية»، وشملت خمسة أعلام قيروانيين مرتبين على النحو التالي -بدءا بالمرتبة الثانية-، وهم الشيوخ: عبد الله البليش، محمد بن حمودة صدام، محمد بن عبيد الغرياني، محمد بن أبي بكر صدام، أبو الفضل قاسم عظوم الخ..

إذن يعد كل من كتاب «التكميل» و«الديباجة» للكناني القيرواني، المصدرين الأساسيين في ترجمة الشيخ دحمان، علاوة على تتبع ثلاثة مراجع أخرى، يبدو أنها عوّلت على النصين الأخيرين، سنذكرها على التوالي بحسب ظهور أصحابها:

1 - «إتحاف أهل الزمان» لابن أبي الضياف: (1/4) وهي ترجمة موجزة مقتضبة لا تضفي على الشيخ دحمان، إلا كساء بيانيا وبلاغيا مسجعا، قد أتقنه بكل جدارة واقتدار، الشيخ الوزير المؤرخ أحمد بن أبي الضياف - رحمه الله - [ج 7 / ص. 154]

2 - «كتاب العمر» لحسن حسنى عبد الوهاب: (2/4) وهي عبارة عن نبذة قصيرة هي الأخرى، إلا أنها امتازت ببعض التعاليق المضافة لاحقا، والزائدة عن النص الرئيسي وكانت في محلها من الضبط. [م. I (القسم الثاني) / ص. 567].

3 - ولسنا في غنى كعادتنا- عن العود إلى كتاب «تراجم المؤلفين التونسيين» (3/4) للوراق المكتبي الضليع محمد محفوظ الصفاقسي -رحمه الله-، حيث أردف الترجمة بما توفر لديه من مراجع.

ومما سبق، فبالإمكان استخلاص ترجمة مقتضبة وموفية بالغرض، قد تتوفق في رسم ملامح هذه الشخصية الدينية، وذلك عبر تناول المحورين الأساسين الآتيين:

III -البيئة الدينية ومشيخته العلمية:

تلقى معارفه الدينية بمراكز العلم بالقيروان مثل سائر أخدانه وأصحابه. كما حذق مبادئ اللغة العربية، وحفظ ما تيسر له من القرآن المجيد، وسمع دروسا في الحديث النبوي الشريف والفقه، وبخاصة ما كان منه على المذهب المالكي.

كان من المعدودين بالقيروان، فقد قرأ على شيوخ العصر مثل القاضي حمودة الوحيشي والمحدث محمد بن عبيد الغرياني والشيخ محمد الخنقي(5).

كان مثابرا في التحصيل والسماع والإملاء، وكانت له دُولٌ في تكرير بعض المسائل وإلقاء الدرس الواحد مرة لهؤلاء وتارة لهؤلاء. انقطع وهو يافع، لإقراء كتب الحديث الشريف بمروياته، فكان يقضي وقته بكرة النهار في قراءة «الجامع الصحيح» للإمام البخاري بالروضة البلوية بمقر الصحابي الجليل «صاحب الجاه» سيدنا أبي زمعة البلوي، ثم ينصرف إلى مدرسة السيد الصحابي لتدريس مختصر الشيخ خليل وهو من الكتب المعتمدة في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس. وبما أن الشروح عديدة فقد حدد الكناني في تأليفه الثاني «ديباجة الأعيان» العنوان المقصود بما نصه: «..وختم بشرح الشيخ الخرشي على المختصر مرارا» (6). وكانت له دولة مع هذا التصنيف، وقت الزوال بمسجد النقاطين (**) المعروف بمسجد الحبل.

ثم يمضي إثر صلاة الظهر لإلقاء درس في الوعظ بالجامع الكبير بالقيروان إلى حلول صلاة العصر.

يضيف الكناني في «ديباجة الأعيان» : «..وله قراءة في كتب الوعظ دواما»(7).

وكان لا يقتصر على هذا القدر ولا يكتفي به، بل كان ميالا إلى قراءة بعض المتون النحوية إثر صلاة المغرب وبحلول الوقت بين صلاتي المغرب والعشاء، فقد كان يضطلع بتدريس «الرسالة» لابن أبي زيد القيرواني وتارة في غيرها من كتب الفقه. ويكرس الشطر الأخير من ليله متهجّدا متبتّلا إذ كان يمشي مع جماعة الطريقة الشادلية لأنه شيخ جماعتها إذ ذاك بالقيروان.

وتأسيسا على ما ذكر، فإن الشيخ محمد دحمان كان يقضي يومه منشغلا في إلقاء دول من الدروس، وردحا من ليله في القيام بالأذكار، في بيئة دينية بقيت مشدودة إلى ماضيها الإسلامي التليد، فانعكفت على ممارسة ما أرضاها واطمأنت إليه وبه آمنت، في إطار رقعة جغرافية قيروانية تعددت فيها الزوايا وكثر المجاذيب وأصحاب المكاشفات والتصاريف وحكام الحضرات وأشياخ الطرق الصوفية. ولعل تصفح كتاب «التكميل» للكناني يعطينا - بما لا يدع مجالا للشك - فكرة عن تعدد المريدين والطرق التي افترقت فيما بينها وتعايشت باعتبار انتمائها إلى الطريقة السنية مثل الشادلية، والقادرية والعيساوية بإضافة الطريقة العروسية.

فإلى جانب شيخنا صاحب الجماعة الشادلية، فإننا نجد علما طودا هو الشيخ سعيد الجليزي الذي كان تلميذا لا يتخلف عن الذكر وإقامة الحضرات وكان شيخه دحمان «يحبه أكثر من غيره من المريدين» و«كان رحمه الله في الطريقة الشادلية» (8). وحتى يُظهر تنوع سير هؤلاء السالكين ودرجاتهم، إن في الملإ أو الاختلاء فتكفي الإشارة إلى أن منهم من كان يخالف أستاذه في اتّباع أنموذج طرائقي يحتذيه ويسلكه. فمن تلاميذ الشيخ دحمان الذين خالفوه، وكان لا يفارقه ملازمة الذكر، ويحضر الدرس خصوصا في دوله: مريده الشيخ محمد مرابط الهنتاتي (9) الذي كان من الأخيار في وقته، وكان قادريا على طريقة القطب سيدي عبد القادر الجيلاني.

هذا من الناحية السلوكية، أمّا تلاميذه (10) الذين جلسوا إليه واستمعوا، وأقراهم وتلقوا عنه ما كان من المعارف التي محضت ثقافة العصر، فنذكر من بدأ بالبروز خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد صدام كبير أهل الشورى بالمدينة والشيخ محمد بوهاها والشيخ علي الحليوي. ومن الخط المنقول عن تلميذه الشيخ بوراس قوله: «..أخذ عنه جماعة منهم الفقيه، والشيخ الكبير محمد بوهاها، وسي عمر بن حمودة وسي عمر عاشور وسي علي الحليوي وجماعة..»(11).

وهكذا يتجلى الجو الديني السائد والمستقر بالقيروان - طوال الشطر الأول من ق 13 هـ / 19م - بكافة طرقه الصوفية السنية مثل القادرية والعيساوية والعروسية تتبوأ منزلتها القصية، الطريقة الشادلية وشيخ جماعتها العدل محمد دَحمان، تعاضده حركة روحية مماثلة بتونس الحاضرة، يتزعمها أقطاب من الطريقة الشادلية مثل الشيخين البشير السعدي الونيسي (12) المتوفى عام 1242هـ [1826م]، الذي أخذ المعارف الربانية عن أئمة هذا الشان، وكان مجاب الدعوة لدى الخاص والعام، وزواياه بتونس مناخ للجميع وبخاصة زاويته بربط باب الجزيرة - كذلك الشأن بالنسبة إلى الفقيه محمد الشاذلي المؤدب شيخ الطريقة الشادلية بالحاضرة تونس أيضا، الذي سلك مسلك والده وشيخه عمر المؤدب (13) الذي توفاه الأجل عام 1245هـ [1829 م].

ولنا أن نزعم أن هذه النماذج البشرية، تعكس الحالة السائدة بالايالة عموما، خلال الخمس الأخير من القرن الثاني عشر وعلى امتداد النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة، لتحدّد من شخصية الشيخ

محمد دحمان أنموذجا لمزيج من المكتسبات الفكرية والمؤثرات الفردية والذاتية، وتجسد حركية القيروان - مهد إفريقية - بمنطلقاتها البيئية والدينية، في جو سياسي يبدو أنه مضطرب ومثير، وآثرت المرجعيات التاريخية التي أرّخت للفترة الحسينية بالبلاد، الحديث عنه باستفاضة وإطناب.

IV ـ مؤلفاته :

وردت في مظان الكتب اللاحقة، منقولة عن «تكميل الصلحاء والأعيان» المصدر الوحيد الذي تم الاعتماد عليه. وقد ذكرها الكناني نقلا عن الشيخ أحمد الحربي في الذيل الذي سماه «شفاء الأبدان» مثلما أومأنا إلى ذلك سابقا.

وسنذكر هذه التآليف بحسب ورودها في النص الأصلي:

1 - **«كتاب الديوان»** : (أي ديوان الأولياء) مثلما وردت التسمية منسوبة إلى الشيخ محمد دحمان، حيث صدّره ناسخ المخطوط بما نصّه : «ألفه إلى ربه المنان، محمد دحمان، كان الله له في كل مكان».

ثم يضيف الكناني مؤكدا اطلاعه على هذا التصنيف: «وله تأليف قدر كراسين، حكى فيه كيفية «الديوان» واجماعهم وكيف يكون ترتيب جلوسهم، وما يقع من المفاوضة بينهم والتناوب في الكلام على قدر مقاماتهم. ولعل الشيخ (دحمان) كان اجتمع بهم.

ولعلّ كلمة «ديـوان» تحيلنا على التوسع في الموضوع، واشتماله على كم كبير من الأوراق.

فاللفظة تعني في اللسان: المجلس الذي يجتمع فيه القوم للمجالسة والمذاكرة. والشعر «ديوان» العرب أي يرجعون إلى الشعر لمعرفة أنسابهم ووقائعهم وأخبارهم(14). ولكن بالوقوف على (ثلاث 03) نسخ خطية قد تمكنا من الاهتداء إليها ضمن الرصيد العام لدار الكتب الوطنية التونسية، فقد تبين أن هذا «الديوان»(15)، صغير الحجم يحتوى على أوراق تتجاوز العشرة بقليل، ولا تختلف فيما بينها إلا على قدر مقاساتها وعدد سطورها.

وحريّ بالذكر، أن هذا الكتيب، لم يدرجه الشيخ أحمد الحربي ضمن مؤلفات الشيخ محمد دحمان. وقد علل الكناني هذا الصنيع بالقول: «وهذا، لعله لم يطلع الشيـخ الحربـي عليه أو نسيه»(16).

أما عن «ديوان» الأولياء، فنعتقد أن الكناني -رغم إشارته إليه - فإنه لم يطلع عليه بقدر الكفاية لأنه جانب مضمون الكتاب. ولم يكن التعليق أوفر حظا من سابقه.

وإجمالا، فبالإمكان مقاربة مضمون هذا التصنيف بمحاولة رسم خطوطه العريضة استنادا إلى النص الأصلي. فقد ذكر الشيخ دحمان أن صحبته طالت «أشهرا عديدة وأياما مديدة» بقطب دائرة المعارف سيده وأستاذه المتصوف محمد بن أحمد عرف الطائفي(17) الحسني الذي كان من أشراف المدينة المنورة حيث التقى به في شهر شعبان 1218 هـ/ [نوفمبر 1803]. وقد خاضا في علوم «باطنية لدنية وأسرار غامضة عرفانية». ثم تطرقا إلى محاورات في طرق السادات الصوفية ومقامات الرجال إلى أن انجر الحديث إلى «ديوان الأخيار السادة الأبرار». يقول الشيخ محمد دحمان، وقد استرعت اهتمامه نباهة صاحبه : «..فوجدته عارفا بأقصاه وأدناه، وعالما بكيفية وضعه ومراتب أهله على اختلاف معناه ..حتى أني سألت منه - رضه - ورغبت في أن يصور لي صورة الديوان على الوصف الذي هو عليه في غار حراء ويبين لي هيئته وهيئة كل واحد/ منهم بنقطة تدل على هيئة القراء، ثم يشرح لي هيئة ذلك شرحا واضحا ويحفل على كل نقطة علامة لائحة، لأجل أن ننظر بعيني هياكل السادات الكرام وأقبل

على كل هيكل نيـابة عن الأيدي والأقدام فأجـاب -حفظه اللـه- رغبتي . . . وزاد في تلك الصورة سرا باهرا، ونورا ظاهرا بهيكل شيخي وأستاذي. . سيدي أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه (18).

ثم إن الشيخ دحمان يبحر إلى عالم صوفي رحب، لا يدرك أسراره وأبعاده وكنهه إلا ذووه من أهل التشوف والكشف، حتى يخال الدارس أنه أمام تآليف ورؤى تجنح إلى الخيال المحض بتعابير ومصطلحات، لا تقدر على حصرها إلا المعاجم وأمهات الكتب التي حفلت بتراجم أهل التصوف، أو التي تخصّصت في معالجة حدود الدلالات ومعاني دقة الكلمات وضوابط مفردات اللغة. ولما كان التصوف بمعناه الإسلامي سلوكا نمطيا يتكوم حول إطاره النظري والتجريبي، فإن أغلب المؤلفين حرصوا على استعمال الألفاظ الجارية في كلام الصوفية والتمثل بتعابيرهم.

وعلى هذا المنوال، درج الشيخ دحمان مبينا نسبية تصريف الكون لأهل الديوان، مضمنا بعض ما تلقاه من علم الباطن عن بعض «السادات الأخيار»، وبخاصة عن شيخه ومولاه الذي أشرنا إليه سابقا -أثناء إقامته بالحجاز لما جاور بالحرم النبوي الشريف ملازما أستاذه. وقد عبر عن ذلك بما نصه: . . قال (أي الطائفي):

وجميع أهل الديوان جلوس على الركب كهيئة التشهد إلا الملائكة والجن، فإنهم قائمون على الأقدام. قال رضي الله عنه: وفي وسط الدائرة على يسار الغوث تحت الأقطاب الثلاثة القطب الأكبر والعلم الأشهر مولانا أبو الحسن الشاذلي، وسيدنا ومولانا عبد السلام بن مشيش. ومن جهة اليمين القطب الأكبر سيدنا ومولانا عبد القـادر الجيـلانـي وسيدنـا عمر بـن عبـد العزيـز- رضي الله عنهم أجمعين - يتصدرهم السيد الغوث صاحب الخلعة السماوية (19). ثم يضيف:

« . . وإذا مات الغوث دفن في تلك الخلعة فيجتمع أهل الديوان في الديوان على عادتهم ويبقى موضع الغوث فارغا فتارة تنزل خلعة من السماء على من أراد الله تعالى تغويثه»(20). وفي موضع آخر، يتدرج الشيخ دحمان في ذكر مراتب الاولياء مثل الوكيل والأقطاب فالأوتاد ثم الأبدال منتهيا إلى الأخيار والأشراف. .

2 - **شرح على الحوضيّة، في التوحيد** : وهي منظومة وضعها الفقيه المالكي محمد بن عبد الرحمان الحوضي(21)، أصيل تلمسان المتوفى سنة 910 هـ / [1505 م]. أما مطلع الأرجوزة(22) فهو:

الحمد لله الذي دلّ عليـــه

إيجـادنـا ثم افتقارنـا إليـــه

الأول الفرد بلا بدايــــــة

والآخـر الباقـي بلا نهاية. .

وهي قصيدة استمد «الحوضي التلمساني» مادّتها من المقدمات المسماة بـ «أم البراهين» والعقائد الثلاثة (الكبرى والوسطى والصغرى) التي وضعها الشيخ محمد بن يوسف السنوسي «التلمساني» أيضا، المتوفى 895 هـ / 1490 م وما يليها من التعليقات والحواشي. وتعتبر جميعها مرجعا دينيا أساسيا في علم العقائد باعتبارها ركنا أساسيا قد اهتم به الشرع.

على أن التعاليق الواردة بكتاب «العمر» لحسن حسني عبد الوهاب، تشير إلى أن هذا الشرح مودع بخزينة دار الكتب الوطنية تحت الرقم 16795. وواقع الحال أن هذا التأليف أدرج ضمن قائمة المخطوطات التي تم إرجاعها عام 1983 إلى مكانها الأصلي بالقيروان ضمن ما كان يسمى برصيد المكتبة العتيقة بها.

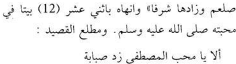
3 - **سيرتان اثنتان في المولد النبوي الشريف**: الظاهر انهما تأليفان كبير وصغير. ومن المرجح أن

تكون إحداهما النسخة الوحيدة الموجودة التي وقع التنصيص عليها بمكتبة حسن حسني عبد الوهاب وهي مخطوطة مودعة بدار الكتب الوطنية تحت الرقم 18023 بمثابة الملخص على «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» للقسطلاني.

وقد وقفت عليها، وهي تتكون من (102 ورقة) مقاسها (16 × 22 صم) كتبها الشيخ دحمان بخطه أواخر ربيع الثاني سنة 1236 هـ / [1821 م].

وللإشارة فإن الشيخ دحمان بدأ ملخصه - بعد الحمدلة- بـ «باب فيما ورد من الأخبار ببعثته صلى الله عليه وسلم».

أما آخر الكتاب فختمه بفصل في «خصائص أمته



صلعم وزادها شرفا» وانهاه باثني عشر (12) بيتا في محبته صلى الله عليه وسلم. ومطلع القصيد :

ألا يا محب المصطفى زد صبابة

فحب رسول الله عزّ ومغنـــــم

ومتع سماعك إذا أردت تـــــلذذا

بمدح رسول الله إن شئت تغنم. .

4 - أما التأليف الرابع والأخير، الذي اتفقت فيه المراجع فهو: منظومة في مشكلات «الرسالة لابن أبي زيد القيرواني» : - ولم أقف عليه ضمن أرصدة دار الكتب الوطنية التونسية- وقد عقب الكناني بملاحظة أن هذا التأليف «يشتمل على ثلاثمائة بيت. .»



الهوامش والإحالات

1) بالطرة : مما قيده الناسخ عن والده محمد صالح الجود، نقلا من خط الشيخ القاضي محمد بوراس، وانفرد به مخطوط «تكميل الصلحاء والأعيان» للكناني . انظر المخطوط 3403 - ص. 67.

2) إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان : لأحمد ابن أبي الضياف - ج. 7 / 154، نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس 1963.

3) تكميل الصلحاء والاعيان . .للكناني - تحـ. محمد العنابي، نشر المكتبة العتيقة، مطبعة الوسط، تونس 1970.

4) البكيري : ورد أسمه بالكامل بالورقة(19 ظ) من «ديباجة الأعيان» للكناني - أنظر المخطوط : 18599.

4 / 1)- نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس 1963.

4 / 2)- مراجعة وإكمال : محمد العروسي المطوي وبشير البكوش- ط. درا الغرب الإسلامي، بيروت 1425 هـ / 2005 م

4 / 3)- ط. درا الغرب الإسلامي، بيروت 1406 هـ / 1986 م

5) استقينا هذه البيانات وما يليها من «تكميل الصلحاء والأعيان»: بتحقيق العنابي -انظر الصفحات : 102، 103، 104.

6 و7) انظر «ديباجة الأعيان» للكناني: المخطوط رقم 18599 - الورقة (02 وجه).

8) «التكميل» بتحقيق العنابي : ص. 182.

9) «التكميل» بتحقيق العنابي: ص. 191.

10) «التكميل» بتحقيق العنابي: ص. 164.

11) من خط نقله الناسخ عن والده الشيخ القاضي محمد صالح الجودي مما وجده مقيدا بخط الشيخ القاضي محمد بوراس. انفردت به النسخة المخطوطة من «التكميل». أنظر الرقم 3403 – الصفحة 167.

12) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: لمحمد مخلوف – ج. 1 / ص. 369 المطبعة السلفية، القاهرة 1349 هـ.

13) المرجع السابق: ج. / 380.

14) الهادي إلى لغة العرب: لحسن سعيد الكرمي – ج2 / ص. 80، ط. درا لبنان للطباعة والنشر، بيروت 1411 هـ / 1991 م.

15) اعتمدنا على مخطوط المكتبة العبدلية المودع بدار الكتب الوطنية التونسية تحت الرقم: 9302. انظر كتاب الديوان بين الورقتين (47 ظهر) إلى (56 ظهر). وكذلك المخطوطين: 387، بين الورقتين (123 ظ) و (135و).
– وأيضا المسجل تحت الرقم: 449، بين الورقتين (85 ظ – 97و).

16) «تكميل الصلحاء» للكناني – تحقيق العنابي – ص. 163.

17) «الطائفي» كما بالنسخة المعتمدة 9302. و«الطائي» بالنسختين: 387 و449.

18) انظر: الورقتين (47 ظ) و(48 و) من المخطوط: 9302.

19) كتاب الديوان لمحمد دحمان – المخطوط 9302، الورقة: 49 ظ.

20) كتاب الديوان لمحمد دحمان – المخطوط 9302، الورقة: 49 و.

21) الحوضي: كان من كبار علماء تلمسان: عارف بالفقه والأصول، وهو من الشعراء المكثرين – انظر: «الأعلام» للزركلي ج. 7 / 195.

22) الحوضية: نظم في العقائد، منسوب إلى الحوضي. وقد تضمنها المجموع ذو الرقم: 8751 – انظر الرسالة الواقعة بين الورقتين (70 و) و(76 ظ).

23) Concordance des ères musulmane et Chrétienne pour les quatorze premiers siècles de l'Hégire : par M'hamed Bel-KHODJA, Tunis 1897.

*) وعنوان كتابه «شفاء الأبدان في المتأخرين من صلحاء القيروان».

**) القطاطين: مكان سوقهم معروف بالقيروان. وكانت عادة الاعراب وسكان البادية أن يشتروا البلغة الجديدة ويبيعون ما عندهم من البلغة القديمة لأهل الساحل بعد ان يتقطوها للإصلاح والترقيع فيقبلون عليها لأنها سميكة وتدوم على العمل ولا سيما وأن لابسيها يدهنونها بالزيت: انظر: «تكميل الصلحاء» بتحقيق العنابي –العنابي – ص. 339.

عزلــة الكائن فـوق كرسـيّ هـزاز

صـلاح الدين بوجـاه

تباغتنا آمال مختار بعمق مواضيع رواياتها، أو قل تباغتنا بإحداث مفارقة بين الأسلوب السلس المقبل على الحياة. . . والمسائل الفكرية الموغلة في الجد. فنبقى حيارى. . . يعصف بنا الشوق إلى فك رموز هذه الروايات القصيرة التي تمرق قريبا من رؤوسنا مثل السهم، فنسمع لها صفيرا حادا، ونهتف في داخلنا : ها قد نجونا هذه المرة أيضا !

ذلك هو أزيز الموت الذي يصمّ آذاننا كلما كنّا في حضرة نص من نصوص هذه الكاتبة التي ظفرت بحيز جيد بين كتاب الرواية في تونس.

من «نخب الحياة» حتى «الكرسي الهزاز». . . يمكن أن نقرّ بأن الأسلوب قد تغير، والأدوات قد غدت أجود، والقدرة على التقاط الدقائق أشفّ وأكثر نفاذا. . . بيد أن الجوهر هو ذاته : الغوص في قضايا الوجود التي تقنعنا آمال مختار. . . مرورا بحسن نصر وعز الدين المدني وحسن بن عثمان، وكمال الرياحي. . . يبقى الجرح مفتوحا نازفا، ويلبث السؤال حارقا فاغرا فاه. . . حتى الوحدة. . . والإحساس بالعزلة القاتلة.

إننا إزاء إحدى أناشيد العزلة، تسهم الكاتبة بترتيله بين يدي الكتابة، محدثة مساءلة واسعة بين التصدير ونهاية الرواية عن معنى العزلة : «في النهاية أجدني دائما وحيدة ! وحيدة حتى العزلة، أرتب في بيت نفسي أشيائي، آلامي وأحزاني، أفراحي وجنوني» !

هذا هو الإحساس المرير الذي يصحب تيه الكاتبة بين المواضيع والنصوص والشخصيات بحثا عما لا يمكن أن يكون ! وما الكرسي الهزاز هنا إلا ذلك المقعد الوثير الذي نلجأ إليه في مساء الحياة متسائلين عما يمكن أن يبقى حين نكون قد أقلعنا عن كل شيء ! بعد أن يلفّنا الصمت، ونهجر المباغتات الآتية التي كنا لوقت ما قد تصورنا أنها يمكن أن تمثل حبل نجاة !!

«تحت الشجرة مقعدان وطاولة عليها كتاب ضخم : اكتشفت أني أركب الحصان الأبيض الذي توقف بي عند الكرسي الهزاز تحت الشجرة الضخمة» !

وهل الأعمال الفنية الجيدة إلا من قبيل إحداث مواجهة بين الكائنات، مواجهة قد تقدح زند الفكر والأحاسيس الفنية المرهفة، لكنها تؤدي إلى مرارة الشعور بالوحدة القاتلة، التي نكون قد توهمنا أننا قادرون على تجاوزها. هذا هو المشغل العميق الذي ندعى إلى فك مغاليقه خلال هذا العمل المربك المحير.

قد يذهب بنا الظن في بداية الرواية إلى أننا إزاء سادية تمارسها الرّاوية إزاء والدها أولا، ثم إزاء الكائنات كلها: زوجها، عشيقها، قارئها... لكننا سرعان ما نوقن أن الإنسان عموما هو المعني بهذه السادية، الإنسان على وجه العموم والاطلاق !

«الآن ها هو يأخذ قرار مقاطعتي من غابة ضعفه الكثيفة يضفر سوط قوته من جديد ليجلدني، منذ انتبهت وحدته لا يفعل شيئا سوى أن يلف جسدي طورا بالإهمال وطورا بالحرير، ويجلد روحي بالسوط».

لكن ما تحجم الرواية عن تأكيده، أو ما تعالجه متوارية بين الحين والحين ينبع من أنّ «سوط القوة» مسلط على الجميع، الأب، الراوية نفسها، الزوج، المتقبل... مع المرور بكامل الفريق من السائرين حول هذه الشخصيات الأساسية... كأنما هم نيام، أو هم سكارى، وليسوا بسكارى !

على أساس من هذا تكون العزلة ضروبا وأنواعا، إنها العزلة في العزلة أولا، وهي العزلة في الجماعة ثانيا، وهي العزلة بحرف تاجي، تلك المطلقة.... التي ليس بعدها عزلة!

«... وقعُ الحادثة التي أكتمتها، ولا يعرفها إلا مراد ومحمد، قرار والدي بالقطيعة، وحدتي، عزلتي، وابتعادي حتى عن مجدي، كل ذلك أسقطني في تلك المنطقة الوسطى التي أمقتاها وأكره المشي المتعثر فيها، بين ضباب الحيرة وسذاجة التردد».

هكذا نُمسك بالخيط الذي يمكننا من اجتذاب جميع الأحداث في كل الإتجاهات، شمالا ويمينا، فوقا وتحتا، رغم أنّ الإنخرام لا يحدث. كل ما هنالك أنّ زاوية النظر إلى الوقائع المهمة... قد تتعمق بالتدرج، فتغدو من قبيل تلك اللعب الألكترونية الحديثة التي يمكن التعامل معها في كل الإتجاهات !

إننا إزاء لوحة تشكيلية شاسعة، ذات أركان وأجزاء ومساحات، تتآلف فيما بينها في النهاية، رغم أنّه يمكن أن يتعامل معها الناظر في جزئياتها...

ألسنا إزاء لوح فسيفساء .... بل جدارية متكاملة من الأحاسيس والأفعال وردود الأفعال المفضية في نهاية المطاف إلى ذلك الشعور القاتل بالعزلة، عزلة الكائن وغربته بين أهله وذوية، مع من يجافي ومع من يحب !

ألسنا هنا حيال الكائن البشري، الذي يشعر بفظاعة الإحساس باليتم في عالم يحاربه، في عالم مشدود إلى عين الرقيب فوق الكرسي الهزاز، دائم الحركة، فتغدو المتعة ثقيلة مجهظة، ويغيب الجسد رغم اختفاء بعض الفصول الوسطى به:

«وبدالي الموكبُ جنازة، وتأبينا لروح الأنثى فيّ، تلك التي عاندت طويلا وواجهت كثيرا. وأخيرا أسلمت رقبتها لعرف المجتمع يصنع بها ما يشاء» !

ألسنا حيال مسلك شبيبة «بالبوفارية» (سلوك السيدة بوفاري/ في رائعة غوستاف فلوبير)، حيث تبدو الشخصية الأساسية في بحث دائم على التجاوز، تجاوز ثقل شارل بوفاري، وضغط مجتمع القرية، وسذاجة العشاق المتعاقبين.

إنّ الجسد لا يزيد إحساسنا بالعزلة إلا اتقادًا، هذا هو الدرس البسيط الذي نخرج به من «الكرسي الهزاز» لكنه بسيط بساطة النصوص الكبرى، تلك التي تعالج المطلق بأدوات من جنسه، فُتعلي من شأن إحساسها بوضعية الإنسان في الوجود.

نوقن هكذا أنّ قلم آمال مختار قد تمكن من فك المعادلة بين النص الجيد / والنص العميق، إذ غاص في أعماق الإستفهامات الكبرى يقلبها على وجوهها الممكنة وغير الممكنة دون أن يفرط في سلاسة الأسلوب وبساطته وحيويته.

لكن الأمر المرعب حقا هو أن المثابرة على السير في هذه السبيل لا تحفظ من العزلة إنما تشحنها وتعمق سقوطنا في مجاهلها.

ضمن هذا السياق يبدو الفصل المكتنف بين صفحتي 64/ 73 من قبيل «بيت القصيد» أو «فصل الرواية»، حيث تواصل الراوية توقها إلى تجاوز الوحدة «بسقطات نحو الأمام» لا تفضي إلاّ إلى إشعارها - وإشعارنا- بأنها تغوص مجددا في طين العزلة اللزج!

ضمن البحث عن سراب جديد يمثل لطيفي ملاذًا من النفس والزوج، والزواج، والمجتمع... لكنه ملاذ وهمي، إذ سرعان ما تتكشف الحقيقة عارية بلا تزاويق!

«عاد الجميع إلى الرقص، لكن شيئا فشيئا لم يبق في الحلبة سواي، حتى لطفي انسحبت منه لأتوحد مع ذاتي وأخلص للفعل الوحيد الذي كنت أرتكبه وهو الرقص». لقد كانت الراوية تنصت إلى نشيج روحها، دون أن تبهر من حولها، بل كانت تبحث عن تخطي قاع الذات... الذات «المنهمكة في غسل روحها من أدرانها»، في ثرثرتها الباحثة عن العودة إلى لهو الطفولة!

«بيت القصيد» هو العمل على الدفع بنا نحو تلك القناعة الثابتة التي لا تعدو أن تكون تغنيا بالعزلة، أن تكون نشيدا للتوحد، تشبثا بالخلوة الفظيعة... بعد أن يكون قد غاب عن أذهاننا كل شيء، رقابة الأب، السخرية من المنجي، مسايرة جنون لطفي...

إننا إزاء شخصيات باهتة، كثيرا ما تبدو مجرد تعلات... مع الأحداث التي تعلن أنها تؤديها، من سهر وزواج، وسفر نحو مدارات الرعب البعيدة، مدارات البحث عن متع وقتية سرعان ما يظهر زيفها!

إننا إزاء روائية لا تخترق السائد الاجتماعي إلا قليلا، أو قُل إنها لا تخترقه إلا بمقدار... تبعا لما يقتضيه اختراق بنية الرواية وتأسيس نص جديد يُعلن عن فرادته واختلافه.

بهذا ينبغي أن نقتنع مجددا أننا إزاء كاتبة غامضة، تُوهم بالخوض في الحدث الاجتماعي والنفسي، وهجر أسئلة المنظرين... لكنها تعود إليها: «توصد الباب... وتُخرجنا من الخوخة!» مثلما يُعلن المثل الشعبي التونسي الرائع!

وما ذلك إلا لخدمة الفن الذي يؤرقها، ويقض مضجعها، فن الرواية الذي يساعد آمال مختار على «التهام الحياة بلهفة، وخسرانها، وربح الكتابة التي عثرت فيها على الملاذ، وأدركت أنّ الرواية وطنها الوحيد!»

مع النصوص الرفيعة تُثار مسألة الكتابة بعمق وحسرة، لأن السياق يقتضي العمق، ولأن الروائي الحقيقي يشعر أنّ البنية التخييلية هي عالمه الفعلي. ويرغب في أن يوجد داخلها، بل يرغب في ألا يوجد إلا داخلها!

وهذا وضع كاتبتنا في هذا النص الذي يتجاوز إبداعاتها السابقة. ومثلما يمكن اعتبار الفصل الأوسط، بين ص 64 و ص 73 «بيت القصيد» أو حجر الزاوية، في نصوص آمال مختار.

فعلا إنه يُمثل حجر الزاوية في البناء التخييلي الواسع الذي تجدُّ كاتبتنا في إنشائه من نص إلى نص، مستندة - في كل تجربة- إلى تعلة جديدة تنسج شرنقتها عليها. وهل التعلة هنا إلا العلاقة بالأب، هذه القائمة على التواصل حينا، وعلى القطيعة أحيانا، حتى أنها تُحيل -عكسيا- على صلة فلوبير بأمه.

تدرسُ مارت روبار (Marthe Robert) في كتابها الموسوم بـ «رواية البدايات وبدايات الرواية» هذه الصلة مؤكدة أنها تمثل أهم دوافع الكتابة عند فلوبير

G.Flaubert فهل نُغامر بإلقاء سؤال مواز: ألا تكون صلة آمال مختار بالأب (عبر ثنائية أوديب وألكترا) دافعا أول في هذه المغامرة الواسعة التي تخوضها.

لعل هذه السبيل في الفهم تتماشى أيضا مع ملاحظة مارت روبار في شأن الرواية عموما، بالإستناد إلى سيغموند فرويد(S.Freud):

«يقتضي منا التزام الدقة أن نشهد بوجود طريقتين لكتابة الرواية: طريقة مُدَّعي النسب الواقعي، الذي يقدم نفسه مكان العالَم دون أن يتخلى عن مواجهته، وطريقة الطفل اللقيط الذي يعوض المعركة بالهروب وإعلان الغضب، بسبب نقص الإلمام بالواقع، وندرة وسائل العمل». أكاد أشهد هنا أنّ الروائية تلتحفُ بالطريقتين معا... لتضيف إليها رغبتها في تفويض العالم وإعادة ترتيبه!

إني أتساءل عن الزاوية التي منها ينظر الرقيب الاجتماعي والأخلاقي، فيرفض مقاطع من هذا النص، ويقبل أخرى! من أية زاوية يُمكن أن تكون هذه الرواية مقلقة محيرة؟!

إن الأمر هنا ليس أمر جسد، مثلما لم يكن في محاكمة فلوبير أمر عراء أو كشف، أو عبث بمقدسات المجتمع... المسألة في «الكرسي الهزاز» مسألة استهانة بالجسد، تجاوز له واعتباره عنصرا لا أثر له في عزلة الكائن البشري! مثلما كانت المسألة مع «إما بوفاري» (Emma Bovary) نابعة من تبادل الأدوار بين الأنثى والذكر... وتحريض بوفاري عشاقها على «إتيان الفعل غير المقبول»!

الصادم في رواية «الكرسي الهزاز» اعتبار الجسد ثانويا: «فهنا لا مكان للعلاقات السوية في عرف المجتمع. فلا عائلات إلا تلك التي يسمح فيها الوالد لابنته بأن تجلس قبالته رفقة عشيقها، في لحظة حميمية، بينما يتكفل هو بتوزيع الويسكي على الكؤوس ليشرب على نخب زوجة صديقه، وتشرب زوجته على نخب صديق زوجها...»

... هكذا يخترق قلم آمال مختار حُرمة الجسد، لأنه يجعلها ثانوية غير ذات بال، ولأن حضورها ضمن هذا الكم الطاغي من الأحاسيس الحافة بغربة الكائن... حضور مزعج محير!

تقوم المسيحية عموما على البحث عن الخلاص عبر امتهان الجسد، وينشد الإسلام شيئا من التوازن بين الروح والجسد، أما رواية الكرسي الهزاز فتتغافل عن الجسد تماما، وتعتبره ثانويا، لا جدوى منه في مجال توازن الكائن البشري. لهذا فإنها تبحث على التوازن في مزلق الرواية. ولهذا فهي تبدو عملا روائيا صادما من حيث أنها تسير على غير قوانين الطبيعة!!

وما أعذب انزلاق النص فوق جسر من براعة الأسلوب، وتغنيه ببهاء «الأندلس المفقود»:

«تحررت الروح من أوزارها، وانطلق الجسد كسهم يركض في شوارع المدينة يتشمم رائحة الأجداد في الزوايا المعتمة، وملامس التراب الذي كان لنا ثمّ أصبح لهم... جلسنا على الدرجات المبلطة بحجر مصقول نقشته الأقدام العربية بخطواتها منذ آلاف السنين».

كم هو خفر هذا النص، كم هو أعزل الإنسان في بحثه عن التوازن المفقود!؟ إنّ المراوحة بين الأزمنة تجعل القارئ في مواجهة لعبة « الفلاش باك»، تلك التي لا تختلف كثيرا عن ايقاع الكرسي الهزاز، في تأرجحه بين الماضي والحاضر، لهذا جداوه في بناء أحداث الرواية، لكنه ذو جدوى أيظا في ترميم جوانب الروح:

«اشتهى أن يكون الزمان الآن فجرا. أشتهى أن يأتيني الاله وأظل في غيبوبة أعي ما يحدث ولا أستطيع

الحراك». ألسنا حيال طقوس صلاة وثنية؟ هل نرجع هنا إلى قداس الكتابة، حيث تبدو خلوة الإبداع صنوا لضرب من التعبد؟ !

العزلة، انخرام التوازن بين الجسد والروح، الاحساس بصعوبة التواصل بين الكائنات، هوانُ الجسد . . . في معنى اعتبارغوايته غواية غير ذات بال، محدودة الفعل، يصعب أن تتصف بالدوام، ثم عسر الصداقة، العلاقة بالأب، خسران الرموز الكيانية . . . التجاذب بين الفرح والحزن !

هذا كله من قبيل النواميس التي تعمل الكاتبة بفضلها ازميل الفن بخبرة استثنائية، تقنع القارئ بأننا إزاء قلم من أجود الأقلام التونسية، يرد في سياق خريف، والمدني ونصر، وبن عثمان، والرياحي.

هكذا تدرك الكاتبة أن «الكتابة وطنها الوحيد». فهل نلج لعبة تعريف الكتابة، فنسير شرقا، وتطوح بنا السبيل غربا، ثم نتئد لنعلن : «الكتابة هي الوطن الذي يستقبلنا حين نكون بلا وطن !» أخشى أن يكون هذا صحيحا . . . على معنى الإطلاق !



شعريّـة العبـارة في «أغانـي الحيـاة»

مصطفى القلعي

يتناول هذا البحث دراسة عبارات أربع من ديوان الشابي حدسا بأنّ العبارة تختزن الكثير من أسرار شعريّة الشعر. وتمتلك مفاتيح الدلالة الشعريّة المغلّقة قدّام المتلقّي. والنقد العربيّ المتابع لتجربة الشعر العربيّ المعاصر استهلك طاقاته في تكرار المداخل نفسها، منذ منجزات الروّاد؛ نازك الملائكة وعز الدين إسماعيل وإحسان عبّاس وأدونيس. نعني مداخل الصورة الشعريّة والايقاع والبنية وزمن الشعر والدراما... إلخ ولم يلتفت الخطاب النقديّ العربيّ إلى دراسة اللفظ أو العبارة في الشعر الحديث بدعوى الحفاظ على ما يسمّى وحدة القصيدة. والعبارة من شأنها أن تحرّر البحث من إسار البحث في شعريّة النصّ أو شعريّة القصيدة أو شعريّة الشعر. وهي جميعا مسالك مشرّعة نتائجها على التعميم والإجمال الموهمين برصد ما يسمّيه الخطاب النقديّ القوانين الشعريّة.

1 ـ «نهر الحياة المتوهِّج»:

عبارة «نهر الحياة المتوهِّج» (1)، مثلا، تخرج المعنى من الوضوح إلى الغموض، من المباشرة إلى التخييل، متى تمكّنت القراءة من تفكيك علاماتها وفكّ شفرة رموزها وصياغة دلالاتها الأصيلة. فهي تتكوّن من موصوف مركّب وصفة مفردة. وقانون الإضافة النحويّ هو ما يشدّ لفظي الموصوف بعضهما إلى بعض. وقانون النعت النحويّ هو ما يربط الصفة بلفظي الموصوف. واللفظان اللذان يشكّلان الموصوف هما: «نهر» و«الحياة». «نهر: النَّهْر والنَّهَر: واحد الأنهار، وفي المحكم: النَّهْر والنَّهَر من مجاري المياه (...) ونَهَرَ الماءُ إذا جرى في الأرض وجعل لنفسه نَهَرا. ونَهَرتُ النَّهْرَ حفرتُه. ونَهَرَ النَّهْرَ يَنْهَرُهُ نَهْرًا: أجراه. واستنهر النَّهْرَ إذا أخذَ لمجراه موضعا مكينا» (2).

و«الحياة: نقيض الموت (...) وأحياه: جعله حيّا (...) وأحْيا بفتح الهمزة وسكون الحاء وياء تحتها نقطتان: ماء بالحجاز» (3). والإشارة الأخيرة تسعفنا بعلاقة بين «الحياة» و«النهر». وقد كتب ابن منظور فصلا مشوّقا مداره البحث في حبال العلاقات السريّة بين «الحياة» ومشتقّاتها: الحياء والحيّة والتحيّة والحيّ والمحيّى... إلخ ولم أجد أيّة إشارة إلى علاقة دلاليّة أو اشتقاقيّة بين«الحياة» وبين النار أو «التوهّج».

و«المتوهِّج» هي صفة الموصوف. والتوهّج صفة

من صفات النار. إذ أنّ «وهج: يوم وهِجٌ ووهْجان: شديد الحرّ. وليلة وهِجَة ووهجانة كذلك (...) والوهَج والوهْج والوهَجان والتوهّج: حرارة الشمس والنار من بعيد. ووهَجان الجمر: اضطرام توهّجه (...) والوهْج بالتسكين: مصدر وَهَجَت النار تهِج وهْجا ووَهَجَانا إذا اتّقدت (...) والوهَج والوهيج: تلؤلؤ الشيء وتوقّده.» (4). يحتفظ النهر في الذهن البشريّ بدلالة على الخصب والرواء والبرودة والانتعاش. وهو يوصف عادة بالجريان أو بالسيلان أو بالضيق أو بالاتّساع أو بالعمق أو بكثرة الأسماك أو بالجفاف... إلخ ولكنّه لا يوصف بالتوهّج. وليس في لسان العرب، كما لاحظت أعلاه، ما يشير إلى أيّة صلة دلاليّة بين الموصوف والصفة. وسأجمل أوصاف الألفاظ الثلاثة داخل النظام اللغويّ العربيّ في الجدول التالي لغاية توضيحيّة:

	نهر	الحياة	المتوهّج
1	مفردة	مفردة	مفردة
2	نكرة	معرفة	معرفة
3	مجرّدة	مجرّدة	مزيدة
4	مصدر	مصدر	إسم فاعل
5	مشتقّة	مشتقّة	مشتقّة
6	من جذر سالم (ن. هـ. ر)	من جذر لفيف مقرون (ح. ي. و)	من جذر مثال (و. هـ. ج)
7	مضاف	مضاف إليه	
8	منعوت		نعت

الاشتقاق والإعراب وإنتاج الإسم:

قد تمرّ عبارة الشابي «نهر الحياة المتوهّج» دون أن يسمع وقعها سامع. وقد لا تتفطّن القراءة النقديّة إلى كثافتها وشعريّتها التي أنتجتها شعريّة المجال اللسانيّ الحيويّ. لكنّ هذه العبارة تمنحنا فرصة تاريخيّة لمتابعة عمليّة إخراج شريط إنتاج الشعر (une mise en scène)، يؤدّي الأدوار فيه لاعبون (Acteurs). ويشرف عليه مخرج محنّك في فضاء ديكور حاضن معدّ بعناية فائقة ومهيّإ بامتياز (par excellence) لذلك.

أمّا اللاعبون فهم مكوّنات الخطاب اللغويّ وأنظمته؛ المعجم والاشتقاق والإعراب. وأمّا المُخرج فهو الشاعر. وأمّا الفضاء الحاضن فهو شعريّة المجال اللسانيّ الحيويّ. ذلك أنّ الشعر يشتغل داخل النظام اللغويّ المعروف المتداول. وهو، هنا، يتحرّك في إطار أنظمة العربيّة الاشتقاقيّة والإعرابيّة والتركيبيّة. وهو يعمل بنفس الرصيد المعجميّ الذي يتوفّر لمستعملي نفس اللغة. ولكنّه الشعر..

يكفي أن نقرأ الخانات 4، 7 و8 المتّصلة بالصيغة الصرفيّة والوظيفة النحويّة في (الجدول رقم 05) لنتمكّن من رصد جانب من الجهد الإبداعيّ الذي صرفته اللغة الشعريّة في القصيدة وهي تؤدّي دورها في إثراء طاقات اللغة الدلاليّة وفي تجديد القاموس التعبيريّ. فصيغة لفظيْ «نهر» و«الحياة» هي صيغة المصدر بوزنين مختلفين. والمصدر يسمّي الحدث مطلقا دون نسبة إلى فاعل بعينه أو إطار ما. فهو صيغة جامدة لا حياة فيها بذاتها. وهي المفارقة!!

فالنهر من أهمّ صفاته السيلان والتجدّد. وكذا الحياة لا تعرف الأناة ولا التوقّف ولا العجلة. إنّما هي متقدّمة، دائما، بنسق تختاره وتتحكّم فيه. ولا تراعي في نسقها ذاك شيئا. ولذلك قلت إنّ الصيغة التي احتضنت لفظي «نهر» و«الحياة» لا تعبّر عن دلالتيهما. بل إنّها تناقضهما تماما. فهي دالّة على الجمود والثبات. وهما الحركة والتجدّد.

أمّا لفظ «المتوهّج» فصيغته الصرفيّة اسم فاعل. وهي صيغة أوسع من صيغة المصدر إذ تشترك معها في الدلالة على الحدث مطلقا. وتزيد عليها في

الدلالة على الذات التي أنجزت الحدث. فهي صيغة حيّة متحرّكة فاعلة في غيرها، تفترض دائما فاعلا يؤدّي فعلا ما، وفعلا يحدث في زمان ما ومكان ما، ومفعولا يتلقّى الفعل أو يستفيد منه. إنّها صيغة احتفاليّة تحبّ الجماعة.

المصالحة بين صيغة اللفظ ودلالته:

هذه الملاحظات التي خرجت بها القراءة الاشتقاقيّة تفيد الباحث في إمكانيّة إضاءة جانب من شعريّة عبارة الشابي النموذج «نهر الحياة المتوهّج». فلكأنّ صيغة اسم الفاعل «المتوهّج» بحيويّتها وفاعليّتها في غيرها منحت صيغة المصدر ما به تتوحّد مع دلالتي لفظي «نهر» و«الحياة» الأصليّتين، فتُفارق المفارقةَ. وتستعيد طفولتها الطبيعيّة؛ طفولة انسجام الأسماء مع مسمّياتها. إنّ الشعر، هنا، أدّى دورا عظيما: فلقد وفّر لصيغة اللفظ ودلالته فرصة للمصالحة. فأعاد للغة انسجامها البدئيّ المفقود الذي قد يكون فقدانه هو المسبّب الرئيسيّ للفوضى الحاصلة في الكون، اليوم.

وقد أدّى قانون الإضافة النحويّ دوره في إضافة لفظ «نهر» إلى لفظ «الحياة». فخلق من تضايفهما معنى وليدا مبتكرا. وابتكاره ناتج أساسا عن كون أبويه ليسا من نفس الجنس. فلفظ «نهر» اسم يعود على مسمّى ماديّ مدرك معلوم له صورة وشكل مجسّمان في الكون. وهو مسمّى ثابتة صورته في الذاكرة البشريّة. أمّا لفظ «الحياة» فهو لفظ مائع لا يحيل على مسمّى مجسّم في الكون. إنّه مفهوم (concept) ذهنيّ وتصوّر تجريديّ يسعى من خلاله الإنسان إلى تعيين وجوده قصد تمثّله. وتجريده ناتج عن إكراهات اللغة التي لا تمنح الإنسان دائما أسماء واضحة مدركة معلومة، من جهة، وناتج عن إكراهات الوجود المتسربل بالغموض، من جهة ثانية.

إنّ عمليّة إضافة الصورة المدركة بالحال إلى المفهوم الذهنيّ المتصوَّر هي التي شرعت في استدراج اللفظين من واقعهما اللغويّ المألوف المستهلك نحو أفق دلاليّ مبتكَر لم يتشكّل بعدُ واقعا لسانيّا. ولم يعرفه اللفظان منفردين. بل، فقط، من تضايفهما فتح عينيه.. ووُجِدَ. كذا تعمل اللغة في شعريّة المجال اللسانيّ الحيويّ. ولعلّ ذلك العمل هو الذي عناه أدونيس بقوله: «قيمة العمل الشعريّ لا تكمن في مدى كونه واقعيّا أو حقيقيّا أي في مدى كونه «يمثّل» أو «يعكس» و إنّما تكمن في مدى قدرته على جعل اللغة تقول أكثر ممّا تقوله عادة، أي على خلق علاقات جديدة بين اللغة والعالم، وبين الإنسان والعالم» (5).

أنظمة اللغة تحتفل:

لقد جعلتنا عبارة الشابي المدروسة نشهد أمرا عظيما؛ أنظمة اللغة وهي تشتغل في النصّ متضافرة خلال إنتاج العبارة الشعريّة. فتربط بين ما تقرّر في الذهن معزولا عن سواه غير مترابط. وتدرجه في سياقات وعلاقات جديدة لم تكن له. وهي في كل ذلك تعمل داخل أنظمة العربيّة وقوانينها. «فإنّ اللغة تسمح لنا بأن نربط بين مفهومات تقرّرت فعلا في الذهن. إنّها تعمل من خلال استخدام القواعد التي تعرف جملة باسم «النحو» (...) النحو لا يشير إلى القواعد المفروضة فرضا التي صارعها بعضنا في المدرسة، بل إلى مجموعة من القواعد التي لا نعيها إلى حدّ بعيد. ولكنّها تحكم كلّ الأشكال الطبيعيّة من الكلام البشريّ» (6). والأكيد أنّ كورباليس يقصد بـ «النحو» اللغة، ولا يقصد علم الإعراب فقط. وهذا الاستعمال وذاك القصد مألوفان عند العلماء العرب القدامى.

خليّة نحل كانت اللغة وهي تعمل، لا تهدأ ولا

يصيبها الكلل. فهي لا تكون إلاّ حين تكون شروطها. وشرط كينونتها الرئيسيّ هو الشعر. وفيه تشرع اللغة في تحويل الشعريّة بالقوّة إلى شعريّة بالفعل، كما قال كوهين. «والذي ينبغي قوله هو أنّ الأشياء ليست شعريّة إلاّ بالقوّة، ولا تصبح شعريّة بالفعل إلاّ بفضل اللغة. فبمجرّد ما يتحوّل الواقع إلى كلام يضع مصيره الجماليّ بين يدي اللغة، فيكون شعريّا» (7). فهذه اللغة.. وهذا الشعر.

وحين يكون الكلام شعرا لا شيء آخر سواه، يكون الاحتفال، احتفال أنظمة اللغة النابضة بالحياة لأنّها مُنحت فرصة نفض غبار العطالة عنها والإقبال على العمل من أجل تحقيق الوظيفة الشعريّة في الشعر، والشعر يعي جيّدا المشاكل العامّة للغة التي نبّه إليها ياكبسون، ويراعيها مراعاة كاملة. فـ«لا يمكن أن تُدرس الوظيفة الشعريّة بنجاعة إذا نحن تغافلنا عن المشاكل العامة للّغة؛ ومن جهة أخرى فإنّ تحليلا دقيقا للغة يفترض أن نأخذ الوظيفة الشعريّة بعين الاعتبار وبجديّة. فكلّ نيّة هدفها اختزال دائرة الوظيفة الشعريّة في الشعر أو حصر الشعر في الوظيفة الشعريّة لن يؤدّي إلاّ إلى تبسيط مبالغ فيه وخادع» (8).

لقد خلِق مولود جديد. وهو ثمرة تضايف لفظي «نهر» و«الحياة». خلق ممتنّا إلى قانون الإضافة النحويّ يدين له بالحياة. لكنّ قانون الإضافة يتوقّف دوره عند هذه العتبة ليسلّم مهمّة تنشئة المولود الجديد إلى قانون نحويّ آخر: النعت. فتسلّم النعت المهمّة وأنجزها. وقام بتخصيص عبارة «نهر الحياة» عن غيرها من الأسماء بأن نعتها بصفة مميّزة لها هي صفة «المتوهّج». فشهدنا حدثا عظيما: خلق عبارة جديدة في المعجم شابّة غضّة نديّة مستجيبة لأنظمة العربيّة كلّها استجابة تامّة هي عبارة «نهر الحياة المتوهّج». فهذا الشعر.. وهذا حدث ميلاده أشهدتنا عبارة الشابي عليه.

العبارة الشعريّة أثناء العمل:

إنّ ما فعله الشعر هو أنّه التفت إلى مجاله اللسانيّ الحيويّ الذي فيه نشأ وولد. وهو مجال مشهديّ بانوراميّ متنوّع متعدّد مشكّل من حياة وموت وبشر وكائنات حيّة وأخرى جامدة وأنظمة وعدل وظلم وجمال وقبح ومراتب ومشاعر وأرض وطبيعة ومدينة ولغة...إلخ. واستعار من هذا المجال اللسانيّ الحيويّ ثلاثة ألفاظ مستعملة فيه. بل لعلّ لفظي «نهر» و«الحياة» لفظان مستهلكان وفاقدان لكلّ طاقة شعريّة. ثمّ تولّى الوصف إدراج الألفاظ الثلاثة في علاقة نسبة وتعريف غير مألوفة في الخطاب اللغويّ عبر التركيبين النحويّين؛ الإضافة والنعت. فأنتج عبارة معلومة مجهولة، واضحة غامضة، بسيطة معقّدة. هي معلومة واضحة بسيطة لأنّها تتكوّن من ألفاظ أليفة في المعجم العربيّ بفعل التداول. وهي مجهولة غامضة معقّدة لأنّ دلالة التأليف المبتكرة في القصيدة بين الألفاظ الثلاثة تحتاج إلى عمليّة تفكيك وتأويل وإلى خبرة معجميّة وإلى دراية بأنظمة التركيب والتعبير وإلى صبر وأناة حتى تَبين أو تبرق قليلا على الأقلّ.

إنّ الشعر قد أدّى دوره. فالشاعر "أمير كلمات" (9)، كما عبّر الخليل (ت 170 هـ). فيها يفعل. وبها يصنع مجده إن تمكّن من صنع مجدها. ولن يتحقّق له ذلك إلاّ إذا وجّه أدواته نحوها ليستلّها من رطوبة القواميس. ويكنس عنها غبار إبريل. ويمنحها إمكانيّات دلاليّة جديدة تضمن لها حياة أطول. وهذا ما فعلته عبارة الشابي «نهر الحياة المتوهِّج»، بل أكثر، إذ نجح الشعر، من خلالها، في أن يجعل أنظمة اللغة تتصالح فتتعاضد في القصيدة لترفد بها شعريّتها المتفرّدة.

كرَم الكلمات:

إنّ العبارة الشعريّة المبتكرة المكثّفة عبارة كريمة

تمتلك حيويّة (vivacité) تفيض عليها لتغمر القصيدة كلّها فتملأها شعرا بعد أن تدخل في علاقات تركيبيّة ودلاليّة متشابكة مع بقيّة مكوّنات القصيدة. ولعلّ ما بلغه التحليل المتّصل بعبارة الشابي هذه قريب ممّا كان الفيلسوف الفرنسيّ جيل دولوز (Gilles Deleuze) قد التقطه عند قراءته فوكو من أنّ العبارة المنتجة في الكلام ثمينة جدّا لأنّها نادرة. وحدث إنتاج العبارات لا يتكرّر كثيرا. وليس المهمّ في العبارة أصالتها أو تقليدها أو جدّتها. وإنّما المهمّ هو ما تؤدّيه من دلالات في الفضاء الذي ينتجها.

يقول دولوز: «لم يتوان فوكو عن طمأنتنا بالإشارة إلى أنّه إذا كان من الصحيح أنّ العبارات طفيفة ونادرة في أساسها، فلا حاجة تدعونا أصلا إلى توليدها وإكثارها. إنّ العبارة لا ترسل دوما سوى خصوصيّات ونقط فريدة تتوزّع داخل فضاء يوافقها. يطرح تكوين هذه الفضاءات، كما يطرح تحوّلها، مثلما سنرى، قضايا لها علاقة بموقع العبارة بين العبارات الأخرى. وتمنعنا من النظر إليها من زاوية الإبداع والخلق والأصل والأساس. أي أنّنا فيما يتعلّق بالفضاء، في غنى عن البحث في ما إذا كانت العبارة تدشّن، لأوّل مرّة، مرحلة جديدة من تاريخ الخطاب، أو أنّها مجرّد تقليد واقتفاء لعبارة أخرى أو استنساخ لها لأنّ ما يهمّنا هو انتظام العبارة (...) وعليه «يغدو التعارض بين الأصالة والابتذال تعارضا في غير محلّه» (10). فما التأصيل سوى إعادة إنتاج للمبتذل المستهلك المألوف وإكسائه زيّا فنيّا يجعله قادرا على الإيفاء بحاجات المتلقّي الجماليّة، من جهة، ويضمن للنصّ المنتج الحامل للشعريّة حياة أطول.

لقد كانت عبارة «نهر الحياة المتوهّج» نموذجا أخذتُه اتّفاقا من قصيدة من قصائد عام الشابي الأخير 1934 لدراسة اللغة وهي تضع عباراتها الوليدة. لقد نجح الشعر، من خلال هذه العبارة، في تحقيق إنجازين الأوّل له والثاني للوصف؛ له: اكتشف موارد شعريّة جديدة لقصيدة مطاردة من قديمها مطالبة بالمعاصرة، وللوصف: فطّنه على إمكانيّات شعريّة كامنة فيه مهملة تسمح له بالحياة في أرض أخرى غير أرض السرد القصصيّ. كذا كانت العبارة الشعريّة تعمل في خفايا ديوان الشابي وفي أعماقها.

2 ـ «العالم مازال يولد»:

إنّ عبارة الشابي هذه «العالم مازال يولد» (11) عبارة فاتنة على عاديّتها، في الظاهر. فهي تدلّ على أنّ الرؤيا الشعريّة هي، الآن، بصدد الإطلالة على مشهد عظيم ذي جلال؛ مشهد الوضع. إنّها ترى السديم والأمواه لحظة وضع العالم في الزمن السرمد (12). وحين نتقدّم قليلا في الإصغاء إلى دلالات العبارة، نسمع الرؤيا الشعريّة وهي تبدّد مسلّمة من مسلّمات الإنسان حين تكشف عن أنّ الحياة لم تهرم بعد، بل على العكس من ذلك تماما، هي مازالت تتدرّب على تثبيت الخطوة الأولى في مرحلة الطفولة الكونيّة. وعوّلت الرؤيا الشعريّة على ثلاث أدوات رئيسيّة شكّلت مجتمعة العبارة المعبّرة عن معنى طفولة الكون والحياة: وهي معجم الولادة الدال على خلق شيء لم يكن، وصيغة المضارع التي تدلّ على أنّ الحدث المرصود لم يتمّ لحظة الإخبار عنه ولم ينته، والناسخ الفعليّ «مازال» الدالّ على الاستمرار.

واستمرار فعل الخلق منذ الزمن السرمد إلى لحظة الرؤيا تمّ إسناده إلى العالم، فهو المولود. وعبارة الشابي «العالم مازال يولد» لا تحمل ضمن معانيها الحافّة إشارة إلى معنى عسر الولادة، مثلا. وإنّما تدلّ العبارة على أنّها تصف حدثا جللا عظيما لا يحدث مرّتين ولا يتكرّر. ولم يحدّث عنه إلاّ خطابان عظيمان، أيضا، الخطاب الأسطوريّ

والخطاب الدينيّ. لكنّ العبارة الشعريّة لم تكرّر ما قالاه عنه. وإنّما تمثّلته واستلهمته في صياغة رؤية الشعر الخاصّة حوله.

فالخطاب الدينيّ، مثلا، كان قد أثبت أنّ فعل الخلق استمرّ ستّة أيّام (13). وفي اليوم السابع كان الكون مولودا سويّا. أمّا العبارة الشعريّة فقد كشفت عن أنّ هذا الفعل لم ينته، بعد. بل مازال يحدث. ولعلّه لن ينتهي. وقد لا يكون ما يخشاه الإنسان معتقدا أنّه فعل النهاية سوى نهاية للبداية، أعني لفعل الخلق. وبعدها يكون البهاء.

تبعا لذلك، فما حضارة المدينة إلاّ الخطوة الأولى على درب الوجود الإنسانيّ في الكون الوليد. وبما أنّ هذه الخطوة لم تسعف الإنسان الطفل في سعيه المعذّب نحو استعادة إنسانيّته المفقودة، فمازالت أمامه الفرصة لاستبدالها بتغيير الاتّجاه نحو سبيل أخرى قد تحقّق له ما أراد. ولعلّها تكون تجربة أخرى غير تجربة الحضارة!! فماذا يمكن أن تكون؟ البهاء؟

تتأكّد، من خلال هذه العبارة، كفاءة العبارة الشعريّة في استلهام الأساطير والأديان. وهذا الاستلهام لا قرينة واضحة تدلّ عليه في السطح. وإنّما هو حدث يتمّ في أعماق الخطاب الشعريّ وهو يكون ويتراءى في البنية العميقة لدلالة العبارة. ولا ينكشف للقراءة العجلى أو لقراءة النصّ من خارجه أو بغير أدواته، أدوات قراءته التي يجب أن تستلّ من النصوص نفسها لا من خارجها.

3 ـ «يا ابن أمّي» (14) :

إنّ هذه العبارة نداء. وقوام النّداء المباشرة. وهي من خصائص الخطاب السياسيّ. والنّداء هو عند سيبويه (تـ 180هـ) تنبيه يوقعه المتكلّم ليعطف به المخاطَب عليه، فأوّل الكلام أبدا النّداء، وهو إمّا أن يفيد تخصيص المخاطَب بالكلام الذي يأتي بعد التّنبيه لجعله معنيًا به من دون غيره، وإمّا يفيد توكيد المخاطَب في حال كون المخاطَب يعلم أنّه المعنيّ بالكلام ولكنّ في ندائه زيادة تنبيه وتوكيد وإثارة، وربّما كان ذلك رغبة من المتكلّم في إقناع المخاطَب بمضمون ما سيُعلمه به من كلام (15).

النداء تنبيه، تخصيص، توكيد، إثارة. والمباشرة فيه إحدى أهمّ خاصيّات الخطاب السياسيّ، التقطتها القصيدة من مجالها الثقافيّ الحيويّ. ودفعت بها في أتون مَحرَقها الملتهب حيث تتصارع مكوّنات آتية من ضروب متنوّعة من الخطابات، تتجادل. فتلقّت المباشرة تحويلا صارت بموجبه أداة لتكثيف المعنى من خلال العلاقة الفريدة التي نشأت في النّداء بين منتج الخطاب وبين كلماته وبين متلقّيه؛ علاقة فيها يبدو المتكلّم حريصا على كلماته، عليها يمارس وجده وهدهدته. ولذا، فإنّه يعمد إلى تنبيه المخاطب حتّى يتهيّأ لاستقبال الرّسالة.

إنّ في النداء إكراما للمخاطب/ المتلقّي، فالشاعر خصّه بكلماته؛ كلماته التي هي مزيج من عواطفه وأفكاره وأحلامه ومخاوفه وأحزانه وحتى من طفولته؛ طفولة اللّغة والكونُ يهرم. في الكلمات شيء من صاحبها أو أشياء. وفي هذا النداء تأكيد على وعي الشاعر بتسامي الكلمات وتعاليها. . التسامي والتعالي اللذين يدعوان المخاطب إلى أن يتخلّص ممّا يكدّر صفاء استقبال القصيدة؛ مضمون الرّسالة التي يوجّهها الشاعر المنادي للمنادَى. الإكرام، إذن، هو ما توصف به العلاقة بين الشاعر والقصيدة والمتلقّي. هذا ما يقوله النداء في عنوان قصيدة الشابي "يا ابن أمّي" (16).

إنّ عمليّة تكثيف المباشَرة يمكن رصدها في المنادَى أيضا. فالقصيدة تُعرِض عن الواضح المألوف الممجوج العاري من الشعر بفعل الاستعمال المتكرّر. وتستبدله

بما يدلّ عليه. إنّها تُعرض عن الجاهز إلى المبتكر الذي لا يمنح نفسه بسهولة. والقصيدة، كما لاحظنا، لا تبتكر أسماءها من خارج مجالها اللغويّ والثقافيّ الحيويّين، إذ أنّ عبارة «ابن أمّي» عبارة كثيرا ما تساق في اللسان العربيّ، وفي اللسان العربيّ وحده دون سواه (17).

على مستوى التركيب النحويّ، الإضافة هي ما يشدّ أجزاء هذه العبارة بعضها إلى بعض. والإضافة إضافتان: ابن + أمّ (+) أمّ + أنا : تؤولان إلى هذا التركيب: ابن + أمّ + أنا. إنّ كلمة "أمّ" هي الواسطة الواصلة بين طرفي العبارة: "ابن" و "أنا". فـ "ابن" احتمى بـ "أمّ"، وانضاف إليها، فاستضافته. و"أنا" اتّحد معها، واتّصل بها، فوصلته. أنت ابنها، وهي أمّي، وهي أمّك. أمّك هي أمّي. أنت وأنا هي أمّنا. أنت وأنا، إذن، شقيقان: احتماء، ضيافة، اتّحاد، اتّصال، أخوّة ووصال؛ هذه وجوه العلاقة بين المتضايفِين، في عنوان القصيدة.

لقد تمكّنت القصيدة من أن تقع على بعض أسرار قوّة قانون الإضافة النحويّ، وأن تحرّك طاقاته الشعريّة. والقصيدة، بذلك، أدّت وظيفتها الأساسيّة: تجديد طاقات اللغة التعبيريّة بإخراجها من سطوة المعنى القاموسيّ الذي أنهكها، واستثارة الأبعاد الشعريّة الكامنة في القانون النحويّ. "إنّ الأدوات الشعريّة الخفيّة في البنية الصرفيّة والتركيبيّة للّغة، وباختصار إنّ شعر النّحو، ونتاجه الأدبيّ، أي نحو الشعر، نادرا ما اعترف بها النقاد. وقد أهملها اللسانيّون تقريبا إهمالا كاملا. وعلى النّقيض من ذلك، فإنّ الكتّاب المبدعين غالبا ما عرفوا كيف يستثمرونها" (18)، كما تثبت قصيدة الشابي هذه.

معنى الأمومة وما يدلّ عليه من دفء، ومعنى الأخوّة ودلالته على الاحتماء والإحساس بالأمان هو ما تمكّنت هذه العبارة من إنشائه. إنّ عبارة "يا ابن أمّي" مكثّفة حتى فاضت عنها الدلالة. فممّا هو واضح أنّ الأمّ المقصودة هي أمّ الوجود؛ الأرض رغم الحدود التي أقامتها السياسة. وليست أمّ الرّضاع، والاثنتان تنجبان الحياة. و"ابن أمّي" هو الاسم الذي أطلقته القصيدة على الإنسان. فلو ذهبنا إلى أنّ رابطة الأخوّة الدمويّة هي المقصودة بعبارة "ابن أمّي" لجرّدناها من كثافتها لأنّها تصبح علامة على الشقشقة اللفظيّة وعلى توشية الكلام وتحليته. إنّ الشاعر على وعي تامّ باللغة وبطاقاتها وبحياة الكلمات فيها. لقد كشف الشعر عن أنّ الكلمات لا تموت. وإنّما تخفت طاقاتها التعبيريّة وتذبل متى فقدت مجالها الحيويّ؛ أرض القصيدة حيث تكون وتنمو. وقد تمكّنت القصيدة، من خلال هذه العبارة، من أن تتجاوز أسوار المحليّة الضيّقة لتطال رحاب الإنسانيّة. فابن أمّي هو الإنسان متى وُجد وحيثما وجد.

الأمومة والطاقة الدلاليّة الانتشاريّة :

لعبارة "ابن أمّي" طاقة دلاليّة انتشاريّة تحقّقت لها بفعل تفاعلها مع بقيّة المكوّنات في القصيدة. فبفضلها تنشدّ المعاني بعضها إلى بعض منذ العنوان إلى آخر القصيدة. ذلك أنّ الخطاب موجّه كلّه إلى ضمير المخاطب المفرد المذكّر، أنت: خُلقتَ، تغرّد، تمرح، تقطف، ما لك ترضى، تُسكت، تقنع، انهض، سِر، لا تخش. . .وهو موجّه إلى المتكلّم بنفس الدرجة، يعني ما هو موجّه لـ " أنت " موجّه، في اللّحظة نفسها، لـ "أنا".

وبما أنّ العلاقة بين المتكلّم والمخاطب/ بين المنادي والمنادى/ بين أنا وأنت، قد حسمت منذ العنوان بوصفهما إنسانين أخوين ابنين لنفس الأمّ، فإنّ الخطاب الذي يوجّهه المتكلّم إلى المخاطب عليه يعود، وبه يتعلّق أيضا. فالمتكلّم لا يشتم المخاطب أو يحقّره أو يهجوه. وإنّما يستنكر فيه ما حلّ بالمنزلة

الإنسانيّة من مهانة على الأرض. ويستنهض الإنسانيّة جمعاء لاستعادة رمزها الوجوديّ الأعظم: الحريّة التي أبادتها السياسة. إنّ عبارة "ابن أمّي" عبارة مكثّفة جدّا حتى إنّها تختزل علاقة الشعر بالوجود: أنت + أنا = الإنسانيّة، الأمّ = الأرض. فالبنية الدلاليّة الانتشاريّة تعني أنّ كلّ ما في القصيدة من معان وتراكيب وصور متّصل بعبارة "يا ابن أمّي". إنّها المآل والمضخّة الدلاليّان، عندها تلتقي الدّلالات جميعها، تنتشر في أثناء القصيدة، ثمّ تعود إليها من جديد. وهو ما يمنحها طاقة دلاليّة انتشاريّة تعزّزت بفضل مصدر آخر من مصادر تكثيف شعريّة الشعر في القصيدة، مصدر وليد للأوّل هو معنى الأمومة نفسه.

فجملة من المعاني عنه تتناسل. وشبكة من العلاقات به ترتبط. منها المعنى الكامن في رمز الأرض باعتبارها أمّ الوجود وأمّ "ابن الوجود" (19)، ومعنى الأخوّة باعتبار أنّ رابطة الأمومة هي الأصل لها. فالمعاني في القصيدة ملتفّة جميعُها إلى عبارة العنوان، هي وليدته، عنه صدرت، وإليه تنشدّ، وبتأثيره تتعانق وتتضافر. إنّ عبارة العنوان تمارس أمومتها على معاني القصيدة الأخر. فتنجح في تأسيس شبكة فريدة من العلاقات بين المعاني هي أصلها. وهي معادها، أيضا.

4 - «خلقت طليقا كطيف النسيم» :

إنّ النّظر في هذا التشبيه الأوّل من البيت الأوّل من قصيدة الشابي «يا ابن أمّي»، التي كنّا بصدد دراسة عنوانها، كاف لرصد هذا الجهد الإبداعيّ الذي صرفته القصيدة، مستندة على قدراتها الذاتيّة، لانتشال البلاغة العربيّة من التحجّر والتكلّس اللذين أصاباها، ولتسمية الوجود.

تلحّ كتب البلاغة العربيّة على أنّ المشبّه، المراد التمثيل له، والمشبّه به، المراد التمثّل به، ركنان أسّان لا يقوم التشبيه إذا غابا أو غاب أحدهما. والعلاقة بينهما تتمثّل في الاشتراك في صفة أو أكثر تجمع بينهما، وتكون أشدّ وأظهر في المشبّه به. ولأنّ وظيفة التشبيه تقريب المعنى من المتلقّي فمن شروطه، ضمنيّا على الأقلّ، أن يتمّ تشبيه المعلوم بالأشدّ علما والمعروف بالأكثر معرفة كتشبيه المرأة بالبدر أو البطل بالأسد... إلخ فعلاقة المشابهة بين المشبّه والمشبّه به هي حاملة المعنى المراد تقريبه من ذهن المتلقّي.

إنّ المقام الذي عنه تخبر العبارة هو مقام لحظة الخلق. وهو مقام متخيّل إطاره زمن الماضي البعيد دلّ عليه المعنى المعجميّ للفعل: خلق. وقد قامت المشابهة في عبارة الشابي بين ضمير المخاطب (أنتَ) وبين "طيف النسيم". والضمير المشبّه (أنتَ) يعود على مسمّى معلوم هو الإنسان ابن أمّي. غير أنّ المشبّه به لا يعيّن مسمّى مدركا معروفا. وإنّما هي عبارة ليّنة منسابة ليس لها مرجع في ذاكرة المتلقّي لأنّها من إنتاج القصيدة. ههنا، بالضبط، شرعت القصيدة في التغاير مع قديمها من حيث أثبتت انتماءها إليه، بعد أن تملّكته.

فعبارة "طيف النسيم" عبارة مركّبة من كلمتين: كلمة طيف وكلمة النسيم. "والطّيف: الخيال نفسه. والطّيف: المسّ من الشيطان... وأصل الطّيف الجنون ثمّ استعمل في الغضب ومسّ الشيطان" (20). و"النّسم والنّسمة: نفَس الروح. وما بها نَسَمة أي نفَس. يقال: ما بها ذو نسَم أي ذو رُوح... والنّسيم: ابتداء كلّ ريح قبل أن تقوى... والنّسمة: الإنسان... وتنسّم أي تنفّس... والتنسّم: طلب النّسيم واستنشاقه" (21).

إنّ الكلمتين منفردتين تختزنان معاني ودلالات لا حدود تحدّها. فكلمة طيف تجمع بين مسمّيات تقيم كلّها خارج إطار العالم الفيزيقيّ المرئيّ المدرك. أمّا كلمة النسيم فضفافها أوسع حدّ الدهشة ممّا يعني

أنّ هذه العبارة المراد لها أن تقرّب المعنى من المتلقّي وتقلب سمعه بصرا قد أدّت دورا عكسيّا إذ رمت به في غابة كثيفة من الدلالات. فيكفي تجريب تركيب بعض مشتقّات الكلمتين المعجميّة أزواجا لتبيُّن حجم التكثيف الذي تتّصف به عبارة الشابي. يمكن أن نحصل على عبارات مثل: طيف النَّفَس/ طيف الرّوح/ خيال الرّوح/ خيال الرّيح/ طيف الرّيح/ طيف الإنسان/ خيال الإنسان/ جنون الرّوح/ جنون النّفَس/ جنون الإنسان/ غضب الرّوح/ غضب الرّيح/ شيطان الرّوح/ شيطان الرّيح/ شيطان الإنسان/ جنون النّفَس/ شيطان النّفَس... إلخ

والمتأمّل في العبارات الحاصلة من تركيب هذه الكلمات المشتقّة من معجم كلمتي "طيف" و"نسيم"، يلاحظ أنّها عبارات متاهات. إنّها تشهد على أنّ الشعر، حين يتحقّق ويكون، لا تحدّ معانيه ضفاف. فالكلمة، حين تتعالق مع غيرها من الكلمات في القصيدة، تبني معنى كفيلا بالاستجابة لأفق انتظار أيّ قراءة في أيّ زمن كانت، وفي أيّ مكان. إضافة إلى ذلك، فإنّ بين هذه العبارات قاسما مشتركا يتراءى ولا يكاد يرى؛ هو أنّها تحيل على دلالات كثيرا ما تتردّد في النصوص التي حدّثت عن لحظة البدء. وهي عبارات فيها تتكثّف الدلالة على الشفّاف والخارق والغرائبيّ والمرعب أيضا.

غير أنّ تفكيك عبارة "خلقت طليقا كطيف النسيم" وتأويل بنيتها النحويّة والمعجميّة والبلاغيّة يكشفان فيها أبعادا دلاليّة غزيرة. وهي أبعاد غير مسقطة. وإنّما هي كامنة فيها تنتظر الكشف. فالشعر كشف. وقراءة الشعر كشف، أيضا، باعتبارها كشفا عن الكشف. ولكنّ هذه الغابة من الدلالات التي تتّصف بها عبارة الشابي لا تحجب عنّا الدلالة الرئيسيّة أو المعنى الأوّل فيها. وهي الدلالة التي أدّاها وجه الشبه في التشبيه: الطلاقة. فالنسيم لا يمكن لمسه ولا التحكّم في حركته. وكذا الطيف. والإنسان كائن حرّ لا يمكن حبسه. وخلقته الطبيعيّة لا تنسجم مع القيود والأغلال. فالحرّيّة فيه خلقة وطبع وثقافة، أيضا.

"خلقت طليقا كطيف النسيم" عبارة توهم بأنّها عبارة واضحة. ولكنّ وضوحها هو وضوح السّراب. فهي عبارة مركّبة من كلمات معلومة، تحتفظ في ذهن المتلقّي، بدلالات واضحة. غير أنّ الكيفيّة التي بها صرّف الشعر الكلام أخرجت الكلمات من الوضوح إلى الغموض. فالغموض ليس صنعة ولا تكلّفا، وإنّما هو من شروط الشعر حدثَ بفعل تأثير مقام القول الشعريّ. وهو ليس اختيارا، وإنّما هو من متعلّقات الشعر الذي تكابد القصيدة لتأسيسه وتجاهد.

إنّ للغموض، في عبارة الشابي هذه، دلالة على أنّ الشعر لا يصف معلوما، وإنّما يكشف عن مجهول هو لحظة الخلق. والمجهول غامض بطبعه. فكيف يخبر الشعر عن الغامض بخطاب واضح؟ بل إنّه لا يخبر أصلا، وإنّما يحدس بما يتخيّل أنّه وقع لحظة البدء أو بما يحلم أنّه حدث. إنّ الغموض هو رؤيا الشاعر تتراءى في أثناء الكلام والشعر ينهض ويكون. إنّها لا تكشف وتبين وتعلم بقدرما توحي وتشير وتلمّح. وهي لا تمنح نفسها للقراءة المتعجّلة. بل إنّها مخاتلة ترد متّشحة بوهم الوضوح.

لهذا التشبيه قيمة كبرى يمكن أن نقرأها من زاوية التلقّي. فهو يتصدّر قصيدة الشابي. إذ به انفتحت. وهو أوّل ما يطال سمع السّامع وعين القارئ وذهنيهما. لقد عوّلت عليه القصيدة ليكون فاتحة الكلام الموجّه للإنسان المخاطب والمتلقّي على السّواء. والاختيار ليس اعتباطيّا. وإنّما يمكن إخضاعه للقراءة التحليليّة التفكيكيّة التأويليّة، أيضا.

التشبيه وطفولة التلقّي :

إنّ في هذا التشبيه الذي يحتلّ من القصيدة مرتبة التصدير استدراجا. وآليّة الاستدراج هي أسلوب التشبيه نفسُه باعتباره يطمئن المتلقّي إلى أنّ فيه وعدا ضمنيّا بتقريب المعنى وتبسيطه. وفي اللحظة التي يطمئنّ فيها المتلقّي إلى الشعر، يكون قد تورّط في الشعر. فالشعر ليس خطابا بريئا. وإنّما هو خطاب مسائل. وقدرته على التّسآل لم يضعفها انفتاحه على السياسيّ، كما تؤكّد هذه القصيدة. غير أنّ ورطة المتلقّي مع الشعر ورطة سَمحة لأنّها شبيهة بالورطة التي توقع الأمّ ابنها الغضّ فيها حين تعمل على إبعاده عنها حبّا فيه لا كرها. ذلك أنّ أسلوب التشبيه يمارس، أيضا، نوعا من الأمومة؛ أمومة التلقّي. فهو يشدّ المتلقّي ويطمئنه إلى أنّه في رحاب قداسة القديم العربيّ يتحرّك. ثمّ يستدرجه إلى الاقتناع بلزوم مفارقة هذا القديم. فالنصّ يعلن انتماءه إلى تراثه من خلال التزامه بقوانين البلاغة العربيّة في تصريف الكلام الشعريّ وبناء المعنى.

غير أنّ الالتزام بالتراث وإعلان الانتماء إليه لا يعنيان نسخه وتقليده و"إحياءه". وإنّما هما عمليّتان واعيتان ضروريّتان لفعل التأصيل الذي أنجزته قصيدة الشابي هذه. وهو فعل يعني تحقيق التنامي في التغاير بعبارة محمد لطفي اليوسفي. والتنامي يعني مواصلة ما بدأه القدامى في رحلة بحثهم عن المعنى بما سنّوه من أدوات فنيّة وما أسّسوه من قيم. والتغاير يتحقّق بالاختلاف عنهم عند إنجاز فعل التنامي مع منجزاتهم. فالاطمئنان الذي يعد به التشبيه المتلقّي سرعان ما يتلاشى في التشبيه نفسه لأنّه لا يقرّب المعنى ولا يبسّطه. وإنّما يكثّفه. بل يدفعه إلى تخوم الغموض. بعبارة أوضح، إنّ التنامي مع القديم العربيّ تحقّق، في القصيدة، عبر الكتابة في قيمة ممجّدة عند العرب هي الحريّة والكتابة بأسلوب مُعلًى عندهم هو التشبيه ضمن فنّ عظيم عندهم هو الشعر. والتشبيه الذي كان محلّ فعل التنامي مع القديم هو نفسه الذي ضمن للقصيدة اختلافها معه حين خرج من البساطة والوضوح إلى التكثيف والغموض.

إنّ التذكير بلحظة البدء، في مطلع القصيدة، الغاية منه بناء معنى أصالة الحريّة في الوجود الإنسانيّ. وهو المعنى المركزيّ في القصيدة. ولم تعمل القصيدة على بناء هذا المعنى وتكثيفه إلاّ لأنّه جزء من بنية جدليّة تؤسّسها معان/ عناصر رئيسيّة ثلاثة هي: التذكير بأصالة قيمة الحريّة في الإنسان/ استنكار رضوخ الإنسان للذلّ والمسكنة/ استنهاضه لطلب ما سلب منه.

ولذلك فإنّ هذا المعنى الأوّل الذي يؤصّل قيمة الحريّة في الإنسان يتنافذ دلاليّا مع المعنى/ العنصر الموالي فيها، وهو معنى الاستنكار، استنكار رضوخ الإنسان للذلّ والمهانة والقيود في الزمن الحاضر المدرك المعلوم. ويؤول هذا المعنى إلى معنى استنهاض الإنسان للتمرّد على الحاضر وطلب الآتي الذي هو الماضي نفسه معجما وصورا. فالآتي ليس إلاّ الضحى في صباه/ وإلاّ ربيع الوجود الغريرُ، يطرّز بالورد ضافي رداه/ وإلاّ أريج الزهور الصّباح ورقص الأشعّة بين المياه/ وإلاّ حمام المروج الأنيق يغرّد منطلقا في غناه. هكذا تنجح العبارة الشعريّة في نشر رداء شعريّتها على أطراف القصيدة كلّها. فيكون الشعر من العبارة. ولا شيء يضمن أن تكون كلّ عبارة في الشعر شعريّة.

1) العبارة مذكورة في البيت الثاني من قصيدة الشابي «الاعتراف» ومطلعها:

ما كنتُ أحسبُ بعد موتكَ يا أبي
ومشاعري عمياء بالأحزانِ
أنّي سأضمأ للحياة، وأحتسي
من نهرها المتوهّج النشوانِ

أبو القاسم الشابي: «أغاني الحياة»، تقديم وتعليق: عبد الحميد الشابي، وزارة الثقافة، تونس، د.ت، ص 154. وهي الطبعة التي سأعتمدها في هذا البحث.

2) لسان العرب المحيط للعلاّمة ابن منظور، أعاد بناءه على الحرف الأوّل من الكلمة: يوسف خيّاط، دار الجيل/ دار لسان العرب، بيروت، 1988، المجلّد السادس، باب النون، ص 728.

3) لسان العرب، نفسه، المجلّد الأوّل، باب الحاء، ص 773 - 778. وقد كتب ابن منظور فصلا مشوّقا مداره حبال العلاقات السريّة بين «الحياة» ومشتقّاتها: الحياء والحيّة والتحيّة والحيّ والمحيّى. . .إلخ ولم أجد أيّة إشارة إلى علاقة دلاليّة أو اشتقاقيّة بين«الحياة» وبين النار أو «التوهّج».

4) لسان العرب، نفسه، المجلّد السادس، باب الواو، ص 990.

5) أدونيس: سياسة الشعر، دار الآداب، ط2، 1996، ص 20.

6) مايكل كورباليس: في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم، ترجمة: محمود ماجد عمر، سلسلة عالم المعرفة، العدد 325، مارس 2006، الكويت، ص 17.

7) جان كوهن: بنية اللّغة الشعريّة، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1986، ص 37.

8) JAKOBSON .Roman: Essais de linguistique générale, Paris, Minuit, p 218.

9) نَسَبه إليه حازم القرطاجنّي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقيّة، تونس، 1966، ص 143.

10) جيل دولوز: المعرفة والسلطة، مدخل إلى قراءة فوكو، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت/ الدار البيضاء، ط1، 1987، ص 10.

11) العبارة من قصيدة الشابي «الغاب» التي مطلعها:

بيتٌ، بنته ليَ الحياةُ من الشـذى	والظلِّ، والأضواء، والأنغام
بيت، من السّحر الجميل، مشيّدٌ	للحبّ، والأحلام، والإلهامِ

انظر: «أغاني الحياة»، نفسه، ص 159.

12) يحدّث فراس السوّاح عن أسطورة الخلق فيقول: «تنتمي أساطير التكوين في المنطقة إلى زمرة أساطير الميلاد المائيّ. فالحالة السابقة لبدء الكون في أساطيرنا التكوينيّة هي حالة من العماء المائيّ، ساكن، لا متمايز، لا متشكّل، في زمن سرمديّ متماثل، لا ينتابه تغيير ولا تبديل كأنّه عدم. وفي لحظة معيّنة، هي هزّة ودمار، يليها بناء جديد، ينبثق الكون من لجّة العماء، ويبدأ النظام في قلب الفوضى، ويتّحد الشكل من صميم الهيولى، لحظة يقرّر فيها الآلهة خلق العالم ووضع أسس الكون والحياة. فيبدأ الزمن الذي نعرفه الآن. وتتّخذ الأشياء شكلها الذي نراه اليوم».

انظر: فراس السوّاح: مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة (سوريا، بلاد الرافدين)، دار علاء الدين، دمشق، د. ت، ص 27.

13) نقرأ في العهد القديم الحديثَ التالي عن فعل الخلق: «في البدء خلق الله السماوات والأرض، وإذ كانت الأرض مشوّشة ومقفرة وتكتنف الظلمة وجه المياه، وإذ كان روح الله يرفرف على سطح المياه، أمر الله «ليكن نور». فكان نور (...) وهكذا كان. ورأى الله ما خلقه فاستحسنه جدّا. ثمّ جاء مساء أعقبه صباح فكان اليوم السّادس. وهكذا اكتملت السماوات والأرض بكلّ ما فيها. وفي اليوم السّابع أتمّ الله عمله الذي قام به، فاستراح من جميع ما عمله. وبارك الله اليوم السّابع وقدّسه، لأنّه استراح فيه من جميع أعمال الخلق» انظر:

Arabic/ Englich Bible, International Bible Society, Genesis, The beginning, 1,2 , 1999.

ونقرأ في القرآن الكريم ما يلي: «الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع أفلا تتذكّرون» سورة السجدة 32/ الآية 4.

وفي سورة المعراج أنّ مقدار اليوم من تلك الأيّام خمسين ألف سنة. نقرأ: «تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» سورة المعراج 60/ الآية 4. وهذا التقدير جعل القصّة القرآنيّة أشدّ كثافة وإلغازا وأدعى للتفكير والتأويل من القصّة التوراتيّة التي تركن إلى التبسيط.

14) صيغة هذا النّداء بنيتها تكرّرت في ديوان الشابي مع تبديل في صيغة المنادى من المفرد إلى الجمع، فتستبدل عبارة «يا ابن أمّي» بعبارة «يا بني أمّي» ممّا يعني وعي الشاعر بما يطلب من العبارة أن تؤدّيه. انظر، مثلا، قصيدته: أغاني التائه، ص 78 - 79، من طبعة الديوان المذكورة، حيث يقول:

يا بني أمّي! ترى أين الصّباح؟ قد تقضّى العمر، و الفجر بعيد

....

يا بني أمّي! ترى أين الصّباح؟
أ وراء البحر؟ أم خلف الوجود؟
يا بني أمّي! ترى أين الصّباح؟

15) استفاد هذا البحث، في صياغة هذه الأفكار، استفادة إجماليّة من عمل د. خالد ميلاد: الإنشاء في العربيّة بين التركيب والدلالة: دراسة نحويّة تداوليّة، كلّيّة الآداب، منوبة، 2001.

16) «أغاني الحياة»، نفسه ص77. والقصيدة قصيرة هذا مطلعها:

خُلقتَ طليقا كطيف النسيم، وحرّا كنور الضحى في سماه

تغرّد كالطير أين اندفعتَ، وتشدو بما شاء وحي الإله

17) للقارئ أن يجرّب نقل هذه العبارة حرفيّا وبالدّلالة نفسها التي أرادها لها الشابي إلى الفرنسيّة، مثلا، أو الانجليزيّة وسيلاحظ غرابتها ونفور النّظام اللّسانيّ للّغتين منها ونشازها عنهما. لكنّها، في المقابل، وجدت طريقها إلى الخطاب الشعبيّ شأنها شأن عبارة «الدنيا الميّتة» («أغاني الحياة»، نفسه ص 158). فنسمع الناس في العاميّة التونسيّة يقولون: «يا وِلْد أمّي» و «الدّنيا ميّتة». فهذا الشعر.

18) رومان ياكبسون: قضايا الشعريّة، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، المغرب، ط 1، 1988، ص 57.

19) العبارة من قاموس الشابي الخاص، اُنظر ديوانه: أغاني الحياة، الطبعة المذكورة.

20) لسان العرب، نفسه، المجلّد الرابع، باب الطاء، ص 638.

21) لسان العرب، نفسه، المجلّد السادس، باب النون، ص 629.

حكايـة عربـي

بلقيس خليفة

لم يكن الجمال سببا في اختياري لزوجتي ولا كان المال أو الجاه. الحب أيضا لم يكن هو السبب. قلت لها يوم تزوجنا: «تعلمين لم يكن الحب دافعي للزواج بك إنما أعجبني وجهك الذي يضج بالعافية وإقبالك الشديد على الحياة». ردت ولم يبد عليها أنها تأثرت باعترافي: «أنا أيضا لم أتزوجك لأنني أحبك ولكن شدني إليك أنك تحب المتنبي ورأيت هذا كافيا للقبول بك زوجا».

بعد الزواج أدركت أن اختياري لها كان صائبا تماما فقد اكتشفت تناغما رهيبا بيننا ما كان يمكن أن ينتج عن أي عاطفة مهما كان عمقها. كلما فكرت في أمر واستعصى علي تنفيذه وجدتها تنجزه دون كبير عناء فقد كانت تفهم ما أريد دون أن أطلعها يوما على رغباتي وكانت لها فوق ذلك القدرة العجيبة على امتصاص غضبي مهما بدت حدته فاستطاعت بعد فترة وجيزة من الزواج أن تحول زواجي منها من مجرد مشروع سياسي إلى مشروع عاطفي بالأساس وانتهى بي الأمر من مجرد نجار يحب المتنبي إلى شاعر غزلي يحترف النجارة...

بعد مضي شهرين على زواجنا تذكرت الغرض الأصلي من زواجي بها فقلت لها: «أرجو أن تكوني ولودا فأنا أريد أن أنجب عدة أطفال «ابتسمت وهي تضع يدها على بطنها: «استعد إذن لاستقبال أولهم».

وعندما همت بالولادة قلت لها : «أحب أن أسمي أبنائي بأسماء الأشياء التي تنقصني».

قسمت ابني الأكبر «وطن» ثم سمت التالي «كرامة» وبعد ست سنوات فقط من الزواج صار لنا «وطن» و«كرامة»، «سلام» وأخيرا «رغيف».

لم نشأ التوقف عن إنجاب الأطفال لكن الأمر تجاوزنا في هذه المرة ولم يحدث حمل بعد رغيف رغم صغر سن زوجتي وصحتها الجيدة...

واكتفينا بأبنائنا الأربعة ثلاثة أولاد وبنت نربيهم على الكفاف ونعلمهم أن الحياة في المخيم مرحلة ستزول مهما طالت وأطلعناهم على المفتاح وعلمناهم كيف يحافظون عليه ويلمعونه بين الحين والآخر.

أدخلناهم إلى المدارس وعودناهم على العمل مساء لكسب القوت فتعلم «وطن» و«سلام» النجارة وصارا يشتغلان معي أما كرامة فقد برعت في تطريز الجلابيب التي كانت تخيطها زوجتي جلابيب بيت لحم الشهيرة... وبقي رغيف في البيت مع أمه وأخته ريثما يكبر...

واستمر الوضع على حاله ومضى الزمن ولم أتفطن إلى أن أبنائي كبروا ونسيت في غمرة الحياة أن أراقب

اهتماماتهم وأتتبع خطاهم خارج أوقات العمل والدراسة حتى داهمت شرطة المحتل ذات يوم بيتي وأخرجت من غرفة «وطن» أسلحة يدوية وجرته خارجا ومن يومها صرنا نعيش على أمل إطلاق سراح ابننا «وطن»...

كان وطن أحبهم إلى قلبي، شعرت عندما أنجبته أمه أنه صار لي وطن حقا... تخيل أن يعيش الوطن في بيتك...، تخيل أنك ترعى وطنك وتراه يكبر أمامك... تخيل أنك تسمع ضحكات وطنك تملأ أرجاء البيت وهو يركض عابثا بريئا بين أرجاء الغرف غير عابئ بضيق الحال ولاشظف العيش... لا يعرف حتى أنه وطن يحيا خارج الوطن...

وبغتة وفي غفلة منك يأخذون منك الوطن، يسحبونه من ذراعيه وهو يقاوم وأنت واقف عاجزا لا تملك أن تفعل شيئا وأنت ترى وطنك يفتك منك مرة أخرى...

يومها بكت «كرامة» كثيرا، بكت كما لم تبك من قبل ورأيت في نظراتها لي عتابا لم أحتمله...

لكني حمدت اللّه أن «سلام» لم يكن وقتها موجودا في البيت فقد كان شديد التعلق بإخوته وكان يمكن أن يخرج عن طوره وهو يراهم يعتقلون أخاه كما أنه لم يكن ليحتمل دموع «كرامة»...

أما «رغيف» فقد شاهد كل شيء ولم يحرك ساكنا ثم انزوى في ركن من أركان البيت وظل صامتا يحملق في الفراغ لعله كان يحاول تقبل درسه الأول في معنى الظلم...

ومضت الأيام وصار الحصول على تصريح لزيارة «وطن» هاجسي الأكبر ونسيت مرة أخرى في الأثناء أن أراقب ولديّ حتى أفقنا ذات صباح على غياب «سلام» لقد اختفى فجأة ولم نعثر له على أثر، أخبرني بعض أصدقائه أنه قد يكون بصدد الاستعداد للاستشهاد في عملية فدائية وشك البعض الآخر في التحاقه بإحدى معسكرات التدريب لفصائل المقاومة ولكن لا أحد من الجهات التي توجهنا إليها بالسؤال شفت غليلنا ودلتنا على الحقيقة فقررنا التوقف عن السؤال والبحث ولم يكن ذلك يأسا منا بقدر ما كان خوفا من فقدان الأمل في العثور على «سلام»... والتأكد من موته.

بعد غياب سلام تغيرت أشياء كثيرة في البيت: انطوت كرامة على نفسها وصار «رغيف» يتأخر كثيرا بعد المدرسة وخشيت أنا وأمه أن نفقده كما فقدنا أخويه فانتظرته عند باب المدرسة ذات يوما وتبعته، فرأيته يتسلق التل المؤدي إلى المستوطنات وهناك التقى بمجموعة من الأطفال في مثل سنه كانوا يفتتون الحجارة، استقبلوه بالعناق ثم أعطوه نصيبه من الحجر فتقدم إلى أطراف التل وبدأ في رشق بيوت المستوطنين بالحجارة فتبعه رفاقه وهم يصيحون صيحات الفرح كلما أصابوا زجاج نافذة، من الطرف الآخر خرج بعض اليهود وهم يحملون البنادق وأطلقوا رصاصات عشوائية ولم يرتدع الأطفال إنما عاودوا التقدم وهم يرددون عبارات مختلفة، أحدهم - أضن أنه حفيد جارنا إسماعيل في المخيم- كان يقول: «أخرجوا من أرض جدي، أتركوا ضيعتنا... «وكان الأطفال يرددون وراءه، أما رغيف فكان يصرخ: «وطن سلام أين أنتما؟». وحبست دموعي وأنا أسمعه ينادي على اخوته وارتفع الطلق الناري من الجهة المقابلة فمنعت نفسي من اقتياد ابني والعودة به إلى البيت وعدت أدراجي إلى الدكان.

وفي المساء عندما عاد وجدني أنتظره في غرفته وقبل أن يتكلم كنت أمد يدي له بالمقاليع الخشبية التي صنعتها في الدكان: هذه لك ولأصدقائك. ورفع نظره إلي ورأيت على شفتيه ولأول مرة منذ اعتقال «وطن» ابتسامة أضاءت وجهه الصغير ثم قال لي: غدا سأوافيك لأعمل معك في الدكان بعد الدراسة.

وفي الغد لم يأت إنما جاءني أحد رفاقه يلهث وفي يده المقلاع الذي صنعت...

بعد أن عدت إلى البيت من جنازة «رغيف» التي طفنا بها أرجاء المخيم كانت «كرامة» ترتب في صمت أسرة إخوتها الثلاثة «وطن وسلام ورغيف» أما زوجتي فكانت تنهي تطريز جلابيب وعدت بها المركز الثقافي الفلسطيني،

وما إن رأتني حتى هبت لاستقبالي وتلألأت الدموع في عينيها وهي تمسك بيدي وتضعها عل بطنها.

ملاحظات عابرة :

- بعد أشهر أنجبت زوجتي توأما ولدًا وبنتا سميناهما: نظال وعودة وعلمناهما أيضا كيف يحافظا على المفتاح...

- مازلنا نسعى للحصول على تصريح لزيارة «وطن» وننتظر عودة «سلام»...

- نسيت أن أخبركم أن زوجتي حامل الآن مرة أخرى فكرت في تسمية القادم «عرب» لكنها رفضت بإصرار: «لقد اتفقنا أن تسمية بأسماء الأشياء التي تنقصنا...»



رشفة قهوة بطعم الذكريات..!

محاسن الحمصي

«نادني من آخر الدنيا أُلبي، كل دربٍ لك يُفضي فهو دربي

ياحبيبي أنت تحيا لتنادي، يا حبيبي أنا أحيا لألبي».

(فدوى طوقان)

كطوق نجاة أتاني صوته الواضح عبر الهاتف ينقذني من بحر الحزن الهادر، يغسل قلبي من غبار الهموم..

«يسحرني صوتها، ورنة الموسيقى من مخارج الألفاظ تصيبني بعدوى الحيوية، لأعزف لحن أمل اللقاء المرتقب...

لم أعرف امرأة تشبهها، تضج أنوثة مجبولة بروح الحياة والمرح، يسكن داخلها تعب سنين مستتر، مجبولة بالطيبة، الأخلاق، والتضحية..!».

لم أصادف رجلا مثله، يفيض دفئا وحنانا من الأعماق، يرتدي وجها واحدا، دون قناع.

«سنوات طويلة، أستمد القوة من ضعفها، الأحلام من صبرها، الحب من عطائها..»

أعوام شرّع أمامي آفاق المعرفة، منحني الإيمان بغدٍ ليس نصفه مر، وتحمل صعوبة أن يفهم الإنسان نفسه ويتكيف معها..

- أين أنت الآن؟ في أي مطار تركض، وفي أي فندق تستريح ؟ ... لندن، باريس، دبـي، أم بيروت..؟؟

- لست ببعيد، خمني المسافة التي تفصلنا.

«لو تدري أني أقرب إليها من حبل الوريد».

- بالأيام أم بالكيلومترات أم بحجم الشوق؟؟

- ماذا تفعلين الآن قبل أن أجيب ؟

- أقرأ سطورًا من رواية، أتبعها بقيلولة ما بعد الغداء.

- ماهذا الكسل؟ هيا، انهضي، وخلال ساعة تجديني في ركننا المفضل..!

- لا تُأملني في المستحيل، لا رغبة لي في مزاح يدمي الفؤاد..

«ليتك تدري احتياجي إلى صدرك الحنون يعيد إلي هدوءًا يناكفني. إذن، تسمعني، نثرثر، نضحك، تحدثني عن الإعصار المالي الذي اجتاح العالم، السياسة التي نناقشها عبر المراسلات اليومية، وعن سور عمري المتصدع..».

– هيا، لا أملك سوى ساعات قليلة و سأغادر، أنتظرك بعد ساعة.

أقفز من فوق السرير، أختار ثوبا ورديا، بلون خديّ المتوردين فرحا، أحمل حقيبتي، المفاتيح، أتسلل من باب جانبي، أنظر إلى وجهي في المرآة. نسيت أن أتجمل، أدخل أصابعي بين خصلات شعري المسدل، تقودني السيارة..!

«أزمة المرور ستأكل رغيف وقتي معها».

عادني في المشفى، وأنا بين الحياة والموت أول مرة.. فكانت زيارته لمسة الشفاء.

«ذهبت مكرها مع العائلة لإلقاء نظرة وداع شابة مهشمة، فعدت معها إلى الحياة».

وسيم في طلته، تخلى عن ربطة العنق والبذلة، غزا الشيب مفرقيه، وأنا بت بأربعة عيون مخفية..

«تحط كعصفور مهاجر على صدري، تنقر وجنتي بقبلتين، تتعلق بذراعي طفلة شاردة».

....

– حمدا لله على السلامة... مع السلامة..!

– أتسخرين مني، وأنا الذي تركت الاجتماع كي نلتقي، ولو للحظات ؟ ماذا فعلت بنفسك؟ تبدين كح سناء فاتنة، لم تتخرج بعد من الجامعة..!

– مجاملة ترفع المعنويات، عيونك تراني جميلة..

– لا تشعلي سيجارة، شراهة التدخين لديك تحتاج إلى رحلة علاج .

– تريدني الإقلاع عنها، وهي من علمني الإدمان على الصمت؟

يدخل (الجرسون) على الخط: ماذا تطلبان ..؟

– نسكافيه بدون حليب..

– لو كنت أعرف أنك قادم لفرشت البساط الأحمر، زينت الشوارع، أطلقت ألعابا نارية ابتهاجا بمقدمك الغالي..

– تقرر الاجتماع صباحا، فجئت على عجل..

– عجل دراجة أم عجل سيارة؟

«تنام كفي في كفه، يلفني الشعور بالأمان، وأستريح».

تعيدني الكف إلى سنة أولى ابتدائي، كلما هممت بعبور الشارع، يمسك رجل الأمن الشاب يدي، وبإشارة من (البطل) تقف المركبات، وأصبح في الجانب الآخر دون خوف والاطمئنان يرافقني طوال النهار، وأزهو بخيلاء وتحد من جبروت الآلة حين تلين بإيماءة. حتى اليوم مازلت أحب رجل المرور، أرتاح لرؤية أحدهم، ولو حرر لي مخالفة..!

– حدثيني عن المستجدات في بناء عالمك الخاص..

«كخرير مياه الغدير تجري كلماتها في أذني رقيقة، شفافة، عميقة، تروي الجفاف، وتحيل الضفاف إلى خضرة رغم اليباس»

– يا صديقي.. لم تركتني أذهب؟ هل انجرفتُ وراء عواطف لم تخلف سوى الأسى..؟

– أنت ركبت موجة التمرد.. كنت أراك فتاة تخوض غمار حياة اختارتها طواعية، تصيب وتفشل، تتعثر الخطوات وتعاود الوقوف، تحمل سيف المبارزة، تضمد بالملح الجراح، وتبقى في الميدان..

«كنت أجده إلى جانبي في كل أوقات المحن، يرشدني دون تأنيب أو سؤال يخفف من وقع الألم..!».

– تحملتَ مني الكثير، أكلتَ الصبر بشوكه.. كيف صمدتَ معي حتى الآن، وأنا الراكبة كل يوم موجة تغيير؟

– لأني آمنت بك ووثقت بأن مدارك أفكارك ستبدلها الأيام، دروس المعاناة ستخلق منك قوة، تصقلك الظروف في الخبرة، تهبط أحلامك إلى دنيا الواقع بعد تحليق في أجواء الزيف..

– اكتشفتُ أن البيت الكبير، الجميل، الدافئ يُبنى بالقلوب لا الحجر و الإسمنت وروعة النقوش، يفرش بمحبة ساكنيه وتماسك خيوط أساسه..

- كلمة اخيرة.. وجودك إلى الآن على وجه الأرض إنجاز..

- أجل بقائي صامدة في وجه التيارات، الأحداث والاغتراب عن الروح والجسد، و المرارة التي تجرعتها إنجاز..! لكني خرجت بمعادلة حسابية في الحياة.. جمعت، طرحت، قسمت، ضربت، فكنت خير زوجة وفية، والأم المثالية، والابنة البارة للأسرة، لم أجرح أحدا، ولم أصل على أكتاف المصلحة، طيبتي خذلتني... ولن أندم!

تنتهي الستون دقيقة، جلنا بها الأوطان، من غزة إلى القدس إلى العراق و لبنان، عرجنا على عواصم عربية تئن، و أخرى تصرخ، وبعضها يندب الأسواق... طفنا مع السيمفونية الخامسة لبتهوفن يدندنها تحت نافذتي كل مساء، وصوت المفاتيح تعلمني بعودته سالما إلى البيت، وقوفي أمام العين السحرية أرقب خطواته تصعد السلم، وتتوقف خلف الباب ليقول: تصبحين على خير.

في زوايا مكتبه قطع فنية حملتها عبر أسفاري، قطعة (كنافاه) نسجت بخيوط وحدتي، كل غرزة بها دمعة ألم ودعاء.

«أضم إلى صدري جسدا يرتعش، ونظرة خوف ترعبني، وعلى شرفة الأهداب تقف دمعة كبرياء».

يودعني، يهمس: سأعود يا أنشودة الأيام، لا تحزني، أخابرك كل يوم، نهاراتي برسائلك الجميلة لها مذاق الأمل.. الاتصال مستمر، وأنا حتى النهاية معك...!

«لم يحاول أن يستغل ضعفي يوما!

من قال: (الصداقة) بين رجل وامرأة يجب أن تنتهي على سرير؟»!.

أعود إلى غرفتي الباردة، أمسك الولاعة، أشم رائحة أصابعه، أرى بصماته على علبة السجائر الفارغة فأحتفظ بها، أضع الكتب التي أحضرها: «أعرف أنك تعشقين الكتاب»، أفتح رواية، أعانق سطورًا طالعَها، و ألمس ثنية صفحة توقف عندها، ولم يكمل.. وأكملُ رشف فنجان قهوة بارد مع الصور.

الفزّاعـــــة

سناء شعلان

ملابسه رثّة، قبّعته قديمة، فيها خرقٌ كبير، قدماه خشبيّتان، عيناه زرّان مختلفا اللّون، وفمهُ مخاطٌ على عجل، ولا أذنين له، وقلبه من القشّ، وخصره نحيل، وجسده مصلوبٌ ليل نهار، ولكنّه يحبّها، لا يحبّها فقط؛ لأنّها هي من خاطته، وزرعته في هذا المكان، ولكنّه يحبّها؛ لأنّها رقيقة ولطيفة، ويعشق صوتها ذا الرّنين العذب كلّما غنّت.

صنعته بيديها الصّغيرتين النّاعمتين منذ أشهر طويلة، وزرعته في هذا المكان من حقل الفراولة كي يفزع الطّيور والعصافير، ويمنعها من مداهمة الحقل وأكل الثّمار، وقد قام بعمله على أتمّ وجه يُرجى، أوّلاً؛ لأنّه فزّاعة وقد خُلق ليفزع الطّيور، ثانيًا؛ لأنّه يحبّها، ويريد أن يحافظ لها على محصولها المتواضع الذّي من الواضح أنّها تعتاش منه.

لا يتذكّر كيف بدأ قلبه القشّيّ بالعزف، ولكنّ صوتها كان أوّل من حرّك الحياة في ذاته، كان كسير الرّقبة، متدلّي الرّأس، متراخي الأعضاء منذ أن نُصب في مكانه، لكنّ قلبه أخذ بالخفقان عندما سمع صوتها الشّجيّ، كانت حافية القدمين، رنين خلخالها ودفق لهاثه هو كلّ ما يسمع وهي غارقة في الاعتناء بأشتال الفراولة، إلى أن انتصفت الشّمس في كبد السّماء، وبدأت خيوطها بمداعبة شعرها العسليّ الهائج كغجريّة، وجادت قريحتها وقتئذ بدندنات عذبة محمّلة بصوتها الشّجيّ، كانت أغنيةً حزينة كسيرة تناسب وحدتها ومشقّتها في الأرض، لحظتها شعر بأنّ قلبه ينبض، وأنّ الحياة تدبّ في أوصاله الخائرة فتصلبها، وفي جسده الكسير فترفعه، وفي قلبه الميت فتحييه، وتهبه وجيباً لا ينضب، ومنذ تلك اللّحظة غدا أسير صوتها العذب.

كان يراقبها ليل نهار دون أن يكلّ أو يتعب، في عصر يوم ما تعبت من العمل في الحقل، فأسندتْ ظهرها إلى ركيزته الخشبيّة لترتاح، كم كان سعيداً بجسدها اللّين وهو يركن إليه!! ابتسمتْ له، وقالتْ بعد أن ألقت نظرةً عجلى على الثّوب الذّي يلبسه: «يا له من ثوب قديم! لا تحزن يا عزيزي، غداً أصنع لك ثوباً آخر يليق بك، وبجهودك التّي تبذلها» وعادت من جديد إلى إسناد ظهرها عليه، وهي تأكل شيئاً من الفراولة المزروعة بالقرب منهما بشهية مثيرة.

تمنّى لحظتئذ لو أنّه يملك الجرأة الكافية ليردّ

عليها، وليشكرها على لطفها، وليرجوها أن تُسمعه أغنيةً يحبّ أن يسمعها منها دون كللٍ أو ملل، لكنّه خشي أن يفزعها هي الأخرى، ولعلّه خشي أكثر أن ترفضه، وتقشعرّ من منظره، فينكسر قلبه القشّيّ دون رحمة.

وصدقت وعدها، وفي اليوم الثاني كسته ثوباًجديداً، من رائحته أدرك أنّها قد خاطته من ثوب قديم لها، شعر بسعادة عظمى وهو يغرق في كساء يحمل رائحة جسدها الزّاهد بكثير من العرق، شعر بأنّه يملك سعادة الدّنيا، فأذناه تسمعان صوتها الخلاّب، وأنفه يشمّ أريجها العذب، وجسده يحتضن ثوبها، وعيناه تراقبانها بفضول أينما ذهبت.

لا يعلم شيئاً عنها ولا عن تاريخها، إلاّ بمقدار الأشهر القليلة التّي عاشها مصلوباً في أرضها، كانت أرضها صغيرة، مسيّجةً بسياج خشبيٍّ قديم، لا يعلم ماذا يكون وراءه، ولا يعرف في أيّ البلاد تقع هذه المزرعة، وهي تعيش في كوخٍ كبير قديم، ومن الواضح أنّها تعيش فيه وحدها، فهو لم يلمح عندها أحداً من أشهر، ومن مكانه هذا يستطيع أن يرى غرفة المعيشة وغرفة نومها التّي تقضي الكثير من الوقت فيها، يرى الكثير من الصّور المسجونة في براويز فضّيّة وخشبيّة على طول سطح مدفأةِ غرفة المعيشة، ولكنّه لا يستطيع أن يرى أو يخمّن لمن تكون.

قليلاً ما تغادر البيت والمزرعة، لتعود سريعاً محمّلةً بالفاكهة والخضار واللّحوم وبعض مستلزمات الأرض، فيقدّر أنّها كانت في السّوق. يسعده مرآها وهي قادمةٌ من البعيد، متدثّرةً بشالها المخمليّ القديم، وهي تدندن بأغانيها الشّجيّة، يكاد يطير للقائها، وليحمل الأكياس التّي تتكبّد حملها مسافةً تبدو طويلةً من لهاثها ومن احمرار وجنتيها.

هذا اليوم من بدايته بدا استثنائيّاً، ويومئُ إلى استقبال ضيفٍ ما، هي لم تعمل كثيراً في الحقل، وأمضتْ يومها في كوخها الصّغير، من نافذتَيْ غرفة النّوم والمعيشة اللّتَيْن تواجهانه راقب حركاتها، كان من الواضح أنّها معنيّةٌ بتهيئة المنزل والطّعام، مع الغروب بدأت بتجميل نفسها، لبستْ ثوباً قرمزيّاً ساحراً يظهر أديمها الأسمر، ومشّطتْ شعرها العسليّ، وأرخته أنهاراً هائجةً على كتفيها، قدّر أنّها مثارة وسعيدة، وحار مَنْ أو ماذا لعلّها تنتظر اللّيلة؟

أخذت تعزف على البيانو الذّي قلّما تعزف عليه، وأخذتْ تصدح بأغنيةٍ شجيّة، كانت مستغرقةً في غنائها الملائكيّ، وكان يذوب في مسك كلماتها، إلى أن دخل ذلك الوسيم الذّي أقلّته درّاجة هوائيّة قبل دقائق، كان يحمل باقةً صغيرة من الفلّ البلديّ، قبّلها، وطوّق خصرها بيديه، واندسّ إلى جانبها على البيانو يعزف معها، كان عزفهما على أوتار قلبه الذّي أدرك معنى الحزن والغيرة لأوّل مرّة. لكنّه كان سعيداً لأجلها على الرّغم من حزنه، وتمنّى من كلّ قلبه الذّي يملك أمنيات صغيرة صادقة لو أنّه يهجر مكانه، ويقرع باب بيتها، وينضمّ إليهما، ولكنّه كان يعرف تماماً أن لا مكان له هناك!

راقبهما طويلاً من مكانه، تناولا من طعام العشاء، وعزفا معاً من جديد، ثمّ راقصها على أنغامَ موسيقى المسجّل، سارتْ الأمور على نحو يستطيع أن يصفه بالانسجام وبالحبّ، لكن ما لم يستطع أن يفهمه هو التّغيّر الذّي حدث بعد ذلك، فقد تعالى صراخهما، وبدا أنّ ناراً تشتعل بينهما، ثمّ غادر المكان غاضباً، وصكّ الباب بقوّة كادتْ تخلعه، ارتمت حبيبته على أريكة قريبة من الباب، وانخرطت في البكاء، كان صوت بكائها لا يقلّ جمالاً وتأثيراً في نفسه عن صوت غنائها، قدّر أنها حزينة جدّاً، وفي حاجةٍ إلى

قلب يحبّها بشدّة، لقلبه مثلاً، كاد يناديها من مكانه ليسألها عن سبب حزنها، ولكنّه تذكّر أنّه لا يعرف اسمها، فهو لم يسمع أحداً يناديها باسمها من قبل حتّى يعرفه، فكّر قليلاً، ثمّ استجاب إلى وجيب

قلبه، ترجّل عن مكانه، وقطع الحقل الصّغير، داس دون أن يقصد بعض حبّات الفراولة الحمراء، لم يقرع الباب، فتحه دون انتظــار، ودخل إلى الكوخ . . .



أوراق من ديوان مدينة الأنقاض

محمد الخالدي

الورقة الأولى

يأتون فرادى وجماعاتٍ
يلقون برحلهمُ وعليهم وعثاءُ الصحراء،
يُقيمون بخاني أياما
وليالِيَ معدوداتٍ
ينتهبون الخمرة من سغَبٍ
ثم يشدّون الرحل الى المجهولِ
وقد تركوا عبقا من سيرتهم
تذكارا ورجوني ألاّ أروي
شيئا للغرباء ومن ألقت بهمُ الدربُ الى الخانِ
ففيهم من أخذته الجذبة من فرط الوجدِ
فهام على وجهه في البيدِ
وفيهم من خانته امرأة يهواها،
فيهم من جُنّ وقد أفلسَ
فيهم من يبحث عن جاريةٍ
غمزته يوم السوق فهام بها..
فيهم من ضاقت أرض الله بهِ
فمضى يبحث عن أرض أخرى
وسماء أخرى
ووجوه أخرى
فيهم من شاخ فطلق هذي الدنيا
****
مرّ الآلاف بخاني
كنت أواسيهم لكن
ما من أحد منهم واساني

صاحب خان

الورقة الثانية

يتحلّق حولي الخلقُ
يخيّل لي أني مركزُ هذا العالمِ

أروي تاريخ الإنس وتاريخ الجنّ
وأروي قصص العشاق وتاريخ الحكام
ملوكا وأباطرة ،ملكاتٍ وأميراتٍ
أمراءَ وقوادَ جيوش
وسلاطينَ طغاةً
وإذا طال الليل على السمّار رويت لهم
قصصا وعجائبَ من صنع خيالي:
أُدخل أزمنة في أخرى،
أعبث بالتاريخ كما يحلو لي وكما يحلو للسمار
أنحيّ ملكا وأنصّب صعلوكا
وأزوّج بنت الأمراء من المسكين
سليل الفقراءِ وبنتَ الفقراءِ
من الملك العاشق
أبتدع الأسطورةَ تلو الأسطوره
حتى صرت أنا الأسطوره

حكـــواتـــي

الـــورقـــة الثالثة

سألتني سيدة وهي تراني أضحكُ:
– مالك تضحك يا بُهلولُ
فقلت لها:
– إني أضحك في وجه الدنيا
كي لا تضحك في وجهي الدنيا
فأنا و الدنيا وجهان عدّوان:
لها وجه يتبدل بين الضحكةِ و الأخرى
و أنا لي وجه يهرم لكن لا يتبدلْ

بهلـــــول

الـــورقـــة الرابعة

كنت أمرّ بحيّ الحداديـن صباحا
و أنا أحمل طنجـرة فـوق الرأس
أُنحيها أحيانا كي أحملها بين يـدَيَّ
فـقـال لِيَ الحـدّادونَ:
– تعال نبادلك الطنجرةَ الزرقاءَ
بأخرى حمراء فقلت لهم:
لا أبغي لا الطنجرةَ الزرقاءَ ولا الحمراءَ
فهاكم طنجرتي واعطوني أخرى لا لون لها.

بهلـــــول

الورقـــة الخامسة

لا حدّ لخطـوي
أطوي الأرض متى شئتُ
وأُدخل مشـرقها في مغربها
أو مغـربَها فـي مشرقـها
و إذا شئت أتتني الكعبة طائرةً
فنطوف– وقد وجِـدت– بي

ثم تعود إلى موضعها

و إذا شئت دحوت الأرض فمادت

أنا سرُّ الأسرار إليَّ معاجُ جميع المجذوبينَ

أقمت بكل بقاع الأرض

مشت خلف لوائي حِقب شتّى

وحشود .لا حصر لها من أصحاب الحال اصطلموا

فمشى خلفهمو الخلق جميعًا

ميقاتي ؟ ما ميقاتي؟

لا بدء ولا حدّ لهُ

وتخومي وسعت أرض اللّهِ

وما جاور أرض الله... مُقامي؟

في سجف النور تمادت ......إذ لا نور بدوني

شطح صوفي

• من مجموعة تصدر قريبا للشاعر وهي التاسعة في رصيده.

الورقة السادسة

يقول لي الناس ما دهاكا

تغيب دهرا فلا نراكا

وما دروا أنني وليٌّ

أستوطن الأرض والسّماكا

فقد أتوق الى الأقاصي

فأنصب خيمتي هناكا

وقد أحنّ الى الفيافي

فأنشد الرّتم و الأراكا

أهيم فيها فلا أبالي

فلست أخشى بها هلاكا

وقد أطير إلى بقاع

ما رامها - قبل لي - سواكا

وقد أحط بواد طوبى

فيسأل الوادِ من تراكا؟

اجيبه :عابر وإني....

مستوطن إن أشأ حماكا

من أقوال أحد الأقطاب

القصيدة المقدسيَّة

حميد سعيد

لحجارتها لغةٌ

وُلدت في ظلال النبوّاتِ

واكتهلتْ في نصوص السماءْ

فإن فَتَرَ الوحيُ .. نادتْهُ

أقبل .. ومدَّتْهُ بالعنفوانْ

هي أوَّلُ معجزةٍ .. وحَّدت بينَ طيف القراءاتِ

ثُمَّ تكونُ ..

آخرَمعجزةٍ .. تتنازعُ فيها القراءاتُ

في كلِّ منعطفٍ موكبٌ .. يتغنى بما قيلَ فيها

وفي كلِّ معترَكٍ كوكبٌ .. يتعَثَّرُ بالشكِ ..

في مايقول الرواةْ

للمليكة بين المدائن .. أو للرسولةِ بين البلادْ

ولروحٍ بها ..

والذي كان فيها ..

يُصلّي العُفاةْ

. . . . .

. . . . .

إنها ..

النجمةُ المضيئةُ حيث يكون الأُفولْ

الحَصانُ الرَزانُ البتولْ

أُمُنا ..

بِكْرُ ملاحمنا .. وقصيدتنا والنشيدُ الجليلْ

لأريج البيوتِ العتيقةِ فيها ..

أناشيدُ محفورةٌ في البيانْ

وملحمَةٌ ..

بدأت منذُ كانَ الزمانْ

وتبقى مباركةً ..تتجلى على عرشها

الأرجوان
حيثُ كنّا .. تكونُ
وحيثُ تكونُ ..نكونْ
إنَّ الذين يرَونَ مفاتِنها .. في البياناتِ ..
لايفقهونْ
ومَن يدَّعون إنَّ الأساطيرَ مهرُ بكارتِها ..
كاذبونْ
إنَّها لحظةٌ .. أبدَعتها العروبةُ ..
فابتعدَتْ في السُرى ..عن ممالكَ موهومَةٍ ..
وتواريخَ غائبةٍ ..لن تكونْ
إنَّها لحظَةٌ ..أبدَعتها العروبةُ واستوطَنتْها ..
فَعنْ أيِّ أسطورةٍ يبحثونَ ؟
أيُّها المسجدُ الذي كان قبلَ الزمانِ ..
ترآى لمن سيكونْ
وصلّى على أرضه الأنبياءُ ..من قبل ما يولدونْ
ركانت فلسطينُ .. سجّادةً في السماوات والأرضينْ
من عبيرٍ وطينْ
ليس هذا الذي في الجرائدِ .. أو في القصائد ..
أو في الخطاب السياسيِّ .. مما يَمُتُّ إليها
وليس الذي في الكتابِ اليهوديِّ ..
أو في الكتاب اليهوديِّ .. مما يدلُّ عليها

. . . . . .
. . . . . .
أيُهذا الذي كان يرجمها في المساءِ ..
ويبكي صباحاً عليها
تتوارى الحدائقُ خلفَ شبابيكِها وتطلُّ الحرائقُ
لافي الحدائقِ كنتَ ولافي الحرائقِ..
إنَّكَ ..
مما تُفزِّعُ منه طيورُ الحقولِ ..
خرّاعةٌ رثّةٌ ..
تتهاوى وتبقى الطيورْ

* * *

في كتابٍ مضيئٍ ..قرأنا وصيَّة أشجارِها
وأناشيدَ أحجارِها
والمراثي التي خطَّها الطاعنون ..
وتبقى ..
كما أبدعتها العروبةُ .. من لغةٍ أودعتها القصيدةُ ..
بعضَ شمائلها ..
لاأخالُكِ إلاّ كما أنتِ .. من صلواتٍ ونورْ
وما ترَكَ الغاصبونَ على صفحات كتابكِ
مايَسطرون
انتظري ..
ويكون النشورْ

أنتِ عَلَّمتِنا ..أن يكون الحوارْ
بينَ جارٍ وجارْ
وليس معِ المُفترينَ على وردِنا والذمارْ
لاأخالُكِ إلاّ كما كنتِ ..
من جنَّتين اثنتين .. تُقبلينْ
السُرى والقيامة ..
أما الذين .. يُريدونَ أن توغلي في الكهانةِ
..
أو توغلي في المهانةِ ..
فانتبذي دونهم .. وطناً ساحراً ..

واصعدي في معارجكِ ..اقترني باليقينْ
لاأخالُكِ ..إلاّ كما ستكونين ..
هادئةً ..
بانتظار الرياح التي لم تَعُد في الجوارْ
إنَّ هذا الوقارْ
من سجايا الكبارْ

* * *

بعدَ حين ..
نعودُ بما أنتِ فيه .. من كهنوت السُعارْ



قصيدتـــان

سعاد خراط

وصايا صحراوية

قالت لي امرأة في الصّحاري :

خذي نبتة

وانسجيها وشاحا

وغطي به صدرك

ضعيه على وجهك

خذي السيف والخيل والقافية

وكوني

بلا قلعة

بلا صهوة

بلا أزمنة

خذي سيف جدتي وأجنحة العندليب

وكيسا يخبئ أسوارك التائهة

وقطرة ماء تكلّل رحلتها في السّراب

خذي العشق من لحظة الذاكرة.

وأنغامك الحائرة

لاترحلي في ثنايا الغياب

خذي العشق في رحلة لا تبالي الصعاب، ،

وأبرق في سمعيَ هاتف

يكلّمني من بطون الرمالْ :

كفاكِ انتظارا

وكوني رداء

يرفرف فوق التلال

وينسدل على سفح ترنيمة في الجبل

خذي هودجا

يراقص أخيلة الشّمس فوق الرّمال

ويرتشف النّور والأغنيات

ويقتات من قطرات النّدى

خذي الشّوق في المفردات الجميلة

خذي الحبّ في اللّغة الأبديّة

وكوني على حذر من بقايا السّراب

أقيمي حدودك في موطن الانتظار

ولا تبحري في الصّحاري القديمة بلا دعوة للرّحيل،

أنا السّنبلة

يختارني الصّوت

تختارني الكلمات

أنبتُ سنبلة في الصقيع

ليقتات منّي الحمام

وينشر أجنحة للسّلام

أنبت سنبلة في الرّبيع

لأقتات من وجعي في انتظار السّلام

أخرج أيقونة للوجع

لأنشر حلمي

وأعزف لحنا تمرّد هاجسه في الوتر

أنا السّنبلة

أنبت في حُلمي

وأخشى الرحيل على عتبات الألم

أنا لا أبالي إذا ولّت المفردات هاربة

فإنّي صنعتُ الكلام ليأخذ شكل الكلام

وسيّجت حرفي على نغمات الوتر

ليبتسم للوجوه الحزينة

ويقتات أوصالها الحاقدة

أنا لا أبالي إذا ما رقصت لوجه الصّقيع

أنا لا أبالي إذا ما نفضت غبار النعاس

أنا لا أبالي إذا ما لفظت الزّمن

أنا السّنبلة

وأوقتاتُ من وجعي في انتظار السّلام

مكتبة الحياة الثقافية

عبد الرحمان مجيد الربيعي

«الرواية النسائيّة التونسيّة» للدكتور بوشوشة بن جمعة (تونس)

آخر إصدارات الباحث الجامعي التونسي د. بوشوشة بن جمعة كتاب بعنوان «الرواية النسائيّة التونسية».

ويأتي هذا الإصدار استكمالا لسلسلة من المؤلفات التي كرسها المؤلف للإبداع السردي المغاربي، نذكر منها : مختارات من الرواية المغاربيّة المعاصرة (1992)، الرواية النسائيّة المغاربيّة (1996)، الرواية العربية الجزائريّة (1998)، اتجاهات الرواية في المغرب العربي (1998)، مختارت من الرواية النسائية المغاربية (2001)، التجريب وارتجالات السرد الروائي المغاربي (2003)، سردية التجريب وحداثة السرديّة في الرواية العربية الجزائريّة (2005)، الرواية الليبية المعاصرة، سيرورة التحولات ومعجم الكتّاب (2007)، الأدب النسائي الليبي، رهانات الكتابة ومعجم الكاتبات (2007). ومؤلفات أخرى تشكّل مكتبة مرجعيّة للباحثين.

في تقديمه لكتابه الجديد يرى بأنّ (الإبداع الرّوائي للكتابات التونسيات اكتسب سمة الظاهرة الأدبية الدالة في الأدب التونسي الحديث المعاصر) ويرجع السبب إلى (ما تحققه المدونة النصيّة من تنام في الأعمال الروائيّة).

كما يرى المؤلف بأنّ (الإبداع الأدبي النسائي نتاج سيرورة حركة أدبيّة نسائيّة تونسيّة بدأت قصصيّة مع منتصف الخمسينات من القرن العشرين بظهور أولى نماذجها «أردنا الحياة» و «عدالة السماء» لناجية ثامر، ثم شعريّة مع موفّى الستينات من ذات القرن بصدور أولى نصوصها «حنين» لزبيدة بشير).

أما بالنسبة للرواية فيذكر رواية «آمنة» لزكية عبد القادر فيرى أنّها (سليلة هذين الجنسين الأدبيين : القصّة القصيرة والشعر، أي أن كاتباتها لم يتحوّلن إلى تجريب مسالك الرواية إلاّ بعد أن تمرّسن بالإبداع الشعري والكتابة القصصيّة).

قسّم المؤلف كتابه إلى أربعة فصول رئيسيّة توزع كل فصل منها على عدد من المباحث، فالفصل الأوّل تحت عنوان «سؤال النشأة والتحوّل في الرواية النسائيّة التونسية»، والفصل الثاني تحت عنوان «خطاب الذات وقناع السيرة في الرواية النسائية التونسية»، والفصل

الثالث تحت عنوان «السردية والحداثة في الرواية النسائية التونسية» وهو الفصل الأطول في الكتاب يليه في هذا الفصل الرابع والأخير الذي جاء تحت عنوان «سؤال الخصوصية في الرواية النسائية التونسية».

هذا الكتاب مهمّ في موضوعه للذين يعنيهم هذا الفنّ الصاعد في الأدب العربي الحديث «فنّ الرواية».

وقد جاء الكتاب في 176 صفحة من القطع الكبير - طبع على الحساب الخاصّ في المطبعة المغاربية للطباعة والاشهار 2009.

«قصائد الشبق المعطّــر»
مختارات من شعر الحبّ الصيني
ترجمة محمد الخالدي (تونس)

يتوزّع إبداع الأديب التونسي محمد الخالدي على أكثر من جنس أدبي رغم أنّه عرف شاعرا، فقد جرّب كتابه الرواية وله في مجال الترجمة أعمال نشرت في بغداد وتونس.

ومن آخر إصداراته في هذا المجال «قصائد الشبق المعطّر» ويضمّ مختارات من شعر الحب الصيني...

في تقديمه لهذه المختارات يذكر بأن (ما يميّز هذه الأشعار هو هذا التماهي بين العاشق والطبيعة إذ يبدو الإنسان خاضعا للعناصر نفسها التي تخضع لها مظاهر الطبيعة الأخرى من نباتات وحيوانات وجماد. وتعجّ قصائد هذه الفترة بالعبارات الموحية والإشارات التي تحيل على الأساطير والأحداث التاريخيّة أو المعالم الشهيرة بحيث تصبح هذه الأخيرة جزءا لا يتجزّأ من نسيج النصّ).

ويرى الخالدي في تقديمه هذا (أن ما يمكن ملاحظته من خلال هذه النصوص هو التصريح بتعدد العلاقات دون خجل أو حرج. فالسيد قد يتخذ أكثر من زوجة أو خليلة إحداهنّ لجدّيتها والأخريات لعدم جدّيتهنّ، وكأنّ في ذلك تلميحا إلى أنّ الحياة ليست جدًا كلّها ولا هزلاً كلها).

ويشير المترجم إلى أنّ هذه القصائد اختارها الباحث الفرنسي المتخصّص في الحضارة الصينيّة جورج سولي دي موران من بين مجموعة هائلة من القصائد لأربعمائة شاعر يمسحون ثلاثة قرون من 1644 إلى 1911) وهذا الأثر صدر باللغة الصينيّة عام 1914.

وقد نقل المترجم هذه المختارات وعددها 63 قصيدة من بين مختارات جورج سولي دي موران.

وهذا نموذج من هذه القصائد الرائعة بعنوان «زائر اللّيل» للشاعر أوانغ كوانغ - تشرنغ وهو شاعر من أواسط القرن السابع عشر.

(عندما يسقط نطاقك ذو اللون

الشبيه بلون العنب الناضج تمامًا

سوف نقضي الليل ملتصقين أحدنا إلى الآخر كطائري «إوانغ وإيانغ»

يمكنك المجيء، من يدري ؟

شرط ألا يكون البدر قد توسط كبد السماء

وعندما تقبلين سوف يبدأ القمر في

التألّق ولن ترحلي إلا إذا بلّل ندى الحبّ الزهور

وهكذا تُشبعين كل ليلة شهوات حبيبك

ويستيقظ كل صباح

كمن يفيق من حلم).

يقع الكتاب في 49 صفحة من القطع المتوسط - سلسلة «ديدالوس» التي يديرها وليد سليمان - منشورات وليدوف (تونس) 2009.

«النور والعتمة»
إشكالية الحريّــة في الأدب العربي
للدكتور علي القاسمي (العراق)

آخر إصدارات الأديب والباحث العراقي المقيم في المغرب د. علي القاسمي كتاب بعنوان «النور والعتمة - إشكاليـة الحريـّة في الأدب العربي».

و د. القاسمي متعدد الاهتمـامـات فهو معجـمـي ومترجم وكاتب قصّة وباحث إضافة إلى كونه عضوًا في المجمعين العلميين بكل من القاهرة ودمشق.

كتب المؤلّف لكتابه تقديما قصيرا ذكر فيه أنّ كتابه هذا (يضمّ مقالات ودراسات تتناول إشكالية الحريّـة من قريب أو من بعيد، كنت قد نشرتها في دوريات تصدر في عدد من العواصم العربيّـة ولندن، وهي تدور إمّا حول مفهوم الحرية وحقوق الإنسان نتيجة اشتغالي مراجعا لتقرير التنمية البشريّـة الذي يصدره سنويا البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة أو نتيجة مشاركتي في المؤتمرات التي عقدت حول تقارير التنمية الإنسانيّـة العربية، وإمّا حول تجليات إشكاليّـة الحرية في بعض الأعمال الأدبيّـة العربية المعاصرة).

أما محتويات الكتاب فقد وردت فيها الفصول التالية: مفهوم الحرية في العقل العربي / جذور الحرية وحقوق الإنسان / أزمة الحرية: أزمة ثقافة لا أزمة سياسية / الحريات الثقافية في عالم متنوع / وسائل إشاعة مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان / حرية الكاتب في الخروج عن الأخلاق والأعراف: نصيحة إلى كاتب ناشئ.

أما الفصول اللاحقة فهي فصول تطبيقية يتناول فيها (الحريّـة مفهوما ورؤية من خلال عدد من المؤلفات الأدبيّـة لكتّاب من المغرب أو من البلاد العربيّـة وهي: الحرية في القصّة القصيرة: «سيدة المرايا» لعبد الجبار السحيمي سيدة القصة القصيرة / الحرية في الرواية: نافذة على «نوافذ النوافذ» لجمال الغيطاني / إلتزام الأديب بقضية الحرية: الالتزام في أدب عبد الكريم غلاب/ الحريّـة والهويّـة: «شرقية في باريس» لعبد الكريم غلاب / فقدان الحرية: الروائي ونظرية الكاتب: قراءة في رواية «المباءة» لمحمد عز الدّين التازي / حرية الكاتب في ابتكار أنواع أدبيّـة جديدة: الرواية الجغرافية في «بطن البقرة» لخيري شلبي / حرية الكاتب في تجنيس أعماله: الصورة القلمية في «وجوه مرت» لعبد الرحمان مجيد الربيعي / حرية الشاعر في الغموض: في مجموعتين شعريتين مغربيتين «المتلعثم بالنبيذ» لمحمد بشكار و«قاعدة البطريق» لمصطفى غلمان.

في هذا الكتاب يجتهد المؤلف في قراءة «اشكالية الحرية» باحثا عن النماذج التطبيقية التي تفي بالمرام سواء كانت في رواية أو مجموعة قصصيّة أو ديوان شعر، وقد توصّل إلى نتائج يمكن وصفها بالمهمة في هذا المجال، إذ أنّه لم يكتف بالنماذج التي طبّق عليها بل بحث عن المصادر والمراجع التي تعزّز ما توصّل إليه.

ولكن هذا لا يمنع من وجود ما يراه البعض قسرا (أحيانا) لبعض النصوص لتتطابق مع الرأي المسبق للمؤلف. ولكن هذا لا ينال من جديّـة وصدقية البحث الذي جاء في 302 صفحة من القطع المتوسط.

صدر الكتاب من منشورات دار الثقافة للنشر والتوزيع بالدار البيضاء (المغرب) سنة النشر 2009.

«خطوة القطّ الأسود»

لناجي الخشناوي (تونس)

صدرت أخيرا باكورة القاص ناجي الخشناوي المعنونة «خطوة القطّ الأسود». وهو عنوان إحدى قصص هذه المجموعة التي نشرتها مجلّة الحياة الثقافيّة في أحد أعدادها لهذا العام وارتأى الكاتب أن يطلقه على مجموعته هذه التي تضمّ أربع عشرة قصّة.

ارتأى ناجي الخشناوي أن يكتب مدخلا لمجموعته هذه تحت عنوان (لا الوقت لنا ولا الكتابة أيضا) وهو صرخة هكذا أصفها - عن معاناة الكاتب اليوميّة وسط زحام الآخرين. والوقت المبدد سدى ما بين وسائط النقل والعمل والمقاهي ثم التعب الذي يقود إلى النوم.

يقول: (من السهل عليك أن تتخلّص من محتتك الجبريّة هذه وأنت محاط بالمطفأة الأوسع وقليل يتلاشى تحت سطوة الموسيقى الصاخبة وساقان ترفلان في الدفء تحت صوف الغطاء الشتوي.. من السهل عليك أن تكتب على الورقة البيضاء من دون أنفاس حارقة ولا روائح عطنة أو كعاب ثاقبة... إلخ).

تقديم بقدر ما فيه من (قرف) فيه من (الحلم) الكثير.

والخشناوي قاص ذو نفس حداثيّ، ومجموعته هذه تشكل خطوته الواثقة رغم أنّه رآها (خطوة) القط الأسود.

ومن المؤكد جدّا أن هذه المجموعة من العلامات الجميلة للقصّة التونسية القصيرة الجديدة التي أنجزها كتاب وكاتبات متميزون.

تقع المجموعة في 106 صفحات من القطع المتوسط - منشورات ورقة للنشر (تونس) سنة 2009. والمجموعة مهداة إلى الشاعرة يسرى فراوس قرينته (قلبا وعقلا) مع قول لمحمود درويش جاء فيه: (ستعثر الأنثى على الذكر في جنوح الشعر نحو النثر).

«سفر العاشق»

لرشاد أبو شاور (فلسطين)

جديد الروائي والقاص الفلسطيني رشاد أبو شاور مجموعة قصصيّة بعنوان «سفر العاشق»، وقد عرفناه كاتبا صاحب مشروع إبداعي محوره فلسطين الذي استلهم منها كل أعماله إضافة إلى مقالاته السياسية والثقافية التي يكتبها منذ عام 1990 في جريدة «القدس العربي» التي تصدر من لندن.

ومن إصداراته الروائيّة نذكر: أيام الحبّ والموت (1973). البكاء على صدر الحبيب (1974)، العشاق (1977)، الرب لم يسترح في اليوم السابع (1986). شبابيك زينب (1994). ومن إصداراته في القصة القصيرة نذكر: ذكرى الأيام الماضية (1971)، بيت أخضر ذو سقف قرميدي (1974)، الأشجار لا تنمو على الدفاتر (1975)، مهر البراري (1977)، بيتزا من أجل ذكرى مريم (1981)، حكاية الناس والحجارة (1989)، الضحك في آخر اللّيل (1999)، الموت غناء (2003).

ومجموعته الجديدة هذه تضمّ 28 قصة قصيرة هي بشكل أو آخر استمرار لمجموعته «الموت غناء» حيث وجدناه فيهما ميالا لكتابة قصص مكثفة بلغت لغته فيها شاعرية قصوى، وأحداثها تكاد تكون يومية ملتقطة مما يبثّه الواقع اليومي من حكايا في لقطات تتناثر ثمّ تجتمع أمام عدسة الكاتب.

ونجد «العشق» المتبتّل الصافي نولاً نسج عليه العدد الأكبر من القصص التي تساهم الذاكرة الأولى للكاتب في استدراجها من مخابئها القديمة.

ونعتقد بعد قراءة هذه المجموعة أنّ أبا شاور أصبح فيها جديرا بلقب «شاعر القصّة القصيرة».

حتّى عناوين جلّ القصص تؤشّر هذه الشاعريّة الاستثنائيّة التي انتابت قصص أبو شاور المغنيّ بالايقاع اللغوي، وصفاء الجمل واختزال المعاني بكثافة قصوى.

نذكر من الأسماء : أنا من أهوى/باقة ورد بانتظارها/ رجل مبعثر/ رجل وحيد مع نفسه/صخرة العاشقين/قبلة الحياة/نظرة ودّ على ضريح زابانا/سفر العاشق (التي حمل الكتاب عنوانها).

وللتدليل على لغة القاصّ في مجموعته هذه نورد المقطع التالي من قصة «أنا من أهوى» : (وبعد أن تصادفنا سألته ذات ظهيرة ونحن نجلس في «البوفيه» نأكل السندوتشات مع المرطبات :

- كيف عرفتما بعضكما ؟ أين ؟ ومتى ؟

أجابني ساهما بصوته الخافت الهامس :

- رأيتها تقف على الدور لتقديم أوراقها أمام الصندوق، فتأملتها، وإذا قلبي يرتجف في صدري، وإذا بي أندفع صوبها كالمنوّم وأسألها عن اسمها، وماذا ستدرس؟ ضحكت ونظراتها في عينيّ دون أن تطرف جفونها، وهذا ما جعلني أقول لنفسي : هذه المرأة لي وأنا لها، نحن قدر بعضنا، ومنذ ذلك اليوم صرنا واحدا).

ورشاد أبو شاور في مجموعته هذه يساهم في ردّ الاعتبار - إذا جاز لنا هذا التعبير - للقصّة القصيرة التي غادرها كتّابها إما إلى الصمت أو إلى الرواية.

وما فعله أبو شاور إضافة إلى المجهودات الكبيرة التي تقوم بها وحدة البحث في القصّة القصيرة بكلية الآداب بنمسيك - الدار البيضاء هما دليلان على أنّ القصة القصيرة لم تنته في أدبنا، وأنها عائدة لمدونتنا بالزخم الذي كانت عليه، ذلك الزخم الذي واصلته أجيال جادّة منذ محمود تيمور مرورا بأسماء أخرى أمثال: يوسف إدريس، يوسف الشاروني، سليمان فياض، سعيد الكفراوي (مصر)، توفيق يوسف عواد، سهيل إدريس (لبنان)، زكريا تامر، عادل أبو شنب، ياسين رفاعية (سوريا)، غائب طعمه فرمان، مهدي عيسى الصقر، محمد خضير، موسى كريدي، أحمد خلف، عبد الستار ناصر (العراق)، عبد الجبار السحيمي، أحمد بوزفور (المغرب)، سميرة عزّام (فلسطين) وصولا إلى الأسماء الفتيّة الحاضرة اليوم أمثال أنيس الرافعي (المغرب)، وحيد الطويلة (مصر)، عدا كوكبة من القصاصين الجادين بتونس. وأسماء كثيرة أخرى.

صدرت مجموعة رشاد أبو شاور «سفر العاشق» من منشورات دار الشروق للنشر (عمان) سنة 2008 - عدد صفحات الكتاب 176 من القطع المتوسط.

«الوجه والخطاف»
لمنصف الهمامي (تونس)

صدر للشاعر منصف الهمامي ديوانه الأول «الوجه والخطاف»، هذا الشاعر الذي بدأ ينشر قصائده منذ ستينات القرن الماضي، ولكنه لم يجمعها في ديوان من قبل رغم مرور سنوات طويلة على كتابته للشعر.

كتب الشاعر والأكاديمي الراحل د.طاهر الهمامي (على سبيل التقديم) لهذا الديوان، وما كتبه يذكّرنا ببدايتهما المشتركة: (هذه باكورة أشعار منصف الهمامي الذي تأخر عن إصدارها طويلا، فقد جمعتني به أيام التلمذة الجميلة في مدينة القمح والسكر والسحر والأحلام باجة منذ أربعين عاما، وكنا شعراء في مقتبل العمر والتجربة، صغارا والأماني كبار).

ويعتبر د.طاهر الهمامي نشر هذا الديوان بمثابة

السعي (إلى تدارك ما فات). كما يذكر أن الشاعر (لم يلتزم هو أيضا عروض الخليل وإن كنت أذكر أنه نظم عليه في البدايات، لكنه خرج عليه كما خرجنا، ويبدو لي أقرب إلى ما يعرف بـ «قصيدة النثر» منه إلى قصيدة «غير العمودي والحر» التي تعاطيناها في ظل حركة الطليعة).

ثم يقول : (بيد أن قصيدة منصف متى نزّلتها في السياق التونسي من «قصيدة النثر» وجدتها ذات نكهة خاصة وسيماء مميزة في مبانيها ومعانيها، ووجدت بين نصوصها خيطا ناظما من اللغة الشعرية والتعبير الفني والرؤية الوجودية).

يضم الديوان 35 قصيدة. وهذا مقطع من قصيدة «أطياف» التي يعود تاريخ كتابتها إلى 2002:

(ياذا المتشبث

بالأطياف

تبغي شيئا

من لاشيء

تتلوى

تبكي

تتأوه

تنزف

ثم تدور... تدور

تطوي أبعادا

أبعادا

كيف لرجل مثلك

أن يمسك بالوهم

هيا قاوم هذا الطوفان

أمسك بالعروة... هيا

وتشبث

سوف يجيئك ذاك الوجه

ذات الماء

وستفرح

تفرح

تفرح).

هذا الديوان جدير بالاهتمام اذ هو حصيلة أربعين سنة من الشعر. وقصائده منتخبة من بين ماكتبه الشاعر في هذه السنوات.

يقع الديوان في 112 صفحة من القطع المتوسط - وقد نشر على حساب الشاعر - وطبع في مطبعة فن الطباعة (تونس) 2009.

اصدارات جديدة :

«قارة من العشق» للطيب شلبي (تونس)

جديد الشاعر الطيب شلبي ديوان بعنوان «قارة من العشق» مع عنوان ثان (مالم يقله جبران في لقيا النور).

ويضم الديوان خمسة عناوين هي : عاشق ومعشوق بحق/ أوراق اللوز/ انسان من جهة القلب/ الحقول المرحة/ رأيت الأكوان تتصارع تبكي أكثر من أخيتها.

يعمل الشاعر على تطوير تجربته التي بدأها منذ تسعينات القرن الماضي.

عدد الصفحات الديوان في 104 صفحات من القطع

المتوسط- طبع في شركة فنون الرسم والنشر والصحافة- سنة 2009.

«المواهب الربانية لشيخ الطريقة القادرية» لصلاح بوزيان (تونس)

صدر للأديب والكاتب صلاح بوزيان كتاب بعنوان «المذاهب الربانية لشيخ الطريقة القادرية الباز الأشهب سيدي محي الدين عبد القادر الجيلاني 470 هـ/ 561 هـ.

ويضم الكتاب فصولا تقدم سيرة الجيلاني ومفهوم التصوف عنده وبداية طريقه وسياحته ببغداد وصفاته ومقامه وعقيدته وأوراد الطريقة القادرية ... الخ.

والكتاب ثمرة بحث المؤلف محاولة منه لتقديم معلومات متكاملة عن الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني أو (الكيلاني) كما يكتب في الشرق.

عدد صفحات الكتاب 142 صفحة سنة النشر 2009 وقد طبع بمطبعة قطيف - قفصة.

دوريات عربيّــة :

مجلّـة «الحركة الشعريّـة» (المكسيك)

وصلنا العدد الجديد من مجلّة «الحركة الشعريّة» التي يصدرها من المكسيك الشاعر والأكاديمي اللبناني د. قيصر عفيف. يحمل العدد تاريخ شهر مارس 2009.

تضمّن العدد مجموعة كبيرة من النصوص الشعريّة تنتمي لأجيال مختلفة، ويلاحظ أنّ الشعراء الشبان التونسيين قد ساهموا مساهمة أساسيّة في هذا العدد، وبعضهم من الأسماء الجديدة والآخر من الأسماء المتواجدة منذ سنوات نذكر منهم : عبد الفتاح بن حمودة، نسرين قوجة، أنور اليزيدي، جميل عمامي، رياض الشرايطي، عائشة المؤدّب، منذر العيني، سامي الذيبي، حسين القهواجي، سميرة بيّه الشطّي وغيرهم.

تصدّر العدد نصان الأوّل لقيصر عفيف (المغارة) والثاني لعبد الرحمن مجيد الربيعي (محطات نائية). ثمّ هناك مساهمات لشعراء أمثال د. غازي براكس، نجوى سلام براكس، يوسف الجباعي (لبنان)، ومن العراق قصائد للشعراء عذاب الركابي، محمد العناز، فوزي السعد، رحاب الصائغ، عباس محسن، ومن المغرب قصائد للشعراء : فاطمة الزهراء بنيس، عبد الله المتّقي. وهناك مساهمات أخرى لشعراء من فلسطين وسوريا والأردن أمثال : عماد الدين موسى، سيف الدين محاسنة، طارق الكرمي، حسين حبش، فراس سليمان، ورسالة لرئيس التحرير من نصر جميل شعث ومواد أخرى تشكل إضمامة أنيقة تهديها المجلّة لقرائها.

اشتـــراك

ترحب إدارة تحرير مجلّـة الحياة الثقافيّـة بكل من يرغب في الاشتراك فيها وتدعوه أن يعتمد هذا الأنموذج وملأه بغاية الدقّـة والوضوح ثم إرساله إلى عنوان المجلّـة مع نسخة من وسيلة الدّفع.

مع الشكر على حسن تعاونكم



اشتـــراك

الاسم واللّقب : ....

العنوان : ....

الترقيم البريدي : .... **الهاتف :** ....

عدد نسخ الاشتراك : .... (اشتراك سنوي لعشرة أعداد : 20,000 د)
(عشـــرون دينـــارا تونسيـــا أو ما يعـادلها)

يتمّ إرسال الاشتراك بواسطة حوالة بريديّـة أو صك بنكي بالحساب الجاري للمجلّـة بالبريد رقم : 17001000000000+7+9987 اللجنة الثقافية الوطنيّـة (الحياة الثقافيّة).

عنوان المجلّـة : 59، شارع 9 أفريل – تونس – الهاتف : 921 561 71 – 443 260 71